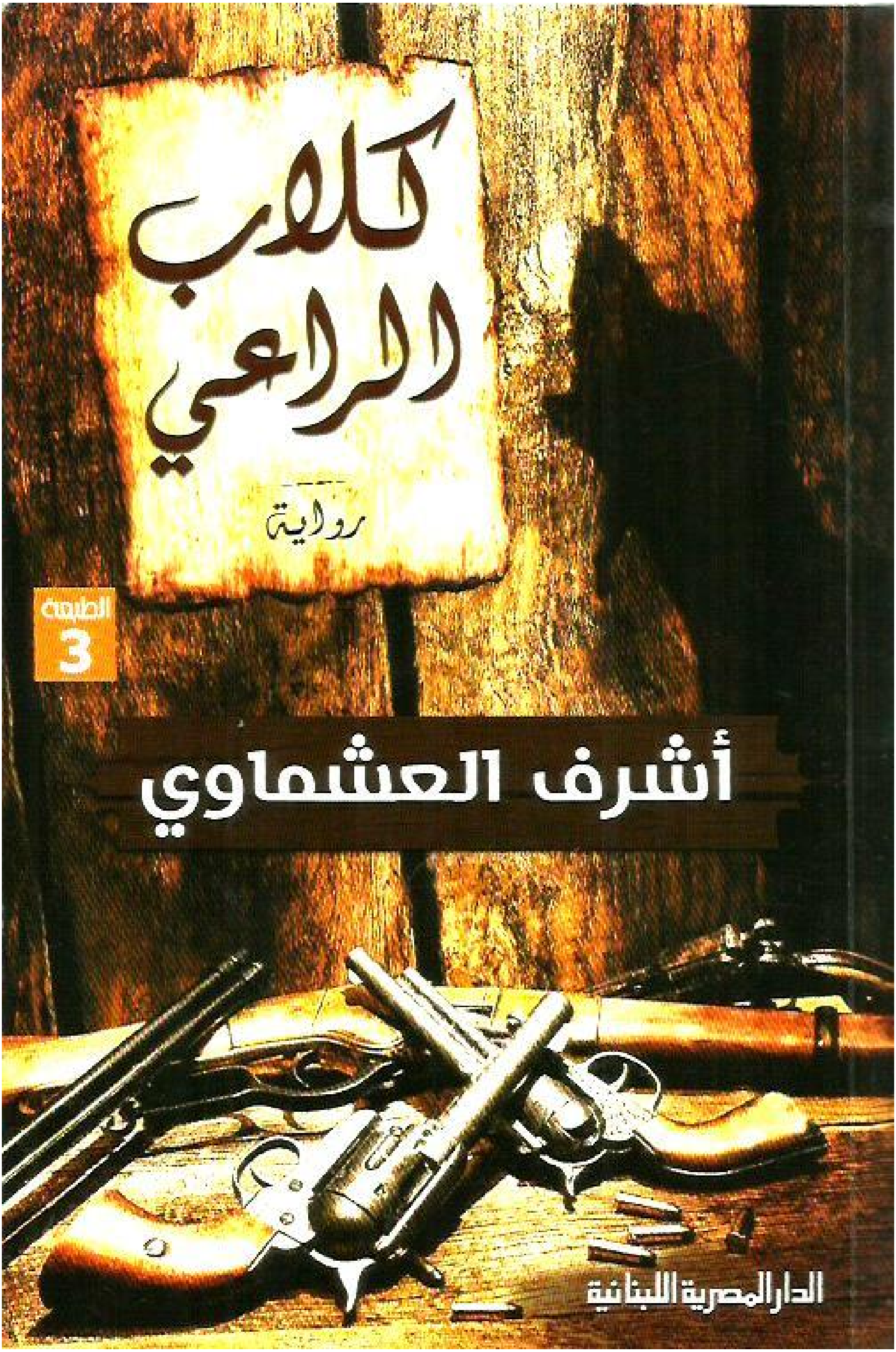
كلاب الراعي
رواية
الطبعة 3
أشرف العشماوي
الدار المصرية اللبنانية

كلاب الراعي

رواية

العشماوي، أشرف.
كلاب الراعي: رواية / أشرف العشماوي. - ط3.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015.
360 ص؛ 20 سم.
تدمك: 1 - 649 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ - العنوان. 813
رقم الإيداع: 26221 / 2014

©
الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى: ربيع أول 1436هـ - يناير 2015م
الطبعة الثانية: 2015م
الطبعة الثالثة: 2015م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

كلاب الراعي

رواية

أشرف العشماوي

الدار المصرية اللبنانية

«لو أدرك أول القطيع مصيره.. لما توالت
عليه باقي الصفوف»

أشرف العشماوي

إهـــــداء

إلى مَن أفتقدهما كل يوم أبي وأمي

مَن نحبهم لا يموتون حتى لو وارى التراب

أجسادهم، فذكراهم تظل في القلوب للأبد..

أشرف...

1
رأس الذئب الطائر

- لا تقترب أكثر من ذلك..

أوقـف الرجـل الملثم حركـة ذراعه مثبتًـا المجداف في عمـق النهر، وتـرك الأخرى ترتخي قليـلًا، كان الظلام يلف أركان المحروسـة، ودار سـيف الدولة قابعة على النيل في سـكونٍ بأقبيتها العالية، على مقربة منها حـواري ملتوية كالأفاعي، وشـوارع ضيقـة يتناثر في أركانهـا الغارقة في العتمة متسـوِّلون حفاة، شـبه عـراةٍ، يتكوَّمون متلاصقيـن بحثًا عن دفءٍ مُفتقد.. دواب مربوطة إلى قطع حديدية مثبتة في الجدران، تجتر قليلًا من طعام جافٍّ وخضرة يابسـة في صمت، وتتلفَّت بائسة في حيرة، لا يعرف أحد ما يدور برأسـها.. أشباح متفاوتة الأحجام تتحرك من بعيد، يقتربون بحذر، يتضح أنهم رجال ملثمون من المماليك وأتباعهم، أحدهم يحمل جـوالًا كبيـرًا، به مسـروقات من دار قريبة بعـد أن قتلـوا صاحبها وتركوا زوجتـه مليحـة الوجه ليعودوا إليها فـي وقتٍ ليس ببعيـدٍ كعادتهم، بينما الآخـرون يفكون ربـاط بغلتين كبيرتين للاسـتيلاء عليهما، وسـرعان ما طواهم سواد الليل والتواء الحارات ليختفوا قبل بزوغ النهار.

فتح الحسن الرومي عينيه وفركهما بشدة وهو لا يزال مستلقيًا على الأرض، متدثرًا بأغطيةٍ تبتلع جسده الضئيل، فلا يكاد يُرى من بينها، حملق في قبة حجرته الفسيحة، التي تتوسطها حلية عريضة من زجاج ملون تعكس أشعة الشمس وضوء القمر بألوانٍ خمسةٍ متباينةٍ، فتحيل حجرة نومه إلى مزيجٍ غريب من الأضواء الخافتة الخجلة، التفت ناحية كوة تغوص في عمق الجدار ومرتفعة عن الأرض بمسافة، كان في طفولته يختبئ بها خوفًا من زوج أمه ووالد كمال الدين سيف الدولة، أخيه الأصغر غير الشقيق الذي اعتاد الوشاية به مخبرًا أبيه عن مكانه الذي يقبع فيه، فكان دومًا ينال عقابًا مضاعفًا..

كانت العتمة تلف الحجرة وتحيطها بهالةٍ من السكون لا يقطعها كل فترة إلا عواء كلب آتٍ من بعيد وأصوات السقائين الذين يملئون قِربهم من مكان تجمُّعهم القريب من الدار، وهم يستعدون للمرور على بيوت الجيزة لسقياها مع أول خيط نور بعد الفجر، نهض مسرعًا قبل أن يداهمه ضوء الصباح، واغتسل من إبريقٍ طويلٍ وهو يجلس القرفصاء أمام إناءٍ عريضٍ من النحاس، ولما أزاح المنشفة غلبت ابتسامته عبوس الاستيقاظ الذي كان لايزال عالقًا بوجهه بعد أن وقعت عيناه على ابن أخيه الطفل ناجي، وقد تكوَّم كعادته في أحد أركان الحجرة هربًا من قسوة أمه المتسلطة وغلظة أبيه، فبَدَا كجنين كبير الحجم، بوجهٍ صغيرٍ حالمٍ، نائمٍ في سكينةٍ، وهو يضم ركبتيه إلى منتصف صدره..

تنهَّد الحسن، ثم رفع ذراعيه متشبثًا بحافة الكوة وهو يثني ساقيه ويرفعهما بدفعة على الأرض ليثب بخفةٍ، وسرعان ما كان يتكوَّم داخل التجويف وهو يحني رأسه في حرص، عبث في صُرَّة كبيرة بكفين يعرفان طريقهما جيدًا حتى قبض على خنجرٍ فضيٍّ لامعٍ، بنصلٍ قصيرٍ.. وضعه في غمده، ثم تفحَّص طبنجته ذات المقبض البرونزي الذي يحمل نقوشًا بديعةً لفرسان على جانبيه.. ابتسم في زهوٍ وهو يتذكر كيف استولى عليها من أحد الضباط الفرنسيس قبل رحيلهم بشهور قليلة، عندما أطار رأسه بضربة واحدة من سيفه، هزَّها مرتين كأنه يزنها بكفِّه، ثم تأكد من حشوها بالبارود، واحتفظ معه بكميةٍ مناسبةٍ احتياطيةٍ، وضعها في جراب صغيرٍ، ثم أحكم ربط الصُّرة وما تبقى بها من ملابس مزركشة، تأمَّل الحراب الثلاث التي يستخدمها في إشباع هوايته الأثيرة في صيد العقارب، وإحداها تستقر بداخل جراب من الجلد، ورثها عن أبيه، ولها عنده مكانة خاصة، ثم هبط من الكوة في خفة قِطٍّ بريٍّ متسللًا على أطراف أصابعه بعد ما ارتدى ثوبه الأخضر الداكن، والهواجس تتقافز في رأسه كفئران حبيسة صندوق ضيِّق تتلاحم وتتزاحم أملًا في نجاةٍ قريبةٍ.. أغلق برفق الباب المؤدي إلى المَرسى، حيث يقبع قاربه الخشبي متأرجحًا على صفحة النهر وكأنه يعلن عن فرحه بقدوم صاحبه، ومن بعيد بدأ القارب الآخر يتحرك نحوه ببطء، وقبل أن يهبط الدرجتين الأخيرتين من الدرج الحجري، حطَّت كف سوداءُ ضخمةٌ كخُفِّ الجمل على كتفه من علٍ في حنوٍّ شديدٍ، مشوبٍ بالحذر، وصاحبها يقول بنبرةٍ خانعةٍ: «هل تحتاج إلى مساعدة يا سيدي؟»

التفت وهو يتظاهر برباطة جأشه، لم يكن سوى صالح، العبد الأسود القادم من الجنوب، والذي يكبر الحسن بعشر سنوات، وقد انتصب أمامه بطوله الفارع، خفيض الرأس قليلًا، ويداه مضمومتان إلى صدره، وعيناه مثبتتان على عيني سيده، لا تجرؤ إحداهما على أن ترمش ولو لمرةٍ واحدةٍ، و حواسه كلها منتبهة لتلقي الأوامر.. رمقه الحسن بنظرةٍ حاسمةٍ ردَّت بصره خاسئًا إلى قدميه، فانتحى جانبًا على الفور ليُفسح له الطريق نحو المَرسى، بعدما أدرك أن سيده لا يرغب مطلقًا في صحبته، فامتثل ساكنًا كتمثالٍ من أبنوس.

راحت خيوط ضوء الصباح الأولى تشق أستار الليل بهدوءٍ فبدت وكأنها تتربص به لتفاجئه بعدما حاصرته، ثم بدأت تمزقها برفقٍ لتبدِّدها تمامًا مثلما تتلاعب الشمس بسحب الغيوم، دقَّ الجند المدجَّجون بالسيوف حول خواصرهم كعوب بنادقهم على الأرض ليُفسحوا الطريق لموكب نائب المحتسب كمال الدين سيف الدولة وحصانه يشق غبار موكبه المكوَّن من أربعين فارسًا يحيطون به من كل اتجاه، لا يكادون يلحقون به من فرط مهارته، وهو يمتطي جوادًا أشهب، وعمامته الحمراء القانية المماثلة للون ثوبه تميزه وسط رجاله بجسده الضخم وطوله الفارع وملامحه المتجهمة دومًا..

مدَّ الجنود جسرًا خشبيًّا ليعبر الموكب خندقًا عريضًا وعميقًا، فلا تجتازه الخيول حتى ولو ضاعفت من سرعتها، ولا يخرج منه حيًّا مَنْ

سـقط فيه.. عند لحظة وضع الجسر، هدَّأت خيول الموكب من سرعتها، وراحـت تدور في حلقاتٍ غير مكتملةٍ وكأنها تتململ من الانتظار، لفت انتباهه جنود كثيرون مُتَّشـحون بالسـواد، منتشـرون في جماعاتٍ متفرقةٍ علـى مقربةٍ من أسـوار القلعة ومدخلها الرئيسـي، تسـاءل بنظـرةٍ صامتةٍ صوَّبهـا إلى قائد حرسـه زهير، الـذي اقترب منه بجواده، ثـم ترجَّل وهو يُخفـض من صوتـه: «هـؤلاء بعض جنـود الإنكشـارية التابعيـن للوالي يا سـيدي، وقد تأخَّـرت رواتبهم شـهورًا طويلة، فحضـروا للقاء حضرة مولانـا المحتسـب مسئول الأمـن والنظـام، أو إن تيسَّـر التشـرُّف بلقاء القائمقـام مولانـا طاهـر باشـا ليطالبوه بهـا، وهـو لا يريد أن يسـدِّد لهم المتأخـرات كلها، وإنما تعهد بدفع ما اسـتُحق منـذ ولايته فقط، وأبلغني الحرَّاس أن قائدهم وبعض رجاله ينتظرون بالداخل منذ فترةٍ، لعلَّ مولانا الوالي ينعم عليهم بالرضا ويأمر طاهر باشا بسداد رواتبهم»..

ثـم اقترب وهـو يكاد يهمس: «ولكـن يبدو أن نذر الشـر تحوم حول القلعة، هكذا سـمعنا من العسس والبصَّاصين منذ أيام عندما خيَّم هؤلاء المشاة الإنكشـاريين بالقرب منها، وهم أقوى فرق الجيش العثماني كما تعلم، فلم نشتبك معهم»..

امتعـض وجـه كمـال سـيف الدولـة، وتسـرَّب بعـض الخـوف إلى مفاصلـه، فكتمه وراح يقضم أظافره المتآكلة بعشـوائيةٍ، فبدت كخطوطٍ متعرجـةٍ، كان يلصق سـاقيه بجواده وكأنه يحتمي بـه ويتأهَّب للهرب في أي لحظـة غدرٍ بعدما كثرت مؤامرات القاهرة في الآونة الأخيرة.. شـعر

الحصان بقلق فارسه فصهل وهو يرفع رأسه ويدب بقدميه الأماميتين، فسرت العدوى وتوترت بعض خيل الموكب.. قطَّب كمال جبينه متسترًا خلف تجهُّم وجهه الدائم، وراحت فرائصه تهتز ببطءٍ من خوفٍ مكتومٍ تعلو وتيرته تدريجًا وكأنها على وشك أن ترتعد بعد قليل..

أشار له زهير بيمناه، فعبر كمال الجسر في تراخٍ، انسحب أثره على رجاله فأبطئوا من سرعتهم، صعد الموكب نتوءًا صخريًّا، وتجاوز قصر الأبلق من ناحية الجنوب، وما إن اقترب من الإسطبلات، حتى هرع جنود من المماليك ليُمسك أحدهم بلجام جواد كمال الدين، ويقف الآخر بالقرب منه ليسير وراءه، ترجَّل بعض رجاله وهم يهرولون خلفه، فقد كان رغم جسده الممتلئ واسع الخطوة، وله هيبة لا تخطئها العين..

اقترب كاتم أسرار القلعة منه هامسًا ببضع كلماتٍ وهو يشير بإصبعه لأعلى، فغيَّر اتجاهه عابرًا ساحة الطبلخانة الواسعة، اقترب من قاعة الأعمدة، فأشار بكفِّه لرجاله بألَّا يرافقه سوى قائد حراسته زهير.. عبر الممر الطويل لباب القِلة الذي يفصل بين نطاق القلعة العسكري ونطاقها السلطاني بعد أن تم فتحه مع شروق الشمس كالمعتاد.. كانت قاعة الأعمدة تعلوهما مباشرة، ولا يفصلها عنهما سوى بضع درجات حجرية ملتوية، لكن قبل أن يشرعا في ارتقائها سمعا جلبة شديدة، وصليل سيوفٍ، ثم علا صوت المنادي الجهوري صارخًا: «خيانة.. خيانة»..

استل زهير سيفه ووضع كمال الدين يده أسفل خصره متحسسًا طبنجته الطويلة المحشوة بالبارود.. إلا أنه فجأة، ومع تداخل الأصوات التي تُنبئ عن نزالٍ لم يستغرق سوى وقتٍ قليلٍ، تسمَّرا في مكانهما ومقلتاهما مفتوحتان على آخرهما من شدَّة الدهشة الممزوجة بالخوف، وهما يشاهدان رأس رجلٍ قد فُصل عن جسده بضربة سيفٍ حاسمةٍ، باترةٍ، وأُلقي الرأس من شرفة قاعة الأعمدة، فتدحرج أمامهما مرتين، واهتزَّ قليلًا حتى استقرَّ على مرمى حجرٍ من أقدامهما، فتراجعا خطوة واسعة والخوف قد تملَّكهما تمامًا.. فقد كان رأس نائب الوالي طاهر باشا قائمقام مصر!

قبل أن يحرِّكا ساكنًا، فوجئا بأربعة رجالٍ مُلثمين يحاولون الفرار من اتجاهين مختلفين لتشتيت مُطارديهم، وعسكر المماليك من خلفهم يُطلقون بارود بنادقهم صوبهم في عشوائيةٍ بعد أن اختلط الحابل بالنابل، وظهر أعلى البرج الجنوبي اثنان من حُرَّاس الوالي يحملان الأقواس، وسرعان ما أطلقا وابلًا من سهامهما في أثر الرجال الملثمين الذين كان أحدهم، والذي بدا أنه قائدهم، رغم جسده الضئيل، وقصر قامته؛ قد نجح في أن يمتطي جوادًا شاردًا من رِكاب كمال الدين، ثم أطلق له العنان، في حين سقط الرجال الثلاثة الملثمون في قبضة حُراس القلعة، بعد أن أصيب أحدهم في ساقه بطلقة بارود فوقع، وحار الاثنان الآخران في طريقة الهرب، فاستغرقهما التفكير لثوانٍ كانت كفيلة بالقبض عليهما، فاستسلما بعد مقاومةٍ خفيفةٍ لم تلبث أن خمدت.

فَرَكَ كمال سيف الدولة عينيه غير مُصدقٍ ما جرى أمامه، وكأنه كابوس لـم يُفق منه بعـد، فما حدث لا بد وأن يدفع ثمنه من جاهٍ وسـلطانٍ يتمتع بهما، فمسـئولياته عن الأمن والنظام والحراسـة في رقبته وحده وستُعلَّق لـه المشـانق إذا مـا اختلَّ ميـزان إحداها، فمـا بالنا إذا ما كانـت الفوضى والانفلات في قلب القلعة، دار الحكم ومحل إقامة الوالي، هكذا حدَّثته نفسـه القلقة وهو يجر قدميه جرًّا إلى داخل قاعة الأمراء، وآلاف الأسئلة تتدافع إلى رأسه بسرعةٍ كالسيل، ولكن بلا مجيب.

كانت جثة طاهر باشا ملقاة على ظهرها، مفصولة الرأس، بينما استقرَّ طربوشـه الأحمر القصير بالقرب من خصره، و قد أحاط الحراس بها في وجـوم.. مضت دقائق ثقيلة بطيئة على كمال الدين وهو يسـتمع من أحد حُراس طاهر باشـا لما حدث، وكيف أن أربعة رجال ملثمين تسـلَّلوا إلى القلعة وانخرطوا مع جنود الإنكشارية الغاضبين، حتى احتدم النقاش مع طاهر باشـا، فاسـتل أحدهم سـيفه في لحظةٍ خاطفةٍ ليطير به رأسه، بينما راح الثلاثـة الآخرون يوجهون ضربـاتٍ مباغتةٍ لبقية الحُـراس، فأصابوا منهم خمسة بجراحٍ، ثم حاولوا الهروب..

لـم يكد شـاهد العيان ينهـي روايته حتـى دخل القاضـي عثمان ركن الديـن إلـى القاعة قادمًا مـن دار العـدل الملاصقة لقاعـة الأعمدة، وهو يحوقل ويُسـبح والفـزع يغمر وجهه، يكاد يبلل لحيتـه الطويلة المخضبة بالحنـاء مـن فرط شـدته، اقترب مـن كمال الديـن ضاربًا كفيـه ببعضهما عندمـا وقعـت عيناه علـى جثمان الباشـا الذي كان ينزف من رقبته سـيلًا

مـن دماءٍ فاتحةٍ.. رمى كمال الدين القاضـي بنظرةٍ باردةٍ و تركه غارقًا في تسـاؤلاته وفزعه، ثم علا صوته بنبرةٍ عسـكريةٍ شـقَّت الصمت وجذبت أنظـار الرجال إليه، مصدرًا أوامره بحسـم، فاسـتُنفر الجنـد حول القلعة، وأحاط فرسـان المماليك بجنود الإنكشـارية الذين أطبقوا على سيوفهم وطبنجاتهم في تأهب واضحٍ للقتال بعد أن تملكهم شـعور راسـخ بأنهم قـد وقعوا فـي مكيدة دُبِّرت بعنايةٍ ليكونوا فريسـتها، بعد أن كان ضحيتها الأول طاهر باشا، الذي طار رأسه بغير مقدمات، فتكتلوا في ركنهم بقاعة الأعمـدة لا يعرفون مصيرهم، وراحوا يفكرون بدل المرة مرتين، قبل أن يخطو أيٌّ منهم خطوة واحدة نحو مجزرة باتت على الأعتاب..

أشـار كمـال بعينه إلى حارسـه قائـلًا: «استدعِ لي جلهوم فـورًا من الإسـطبلات، والحقا بي في سـجن العرقانـة».. ثم زفر مرتيـن في وعيدٍ صريحٍ، قبل أن يغادر متجهمًا..

ضُربـت الأبـواق ثـلاث مـرَّات متتالية، وخرج سـرب من الفرسـان والغبـار يغلفهم من جـرَّاء ركض خيولهم متجهين نحو أرض الفسـطاط جنوبًـا، والبعـض الآخـر يركض بسـرعة فائقة فـي اتجاه قصـور الأمراء شـمالًا، ناحيـة صحراء الريدانية، للبحث عن الملثـم الهارب الذي نجح أحد الرماة في إصابته في ذراعه بسـهمٍ، لكنه فاجأهم بنزعه بيده، وغرسه فـي رقبة أول جندي مملوكي اعترض طريقه وهو يعبر الجسـر الخشـبي فـوق الخندق.. وسـرعان ما ركـض الرجل بجواده في حقول الفسـطاط باتجـاه نيـل الجيـزة.. ولـم يمر وقـت طويـل حتى كانـت كتيبة فرسـان

المماليـك، التي انطلقت في أثره، تقف حائـرة بالقرب من مجرى النهر، بعد أن عثرت على الحصان بلا فارسه..

كانت الجيزة ببيوتها المنخفضة تقع على الناحية الأخرى من موقعهم، وعلى مرمى من أبصارهم، فنزلوا من على خيولهم، وتراصوا بالقرب من مجـرى النيـل يتلفتون في ضيـق وضجر، وينظرون إلـى صفحة ماء النهر التي تتهادى أمواجها الصغيرة ببطءٍ وكأنها تزيدهم غيظًا، بينما التجهم لا يفارق سـحنهم، ولا يرون إلا وجوههم المكفهـرة وهي تتراقص أمامهم على المياه الداكنة حتى افترستهم الحيرة.

2
الشاطر حسن

فـي قلـب الغوريـة، وعلى بـاب دكّانـه الصغير الذي لا يـكاد يُرى بوضـوحٍ من فرط حشـره بين دكاكين كبيرة تبيع الأقمشـة والعطارة، كان الحسـن الرومـي يجلس مسترخيًا مسـتمتعًا بالشـمس الدافئـة في تلك الفتـرة من العام، وقـد مدَّ سـاقيه بأريحية، ومال بجذعه إلـى الأمام على لـوح خشـبي عريض، فـردت عليـه أوراق كبيرة ليضبط حـرف النون في مخطوطة أوشـك على إتمام نسخها، ولكنه لا يزال يضع لمساته الأخيرة عليها، مرَّ عليه رجلان بعمامتين سـوداوين صغيرتين، ألقيا عليه السـلام همسًـا وهمـا يخفضان وجههمـا ناحيـة الأرض قليلًا ويتلفتـان حولهما فـي ريبةٍ كَمَن ارتكب إثمًا لـم يكتشـف بعد، ثم مرقا بجواره كالطيف إلى داخل حانوته، وسرعان ما اختفيا تمامًا وكأنهما قد تبخرا..

اكتفى الحسـن بضمِّ سـاقيه، وظلَّـت ملامحه جامدة لكـنَّ عينيه كانتا كالصقر تفتشـان حولهما فـي حذرٍ لعلهما تقتنصـان متلصصًا فلم تجدا، علا صوت المنشـد علـى مقهى مواجـهٍ، والربابة تؤازره وهو يتلو سـيرة الشـاطر حسـن، الفـارس الملثـم الـذي قاتـل الفرنسـيس وطردهـم من

المحروسة مع جنود محمد علي الأشداء، واصفًا إياه بنبي المستضعفين، اقترب منه رجل مسنّ يتكئ على ذراعي ابنه الشاب الذي كان من مريدي الحسن ومتيمًا به، سأله العجوز عن مخطوطه الذي سلَّمه إياه منذأيام طالبًا نسخه.. غاب الحسن لدقائق بالداخل وهو يقلِّب ويفتش في كومةٍ الأوراق الكبيرة، حتى وجد ضالته، وفي أثناء خروجه دفع بقدمه عتلة حديدية لتستعيد وضعها على قرص أسطواني ضخم على يسار الداخل خلف دِكَّة خشبية متهالكة، ثم ألقى عليه قطعة من الكِليم المزركش لتخفيه تمامًا أسفلها، بعدها رسم ابتسامة بشوشًا على وجهه وهو يسلِّم المخطوط للرجل العجوز الذي كان منصتًا باهتمامٍ لراوي المقهى، تفحَّص الرجل أوراقه المنسوخة بخطٍّ جميلٍ، ثم سأل بجدية: «هل تظن أن الشاطر حسن الذي يروون سيرته على المقاهي كل يوم هو نفسه الجنرال محمد علي قاهر الفرنسيس كما يقولون سرًّا؟»

رفع الحسن كتفيه ومطَّ شفتيه في برودٍ، ثم أجاب بعدم اكتراث: «لا يهمني مَن هو، المهم أنهم رحلوا يا شيخنا»، ثم أضاف بنبرةٍ خفيضةٍ: «محمد علي أو الشاطر حسن أو حتى الغول ذو العين الواحدة، لا يهم، فالطريق ما زال طويلًا والمماليك ألعن من الفرنسيس يا مولانا»..

رفع العجوز أحد حاجبيه باستنكارٍ قائلًا: «ثورة ثانية؟!»

قبل أن يرد الحسن، الذي فاجأته نبرة السؤال قليلًا، عاجله الرجل بسرعةٍ: «يا ولدي أنتم تثورون على ظالم لتأتوا بأشدَّ منه ظلمًا، لا تراهنوا على القوي فقط، وإنما اختاروا العادل الذي يراهن علينا،

نحن المستضعفين يا بني، وإلا ستأكلكم نار ثورتكم، ولو نجوتم منها سيحرقكم الحاكم الجديد قربانًا لبداية عهده وإرضاءً لمن جاءوا به»..

خفض الحسن رأسه قليلًا وهو يفكر في الرد.. لكن العجوز كان قد انصرف ساخطًا بعد أن أتمَّ حديثه ولم ينتظر ردًّا وهو يتمتم: «يا نبي المستضعفين أدركنا بمعجزةٍ».. بينما ظلَّت عينا ابنه الشاب الذي يرافقه تتعلَّقان كل برهةٍ بعيني الحسن لعله يسمع منه جوابًا شافيًا أو إيماءة تريحه من حيرته، لكنَّ الحسن لم يحرِّك ساكنًا، فلم يكن الشاب قد أدرك بعد أن الحسن قال له رأيه وكلَّفه بما يجب عليه أن يفعله كتابة في هوامش المخطوط، مثلما اعتاد أن يفعل كلما ضيَّق المماليك الخناق على رجاله..!!

ظلَّ واقفًا في مكانه يحيي المارة ممَّن يعرفونه، يتلقَّى كتبًا من خاصتهم لنسخها، أو يفتي لآخرين في أمور الدين والدنيا لثقتهم في علمه، يتلقَّى أحيانًا شكاوى ومظالم يطلب منه مُقدِّموها أن يرفعها إلى نائب المحتسب كمال سيف الدولة، حتى أوشك النهار على الزوال، شعر بحركةٍ خفيفةٍ خلفه، وسمع صفيرًا هامسًا متقطعًا فدلف إلى محله، وبعدها بلحظاتٍ كان الرجلان ذوا العمامتين السوداوين يغادران وهما يحملان حقيبتين كبيرتين من القماش، وسرعان ما طواهما الزحام وأجنحة الغروب التي تظلِّل السماء الداكنة فغابا عن الأنظار.

***

على أطراف أصابعه سار الصبي ناجي، الذي لم يبلغ التاسعة من عمره بعد، وعيناه محدقتان، مقطبًا حاجبيه، وكفُّه الصغيرة تقبض على حَربةٍ بنصلٍ مدبَّب، والأخرى تمسك بجراب من الخيش.. شدَّ أعصاب ذراعه النحيلة واقترب حتى صارت المسافة بينه وبين العقرب الزاحفة ببطءٍ على الأرض أقل من نصف المتر حسبما تعلَّم من عمه الحسن، ثم غرس الحربة في منتصف ظهر العقرب وظلَّ مثبتًا قبضته عليها، ضاغطًا بقوةٍ، وهو يجزُّ على أسنانه وملامح ابتسامة المنتصر ترتسم على وجهه الطفولي حتى اكتملت.. رجع خطوة إلى الوراء وهو ينزع الحربة و يتأمل العقرب السامة بعين خبيرٍ مُدرَّبٍ، ثم انتظر هُنيهة، بعدها التقطها في هدوءٍ ودسَّها في جرابه لتستقر بجوار ثلاث عقارب غيرها، ومضى في طريقه نحو خفرة الجيزة ليسلِّمها هناك ويحصل على أربعة أنصاف ريالات من الفضَّة مكافأة لقتله إياها وتخليص المارة من شرورها..

عبر نهر الطريق في خفةٍ، وانزوى في أول حارة يسارًا، ومنها إلى عطفةٍ أخرى وهو يتأمل موضع قدميه جيدًا خوفًا من العقارب، رغم كونه من الأطفال المحظوظين الذين يرتدون مركوبًا يستر أقدامهم.. لاح مقهى الجيزة الكبير من بعيدٍ وقد راح صبيان من عمره يرصَّان أمامها دككًا خشبية مرتفعة يتكئ عليها مدخنو النارجيلة وهم يستندون بظهورهم إلى وسائد صغيرة منتفخة، بدت له عنوانًا للخمول الذي يمقته وملَّ من مشاهدته كل يوم، فضاعف من خطوته ليبدو نشيطًا متحديًّا هؤلاء الكسالى الذين طافوا بمخيلته..

كان المارة يسيرون في الصباح المبكر في طريقهم إلى أشغالهم، بعضهم يمتطي حماره أو بغلته، فراح يسابقهم، مرَّ بباعةٍ جائلين ينادون على بضائعهم بصوتٍ جهيرٍ لعلَّ أحد الخصيان يخرج من البيوت المتلاصقة ليدعوهم إلى جناح الحريم، فيعرضون عليهن ما لديهم من الأقمشة الرخيصة ولوازم الزينة..

لمح عن يمينه قارئة الودع المجذوبة حليمة، وقرطها الذهبي المثبت في أنفها يلمع من بعيد، وهي جالسة وسط متاعها المتناثر في عشوائية حولها، فابتسم في جزل وهو يعدو ليصل إليها بسرعة، انتصب أمامها مبتسمًا فلفته بنظرة حانية قائلة عبارتها الشهيرة: «إرمِ بياضك»..

اتسعت ابتسامة الصبي أكثر حتى اكتمل هلالها وهو يلقي في حِجرها نصف ريال من الفضة قائلًا بثقةٍ: «ليس خسارة فيما ستقولينه لي».. قلبت حليمة الرمال التي أمامها وخلطت الصدفات الصغيرة بها ثم قرَّبتها من شفتيها لتهمس بكلماتٍ جاهد ناجي ليسمعها فلم يستطع، ثم برقت عيناها وظلَّت تتفرَّس في وجهه، فلما طالت نظراتها الصامتة المريبة انزعج فعاجلها بابتسامةٍ ساخرةٍ قائلًا: «يبدو أن الجان لم يحضر إليكِ اليوم وليس لديكِ ما تقولينه، أعيدي لي نصف الريال»..

ابتسمت في حنوٍّ وهي تتحسَّس وجنتيه بكفيها الكبيرتين السمراوين متمتمة: «ستعيش كثيرًا حتى ترى النور في برِّ المحروسة كلها، وستقتل عقربًا كبيرًا قبل أن يلدغ أحب الناس إليك، و...»، ثم قطعت حديثها فجأة وتقلَّبت ملامحها، فظل ناجي يتفرَّس في وجهها واجمًا، وقد

راحت الابتسامة البريئة من وجهه، وحلَّ القلق بعينيه ضيفًا ثقيلًا، وراح يطل منهما في إلحاحٍ غريبٍ على سيرة القتل والعقرب الكبير، فلم تزده إيضاحًا، وتمتمت بكلماتٍ غير مفهومة، ثم تلفَّتت فجأة يمنة ويسرة والتقطت كيسًا جلديًّا كان يرقد منتفخًا على أحد جانبيه بجوارها، فعبثت بأصابعها فيه حتى أخرجت أعشابًا خضراء بهت لونها، أعطتها للصبي الصغير قائلة بلهجةٍ آمرةٍ: «أعطها لعمِّك وقل له يغلِها ويشربها خمس مرات حتى تفقد طعمها المر، ووقتها سيلتئم جرحه»!

تراجع ناجي خطوتين وهو يقبض على الأعشاب الجافة سائلًا في جزعٍ: «أهو مريض؟!»، لم ترد عليه، قفزت ابتسامة بلهاء على وجهه وراح يتهمها بالجنون كعادته وهو يهز كفه الأخرى قرب أذنه مطلقًا ضحكة عالية، ومضى يجري متحنجلًا، ملتفتًا كل برهة ليستمتع بوجهها البشوش التي تودعه به كل مرة حتى غابت عن بصره.. فلما ابتعد عنها بمسافةٍ فوجئ بالمارة يفسحون الطريق من تلقاء أنفسهم، ويلصق بعضهم ظهره بالحائط، وينهض الجالسون في الطرقات وهم ينفضون سراويلهم من أتربة علقت بها، بينما آخرون يهندمون ثيابهم الرثة..

تصاعدت غبرة اعتاد عليها أهل المحروسة لتمرق عشرة أحصنة تحمل فرسان المماليك وأولهم يقرع الطريق بسوطه الطويل فيترجَّل المصريون راكبو الحمير والبغال وهم يبعدون دوابهم عن مسار الخيول المسرعة حتى يمر الركب المملوكي.. هدَّأ ناجي من سرعته وهو يشرئب بعنقه، ثم تسمَّر في مكانه عندما لمح زهير، قائد فرسان أبيه كمال سيف

الدولـة وحارسـه الأقـرب، فخاف أن يكون أبـوه في طريقـه لتفقُّد خفرة الجيزة، فاسـتنفر فزعًا كَمَن على وشـك أن يُلدغ مـن عقرب، ثم انعطف في أقرب حارة إليه وأطلق لسـاقيه العنان وهو يرتعد خوفًا، كان أكبر مما تسببه له العقارب عند اصطيادها.

***

هبـط كمـال الـدرج المؤدي إلى سـجن العرقانـة؛ ليدخل قبـوًا كبيرًا أسـفل القاعة الصغرى التي يشغلها رجائي أفندي الدفتردار المسئول عن جمـع الضرائب وبعض الكتبـة التابعين له، وفي حيـن كانت تلك القاعة العليا منسـقة بالأرائك والمقاعد الخشبية والألواح المستندة إلى قائمين للكتابـة عليها، وتتميز بسـقفٍ عالٍ، ونوافذ واسـعةٍ تغمرها الشـمس كل نهـار، كان القبو خانقًا، ضيقًا، مظلمًـا، يدخله المرء وكأنه يخطو خطواته الأخيرة محمولًا إلى قبره من شدة انحداره..

سـار بخطـواتٍ بطيئـةٍ متكاسـلةٍ، تشـغله فكرة فقـد منصبـه، وتنتابه الهواجـس مـن مؤامـرات بكـوات المماليـك المرتقبة، والتي قـد تكلفه حياتـه.. انحرف يسـارًا في نهايـة الممر الأول خلف رجلين من حرَّاسـه يحملان مشـاعل للإضاءة، بينما كان ثلاثة آخرون يسـيرون وراءه، حتى بلغـوا نهايـة دهليز طويـل لتُصادف أعينهـم بوابة حديديـة يعلوها الصدأ وتتسـرَّب المياه الداكنة من الجدران المحيطـة بها.. فجأة.. وقعت عيناه على فأر صغير يرتوي من سرسـوب ماءٍ صغيرٍ، فسَـرَت في جسده رجفة أثـرت علـى خطواته، فتعثَّـر قليلًا، التفت الحُـرَّاس ناحية الفـأر الذي فرَّ

هاربًا في لحظاتٍ، فمرق من بين ساقي كمال الدين الذي كاد يختل توازنه، وخرجت من بين شفتيه صرخة بصوتٍ رفيعٍ أعقبها بوابلٍ من الشتائم والسباب ليستعيد هيبة أوشكت على التبخُّر، فاستعاد رجاله رباطة جأشهم وتفادوا النظر لبعضهم حتى لا ينخرطوا في الضحك فتطير رقابهم..

فتح أحد الحراس بوابة الزنزانة الرئيسية لسجن العرقانة فأحدثت صريرًا مزعجًا، كانت فسيحة تتسع لعشرات المقبوض عليهم وتفوح منها رائحة عطنة مميتة؛ فنزلاؤها يقضون حاجتهم بها ولا يبارحونها أبدًا، وقف حارسان خلفه بالمشاعل، بينما راح ثالث يشعل مصباحًا زيتيًّا قديمًا أضاف بصيصًا من نورٍ لاح على أثره الرجال الثلاثة الذين قُبض عليهم عقب مقتل طاهر باشا، معلقين كالذبائح تترنح أجسادهم في الهواء وتتدلَّى أذرعهم، والدماء تندفع إلى رؤوسهم فتزيدها ثقلًا، وخيالاتهم تتراقص على ضوء الشعلة وهم يدورون في حلقات غير مكتملة كلما حاولوا الحركة تخفيفًا لآلامهم.. راح يتأملهم وهو يجز على فكيه ويزفر، والحراس ينتظرون أوامره ويحاولون تفادي النظر لبعضهم حتى لا يتذكروا واقعة الفأر المذعور الذي أخاف قائدهم..

طالت فترة الصمت وهو يدور حولهم عاقدًا كفيه خلف ظهره حتى وصل جلهوم، جلَّاد القلعة ومُنفذ أحكام القاضي، كان عبدًا أبنوسيًّا، بدينًا، قصيرًا، له أنف أفطس، حليق الرأس، ووجهه أملس كظهره، لم تنبت فيه لحية أبدًا.. أفلتت من بين شفتي كمال الدين نصف ابتسامة

مبتـورة تنـم عن تشـف واضحٍ واطمئنانٍ وجـرأةٍ اكتسـبها بوجود جلهوم وهو يقف خلف الرجال الثلاثة، كانوا عرايا إلا مما يسـتر عوراتهم.. جزَّ كمال سـيف الدولة على شفته السفلى حتى آلمته كالعادة، ثم أومأ برأسه لجلهـوم الذي بدا فظًّـا غليظ القلـب بملامحه الصلدة وكأنهـا قُدَّت من حجرٍ أصـم، فتحرك بخطوات ثقيلة ونصف جسـده العلوي عارٍ، يترهَّل صدره حتى يتلامس ومقدمة بطنه، يرتدي سـروالًا أبيض منتفخًا من عند فخذيه..

اختار جلهوم أن يقف على يسار الرجال المعلقين أمامه بزاوية منحرفة قليلًا، ثم رفع ذراعه بعزمٍ كبيرٍ وانهال على أولهم بالسوط الطويل الرفيع، ومع كل جلدة كان يتراجع خطوة للخلف ثم يتقدَّم خطوتين ليعيد الكرَّة، وفي دقائق قليلة كان قد أحال أجسـادهم إلى لحومٍ حمراء مشـوهةٍ، فبدا كل منهم مثل شـاةٍ مسـلوخةٍ يتلوَّى من فرط الألم، وراحت الدماء تقطر بغـزارة مـن ظهورهم، وقسـمات وجـه جلهوم تشـي باسـتمتاعٍ حقيقي، فتلمـع عيناه حتى تبرقا بشـدةٍ مع نزيـف الدماء الذي لا ينقطع، وينتشـي جسـده طربًـا من تأوهاتهـم وأنينهـم، كاد الرجال يفقـدون وعيهم تحت وطأة التعذيب.. وكمال الدين يتابع المشـهد بنظرةٍ ميتةٍ حتى صاح فجأة: «كفى يا جلهوم».

تراجـع الجـلاد على مضض وكأن نائب المحتسـب قطع شـهوته في أوجها، وراح يطرقع سـوطه في الهواء، ثم ضمَّه جوار سـاقه معلنًا انتهاء العرض بعد أن هيَّأ حيواناته لأوامر سيده التالية..

كانت حال الرجال بالغة السوء، يتنفسون بالكاد كمن في الرمق الأخير، لم يكترث كمال الدين لحالهم وإنما أشار لرجلٍ آخر من حراسه إشارة ذات مغزى، فتحرك نحوهم ثم اتكأ على إحدى ركبتيه أمام أول رجل معلَّق من ساقيه، جاذبًا كفه في غلظةٍ، وأخرج من بين طيَّات سرواله الواسع مقبضًا حديديًّا ضخمًا ذا طرفين مدببين، وراح يخلع أول أظافره، بادئًا بإبهامه، ظلَّ الرجل يصرخ في ألم رهيب، حتى فقد القدرة على المقاومة، والحارس ينزع بعضًا من لحم الإصبع في كل مرة يقتلع فيها ظفرًا.

اقترب كمال الدين منه، وبنبرة شبيهة بفحيح الثعبان قال: «مَن الذي حرَّضكم على قتل طاهر باشا؟».. لم يتلقَّ إجابة، كان الرجل مثل طائر يترنح بلا رأس بعد ذبحه، توجَّه كمال الدين ناحية ثانيهم الذي بدا أقرب إلى الغيبوبة من فرط الألم، فخاطبه بنبرةٍ أعلى ليُسمع ثالثهم وهو يبسط يديه في مواجهتهما: «لا تزال لكلٍّ منكما كفين بكل منها خمس أصابع».. صمت قليلًا ليرى وقع كلامه عليهما، كانت ملامح وجهيهما تعتصر بعضها بعضًا من الألم، فتوسطهما كمال الدين وهو يضع يديه حول خصره قائلًا بحسم يوحي بقرب التنفيذ بلا تردد، وموجهًا كلامه إلى الثلاثة: «إذن أنتم الذين اخترتم خاتمتكم.. ستفقدون بعد قليلٍ رجولتكم، وبإرادتكم»..

ثم أطلق ضحكة هستيرية، فعلت الابتسامة وجوه حراسه تلقائيًّا وهو يردف: «وسنختار لكم أسماء حريم تليق بكم.. هيا يا جلهوم»..

هنـا ارتفع صوتٌ خفيـضٌ من الرجل الأول الذي كان قد فقد ثلاثة أظافر حتى تلك اللحظة، مرددًا في وهنٍ وهو يئن من شـدة الألـم الذي يعتصره بلا هوادة: «الشاطر حسن..»!

***

3
أنا الحاكم الشرعي

سـادت حالة من الفوضى جنبات المحروسـة فـي الأيام التي تلت مقتل طاهر باشـا، فزادت أعمال السـلب والنهب، وراح أمراء المماليك وبكواتهـم يطلقون عسـاكرهم وعبيدهم علـى القرى والبيوت ليسـرقوا ويقتلوا إن اقتضى الأمر، انتشر الشحاذون في الطرقات حتى صاروا أكثر مـن المارة، وخاف التجار على بضاعتهم فأخفوا منها قدر ما اسـتطاعوا، وما تبقَّى باعوه بثمنٍ بخسٍ وأغلقوا دكاكينهم، واضطر سـواد الناس إلى أن يخبئـوا دوابهـم في بيوتهم خوفًا من نهبهـا، بلغت الفاقة ببعض القرى أشـدها وضـرب الفقـر جنباتهـا بغير هـوادة فـراح أهلها يسـتولون على الـدواب ويأكلون لحومها ليسـدوا رمقهم، في حين كان الموسـرون في القاهـرة والجيزة والمنيا وأسـيوط يخزِّنون طعامًا يكفيهـم فترات طويلة ويستخرجون السلاح والبارود المخبَّأ منذ أيام الحملة الفرنسية ليواجهوا به المماليك وعبيدهم الذين كانوا يعيثون فسادًا في كل مكان..

لم يجد الباب العالي بالآسـتانة مفرًّا من عزل والي مصر محمد باشـا خسـرو لتُترك المحروسـة بغير حاكم لمدة يومين، لكن هـذه المدة رغم

قصرها كانت كفيلة بأن يتمرَّد خسرو ويرفض عزله ويتحصَّن ببضع مئات من رجاله ويفر هاربًا إلى دمياط؛ ليستعد لإدارة معركة تعيده إلى حكم مصر مرة أخرى، مرددًا لكل من يلقاه كَمَن لا يصدِّق نفسه: «أنا الحاكم الشرعي لمصر المحروسة، أنا الوالي وأنتم العبيد»، فلم يهبه أحد، بل تمادى الجميع في تمرُّدهم حتى صار محل سخرية المصريين ومحور نوادرهم كلها..

ضغط الإنجليز والفرنسيس سويًّا على الباب العالي لتعيين والٍ جديدٍ من بكوات المماليك، فصدر فرمان تركي بتولي عثمان بك البرديسي مؤقتًا منصب قائمقام مصر، على أن يكون نائبه محمد الألفي بك، الذي كان قد وصل إلى الإسكندرية على متن بارجة إنجليزية في حماية أربعة آلاف جندي وُضعوا تحت إمرته مع بقية رجاله من فرسان المماليك، الذين راحوا يهنئون بعضهم بعودة قائدهم إلى سُدَّة الحكم مرة أخرى، توجَّس كمال سيف الدولة خيفة من تلك العودة المفاجئة للألفي بك، فلم يكن أبدًا من المقربين إليه وفشل في التودد له من قبل، وخاف أن يفقد منصبه فالتصق برجال البرديسي أكثر لعلَّه يجد ظلًّا آمنًا في رحابهم، وفي ذات الوقت يشق طريقًا ممهدًا موازيًا على مهل نحو كسب ثقة الألفي بك المدعوم من الإنجليز.

على مقربة من النيل بناحية جنوب الجيزة، كانت دار عثمان البرديسي قد تحوَّلت إلى ما يشبه الثكنة العسكرية، أُحيطت بفرسان المماليك الموالين له، وبعض جنود الأرناؤوط من جيش القائد العسكري

محمد علي الذي كان يسانده، وقد نصبوا مدفعين كبيرين أمام الدار وخلفها من ناحية النيل تحسبًا لهجومٍ من البر أو البحر، بينما انتشر الرماة ببنادقهم على سطح الدار.. فلم تكن علاقته بالألفي بك على ما يرام، كانا كذئبين يتصارعان على قطيع من الغنم، وكلاهما ينتظر أن يخطو الآخر الخطوة الأولى لينقض عليه حتى يحكم المحروسة منفردًا.

جلس القائمقام عثمان بك البرديسي مضطربًا مع بعض البكوات والأمراء من أتباعه في بهو داره الفسيح، وكل برهة يلملم ذيل ثوبه الأزرق الطويل بعصبية ظاهرة، تؤلمه معدته من شدة التوتر فيتحسس مقدمة بطنه ويمتعض وجهه، فلم تكن قواته قادرة على إخلاء القلعة وإدارة شئون البلاد منها، ولم يعد يأمن للبقاء في داره كثيرًا خوفًا من أن يُقبر بها، غلَّفهم جميعًا صمت الحيرة فلم يُعطه أيٌّ منهم جوابًا شافيًا لقتل طاهر باشا الأرناؤوطي بتحريضٍ من محمد علي حسبما انتهت تحقيقات كمال سيف الدولة، التي رفعها للمحتسب منتهيًا فيها إلى أن الشاطر حسن شخصية خرافية، وما هو إلا اسم حركي لمحمد علي نفسه، يستخدمه رجاله فيما بينهم لتضليل العسس والبصاصين..

كان بكوات المماليك كعادتهم يراقبون اتجاه الريح، ثم يرفعون أشرعتهم ليسيروا مع التيار، فلما وجدوا البرديسي بك رافضًا للتفسيرات كلها وأعيتهم الحيلة في إقناعه، انقلبوا مجتمعين على كمال سيف الدولة واتهموه بأنه أحد أضلاع المؤامرة بسبب فشله، لكنْ لم ترُقْ كل التبريرات للبرديسي بك، وراح يردد كمن يفكر بصوتٍ عالٍ: «لماذا يُحرِّض

محمـد علـي على قتـل نائب الوالي طاهر باشـا وهو أرنـاؤوط مثله؟! ما الذي سـيجنيه من جرِّ البلاد إلـى الفوضى؟! ولصالح مَن يعمل؟!».. هزَّ رأسـه رافضًا كل ما قيل له من تأويلات، وهو ينظر شـزرًا إلى المحتسب، قائلًا في وعيد: «نائبك كمال سـيف الدولة فشـل في انتزاع الاعترافات، لقـد خدعه هـؤلاء الرجـال الثلاثة بحكاية الشـاطر حسـن، لا تعدموهم الآن، بـل أعيدوا تعذيبهـم، انتزعوا لحمهم قطعة قطعـة وأجبروهم على أكله نيئًا حتى تنطق ألسنتهم، فأنا أريد أن

قبل أن يكمل جملته كان كاتم الأسـرار قد مثل في حضرته ثم اقترب هامسًـا: «بلغنا أن الوالي المعزول خسـرو باشـا سـيتحرَّك من دمياط إلى دمنهور ويرتب للاسـتيلاء على الإسكندرية، وقد تأكدنا من صحة الأنباء مـن البصاصين والعسـس منذ قليل».. ثم أردف وهـو يبتلع ريقه: «علمنا أيضًـا أن القائد محمـد علي وبصحبته المعلم جرجـس الجوهري وعمر أفندي مكرم في الطريق إليك الآن، والأنباء تقول إنه سيتحالف معنا ضد الألفي بك ورجاله الذين ينتوون الخلاص منك».. تهلَّل وجه البرديسـي بـك في نفس اللحظـة التي صاح فيهـا المنادي بصوتٍ عـالٍ: «قائد جند الأرناؤوط محمد علي»..

دخـل عليهـم القاعـة، رجل تجـاوز الثلاثيـن بقليـل، قصيـر القامة، بطيء الخطوة، يميل إلى السـمنة، أبيض البشـرة، وجنته مشربتان بحمرة واضحـة، يرتـدي طربوشًـا قصيـرًا لونـه أحمر قـانٍ، ولـه زرٌّ طويل تركه ينسـدل على ظهره أسـفل كتفيه مباشـرة، يرتدي سترة عسـكرية مزركشة

باللونين الأزرق والذهبي، وحذاءً برقبة قصيرة، ويحاول أن يخفي عرجًا واضحًا في ساقه اليسرى، ومن خلفه مباشرة كان مترجمه القصير البدين ذو الشعر المائل إلى الحمرة يسير متأخرًا عنه بخطوة واحدة يحرص عليها دومًا، بعدهما ببضع خطوات ظهر المُعلم جرجس الجوهري بجسده الضخم، وشاربه الكث، وعمامته السوداء الصغيرة التي تميز الأقباط عن غيرهم، ومن خلفهما عمر أفندي مكرم، بالعمامة البيضاء الضخمة، ووجهه الأسمر النحيل، وهو يتجاذب أطراف حديث ودِّي هامس مع يعقوب مُساعد المُعلم جرجس، ويحيط بهم من كل اتجاه أكثر من عشرين رجلًا من رجال الأرناؤوط المدججين بالسلاح، الذين كانوا قد اشتبكوا مع فرسان البرديسي بك عند دخولهم لإصرارهم على حمل الطبنجات المحشوة بالبارود داخل الدار حماية لقائدهم محمد علي وصحبه، وأصروا حتى نالوا ما أرادوا..

صافح محمد علي القائمقام عثمان بك البرديسي في ودٍّ أخفى اصطناعه بمهارة، ثم ألقى عمر مكرم كعادته كلمة حماسية دعا فيها إلى التوحُّد على قلب رجلٍ واحدٍ حفاظًا على أمن البلاد والعباد، وإنقاذها من الفوضى المرتقبة من فرسان الألفي بك المتمركزين في الجيزة، وأعوانهم من الإنجليز الذين يمدونهم بالعتاد والسلاح، ولما فرغ من خطبته قبض محمد علي برفق على رسغ عثمان البرديسي وانتحى به جانبًا مذكرًا إياه بأداء رواتب جنده المتأخرة حتى يستكملوا القتال، فهزَّ له رأسه مرتين بالموافقة، ثم قال بصوتٍ جهوري ليُسمع الجمع الحاضر: «لقد تركت ولاية الأمر لعثمان بك البرديسي، وسأقاتل بجنودي في صفوفه لحماية

مصر المحروسة وأهلها تحت رايته.. نحن المصريين سنكون جميعًا على قلب رجلٍ واحدٍ».

تهلَّل وجها عمر مكرم وجرجس أفندي على وقع عبارة نحن المصريين التي صاح بها محمد علي وكأنه واحد منهم بالفعل، لكن رغم حديثه المغلَّف بنبرةٍ صادقةٍ، كان البرديسي متوجسًا منه بعض الشيء حتى لا يتحالف مع غريمه اللدود الألفي بك، ففاجأه قائلًا بمكرٍ: «هل نتعاهد بالدم على ذلك؟»

تبادل المُعلم جرجس ومحمد علي النظرات، في حين علا الاضطراب وجه عمر أفندي مكرم، إلَّا أن محمد علي رد بثقةٍ: «ولمَ لا؟».. ثم استلَّ خنجرًا عريضا من غِمده جرح به إصبع البرديسي بك متعمدًا إيلامه، حتى سال قليل من دمائه، ثم أعطى الخنجر للمُعلم جرجس وهو يهمس له: «طهِّر لي دمي الفاسد»..

لم يقوَ جرجس الجوهري على إخفاء ابتسامته وهو يجرح إصبع محمد علي بمنتهى اللين، ثم تصافح الاثنان وهما يرفعان كفيهما متلاصقين لتختلط الدماء وسط التصفيق من بكوات وفرسان المماليك هاتفين بحياة البرديسي بك..

قبل أن يغادر الجمع، التفت محمد علي ناحية البرديسي وهو يحكم ربط قطعة من القماش على إصبعه الجريحة، والذي كان قد خرج ليودعه متعلقًا به كالغريق في بحرٍ متلاطم الأمواج في ليل معتم، وبنبرةٍ هامسةٍ، مشوبةٍ بتهديدٍ تعمَّد حشره بعناية في ثنايا حديثه: «لا تنسَ سداد

رواتب الجنود الأرناؤوط فهم غاضبون.. ولا تنسَ أنهم هنا يحاربون من أجلك»..

لـم يكـد محمـد علي ورفاقـه يغـادرون الـدار بخيولهم فـي موكبهم المهيـب، حتـى أصـدر القائمقـام عثمان البرديسـي أول أوامـره لرجائي أفنـدي الدفتـردار بفرض ضرائـب جديدة فـورًا على عمـوم المصريين، وإطـلاق الملتزميـن فـي أرجـاء المحروسـة لجمعهـا قائلًا: «مـن اليوم تجمعها يا رجائي أفندي.. اليوم وليس غدًا»..

تلفَّـت الدفتـردار يمينًا ويسـارًا مستشـعرًا الحرج، فعاجله البرديسـي بنبـرة غاضبة: «ماذا تنتظـر؟!»، خفض رجائي أفنـدي صوته وهو يقترب مـن البـك قائـلًا: «الماضي ليـس ببعيدٍ يا سـيدي، ومحمد علي سـبق له أن أشـار على طاهر باشـا قبل مقتله بفرض ضرائب جديدة أيضًا لسـداد رواتب الجند الأرناؤوط لحمايته، هذا ملعوب وعلينا أن نتعلَّم من رأس الذئب الطائر عندما ولَّى وجهه شطر جمع الضرائب»..

أغمض البرديسـي عينيه في غضب وهو يتحسَّس رقبته، متذكرًا كيف تراجـع طاهـر باشـا بالفعـل منذ شـهورٍ قليلةٍ عـن فرض تلـك الضرائب بعـد مقتل بعـض المحصلين، وكيف نجح عمر مكرم في تأجيج مشـاعر المصرييـن ضد المماليك بكلمتـه التي ألقاها في بيـت القاضي بحضور شـيوخ الأزهر ومشايخ القاهرة، وحرَّض فيها العامة على التظاهر وقتها، واشتعلت ثورة عارمة في القاهرة، ولـم يُعرف حتى الآن مَن الفاعلون لها أو المحرضون عليها، فقد أجمع شهود العيان وقتئذ على أن وقودها رجال

ملثمـون يقودهم رجـل ضئيل البنية، خفيـف الحركة، بعمامة متوسـطة، سـوداء، لم يتعرَّف عليـه أحد، يظهر ويختفي فجأة كمـا البرق، والجميع يأتمرون بأوامره، ومثلما ينوء فرع الشجرة تحت وطأة ثقل الثمرة فيرضخ لهـا ويميل معها حتى تسـقط ناضجة وتتركه، تم إسـقاط الضرائب فورًا، وصدر مرسـوم لاحق بتخفيض أسـعار الأطعمة الأساسية، خاصة الخبز واللحم؛ لوأد غضبة المصريين..

لمعت عينا البرديسـي وشـريط الذكريـات يمر أمام عينيـه على مهل كقطـار يبطئ عند محطته الأخيرة، ولسـان حاله يكاد ينطـق: «أهي حيلة مـن هذا المحارب القصيـر؟!»، بدا مظهره كَمَن مسَّـه الجنون فجأة وهو يقـول: «لكن الأمـر مختلف اليـوم، فمحمد علـي وجنوده يقفـون معنا، وهـم مجبرون الآن على القتال في صفوفنا، فلن يتركهم الوالي المعزول خسـرو باشـا أحياءً إذا ما عاد إلى الحكم، ولن يغفر لهـم أبدًا محمد بك الألفـي عندما هجموا عليه من قبل بالقـرب من مصر القديمة وألحقوا به هزيمة مهينة وقتلوا وأسـروا المئات من فرسـانه وحلـق لهم محمد علي رؤوسـهم وأركبهم الدواب بالمقلـوب، نحن الآن طـوق النجاة الوحيد لهذا القصير المكير وليس العكس»..

ثـم سـكت برهـة ليتفحص وجـوه مسـتمعيه مـن أمرائه، فلمـا وجد استحسـانًا لديهـم لما قاله، عـدا رجائي أفنـدي الدفتـردار، التفت نحوه مخاطبًا إياه وحده بلهجةٍ آمرة طغى عليها العناد والكبر: «سيحصل جنود الأرنـاؤوط علـى رواتبهم مضاعفة تلـك المرة، ابدأ فـي جمع الضرائب فـورًا، ومَـن يعتـرض من المصرييـن قل لنائب المحتسـب كمال سـيف

الدولة أن يأتي لي برأسه، وسأعلقه على أبواب القاهرة، هيَّا اغرب عن وجهي»..

لملم الدفتردار أطراف ثوبه وهو يهرول مبتعدًا والفزع يغزو ملامحه ويكاد يسبق خطواته المرتعدة.. مال بعدها البرديسي بك ناحية قائد قواته وقال بلهجةٍ بدت أقل حدَّة: «أعدوا القوات والرجال.. سنسافر إلى دمنهور ومنها إلى الإسكندرية لنمنع الألفي ورجاله من بلوغ القاهرة، ونقاتل فلول خسرو باشا إذا ما ظفرنا بهم».. ثم نظر عبر الشرفة الواسعة إلى النيل وهو يتمتم في قلق مستتر «الله غالب على أمره، وآن الأوان لأن تستقر المحروسة تحت إمرتنا».

ظلَّ الحسن يجدف بذراعٍ واحدةٍ، بينما يثبِّت المجداف الآخر بالثانية، حتى ارتطم قاربه الخشبي بجزيرة الزملك المواجهة لمنطقة إمبابة شمال الجيزة.. تلك الجزيرة غير المأهولة بالسكان، والتي تنتشر بها عشش صغيرة من الخوص لصيادين من مناطق قريبة، يتركون فيها ملابس وأدوات الصيد من شِباكٍ وبوصٍ كل ليلة عندما يفرغون من صيد الأسماك قرب الغروب، وتنتشر في أركانها أكشاك خشبية حقيرة شبه متهالكة، يستخدمها خدم الأمراء والبكوات في تغيير ملابسهم والاستحمام عرايا يوم إجازتهم، ولا يخطر في بال أحد أن الحسن الرومي قد حوَّل بطن الجزيرة إلى مخزن بارود جاثم على صفحة النهر ولكن في هدوء..

كانت الليلة قمرية، والضوء الفضي المتسرب من السماء ينير موطئ قدمي الحسن وكأنه يرشده كي يختار موقعه بعناية ليكشف النيل أمامه فيقبع به مسترخيًا في هدوء كعادته متأملًا السفن والقوارب الصغيرة وهي تشق النهر من منتصفه، عمره الآن يقترب من الثلاثين ولم يتزوج بعد، ترك وظيفته ككاتب أول في ديوان القلعة بوشاية من أحد بكوات المماليك ليحل محله قريب هذا البك، وخذله وقتها أخوه كمال كعادته فصار عاطلًا ولكنه يدون تاريخ المحروسة في مخطوطة ضخمة يومًا بيوم، تعرَّف بعد ذلك على المُعلم جرجس الجوهري، واقترب منه عندما كلَّفه بنسخ بعض المخطوطات، فأحسن عمله حتى اكتسب ثقته، فضمَّه إلى صفوف رجاله وراح يقاوم الحملة الفرنسية في الخفاء، بينما كان جرجس يودهم في العلن ويلتقي بعلمائهم ويستقي خبراتهم وفقًا لتخطيط مُحكم من محمد علي، وإن كان قد صادف هوى في نفس المعلم جرجس الذي وجد ضالته المنشودة في الفرنسيس ليخلصوهم من المماليك، فحافظ على شعرة الود علنًا لعل وعسى محمد علي يخفق في محاربتهم فيتكئ عليهم مرة أخرى هربًا من اضطهاد المسلمين له.. ارتسم الأسى على وجه الحسن وغشي ملامحه كلها وهو يتذكر كيف التصق به المعلم جرجس ومساعده يعقوب وتابعوهم من الأقباط بعد جلاء الفرنسيس مثلما يلتصق الوليد بثدي مرضعته، فقد وجدوا ضالتهم فيه بعدما كرههم المسلمون وصاروا يتربصون بهم ويتصيدون أخطاءهم، ووجدها المماليك فرصة مواتية لعقابهم فنتفوا حواجبهم وألزموهم بعمامةٍ سوداء تميزهم فزادوهم اضطهادًا..

عادت بعد قليل ابتسامة رضا تطل على شفتيه وهو يتذكر لقاءه الأول مع محمد علي في ذات العام الذي رحل فيه الفرنسيس، وكيف أعجب به وقتها لحد الانبهار، وشعر أنه أمام داهية حقيقي في السياسة والحرب، كان محمد علي يقاتل الفرنسيس في العلن، ويُغير على ثكنات المماليك خفية فى آنٍ واحدٍ، قائلًا جملته الشهيرة: «بلد لديه خير كثير كامن في أرضه ولكن ينقصه الأخيار من أهله ليحكموه».. أعجبته العبارة فدونها في مخطوطته ليذكر بها محمد علي إذا ما حرر المحروسة من المماليك.

راحت الذكريات تطوف بمخيلته بسرعة وهو يختار بعضها ليتوقف عنده بالتفكير.. لم ينسَ عندما صارحه يومًا بهواجسه قائلًا: «لم أرَ شخصًا يحب مصر ويحرص على مصالحها أكثر من أهلها مثلك، لكنني لا أفهم تحالفك مع بعض البكوات من المماليك ضد غيرهم؟! مع أن جميعهم لا أمان لهم!»

لاحت يومها ابتسامة خفيفة نادرًا ما تظهر على وجه محمد علي وهو يرد عليه قائلًا: «صراعات المماليك على الحكم واعتقادهم بأن المصريين مجرد حفاة عراة سيستجيبون لأي حاكم ما دام يطعمهم ويكسوهم، فيقدِّسونه ويخافون منه، هو ما سيُعجِّل بنهايتهم، فأنتم مثل بركان خامل، ولكن عند ثورته يحرق كل شيء، و هم لم يدركوا بعد طبيعتكم المتقلبة.. اكتب ذلك في مخطوطاتك لتتذكر كلماتي جيدًا»، ثم أردف ضاحكًا: «وحتى تخلدها...

تبدَّلت ملامح وجهه حين تذكر أهرام الجيزة، وكيف كان يراها محمد علي مجرد كومة من الحجارة، وتمنى هدمها لاستغلالها في بناء جسور على النيل.. وقتها صُدم من رأيه ولم يعجبه فعارضه بشدةٍ قائلًا: «أتريد أن تهدم هرمًا لتبني سدودًا؟!».. فأجابه محمد علي ببرودٍ وهو يصب له الماء من إناءٍ كبيرٍ ليشرب: «حسنًا.. أنت ترى أن هذه الأهرام أعظم إنجازاتكم، ومع ذلك هل تعلم أنها بُنيت خوفًا وقسرًا، وفي النهاية لم تكن إلَّا مقبرة كبيرة لتخليد الفرعون؟! فلا فائدة عادت عليكم على الإطلاق، ولا نهضة تحقَّقت لكم، هؤلاء القوم كانوا يؤمنون بالغيبيات ويعيشون كالدراويش في الدنيا لا تشغلهم إلا آخرتهم، أما حياتهم فقد كانت تتسرَّب من بين أيديهم مثلما يتسرب الماء من بين كفيك الآن وأنت تشرب!»

هزَّ رأسه رافضًا الفكرة وكأنه لا يزال معترضًا على رأي محمد علي، عاد لشريط ذكرياته مبتسمًا في مكرٍ، عندما تذكر أول مرة لمحه فيها محمد علي وهو يصطاد العقارب بالقرب من دهشور جنوب الجيزة، يومها أبدى له القائد إعجابًا شديدًا بطريقة صيده لها، لكنه باغته قائلًا: «ولماذا لا تستخدم العقرب الجريحة طعمًا للآخرين؟»

وقتها علت الدهشة وجه الحسن وظلَّ برهة يفكر فيما قاله محمد علي، الذي استرسل في مكر شديد: «وخزة بسيطة من حربتك لن تقتل العقرب لكنها ستشل حركتها وتتركها تتلوَّى ألمًا في مكانها وتفرز سمها حتى يفرغ، ووقتها ستهب عقارب أخرى على الرائحة لمساعدتها، وتلك هي فرصتك لاصطياد أكبر عدد منها بضربات متتالية»..

راحت ابتسـامته تتسـع وهو يقلب الفكرة في رأسـه لعلَّه يجربها يومًا مـا، ظلَّ شـاردًا إلى أن أفـاق فجأة من ذكرياته على صورة خيال شـخص أمامـه، فانتفـض من رقدته ملتفتًا خلفـه، رافعًا عينيـه لتصافحا وجه أخيه كمال سيف الدولة، نائب المحتسب، بزيه الرسمي، ولكن بدون حُرَّاسه، آتيـا من الطـرف الآخر للجزيرة من ناحية الأزبكيـة، قائلًا بصلفٍ: «كنت متأكدًا أنني سـأجدك في هذا المكان.. ألا تمـل من الجلوس هنا لمراقبة السفن بمنظارك المسروق؟»

ظـل الحسـن يرمقـه بارتيـاب ولـم يـرد، فقد كانـت عينا أخيه تشـيان بغضـبٍ ووعيـدٍ بـلا سـبب واضـحٍ، تحسَّـس لا إراديًّـا جيـب سـرواله الفضفاض ليتأكد من وجود المنظار المُقرب الذي كان قد سرقه من أحد معسـكرات الفرنسيس في بولاق.. دار كمال الدين حوله دورة كاملة ثم افترش الأرض العشبية بجواره وراح يبحث عن حصى صغيرة يلقيها في النهر تباعًا قائلًا دون أن يلتفت إليه: «أين كنت طوال الأيام الماضية؟!»، ثم أردف لما لم يسمع إجابة: «تركت الدار ولم تخبر أحدًا بمكانك حتى العبـد صالح».. لم ينتظر كمـال الدين الإجابة طويلًا تلك المرة، بل قطع الصمـت بنظـرةٍ حادةٍ لوجه الحسـن المرتبـك، طالت حتـى حصل منها كمـال على مـراده، ثم هبَّ فجأة مـن مكانه لينقض علـى أخيه وهو ينزع عنه ثوبه من ناحية كتفه اليمنى حتى كشـفها عارية، فألفاه مصابًا وقد ربط جرحه بقطعة قماش بيضاء اتسخت قليلًا وظهرت بها بقعتان داكنتان من الدمـاء، فأطبق بإحدى كفيه على رقبته بعد أن جثم فوقه بجسـده الضخم وهو يكتم أنفاسـه بالكف الأخرى صارخًا: «كنت متأكدًا أنك عدت إلى

جرائمك، لماذا قتلتم طاهر باشا أيها الحقير؟ سأقتلك الآن وأتخلَّص من جثتك في النيل، وأخبر أمك بأنك مت غرقًا»..

برقت عينا الحسن وظل يلوذ بالصمت وعقله يعمل وسط ضجة من أفكار متداخلة ليتخلَّص من ورطته، فاسترسل أخوه في غضب: «أنت تريد تدميري بأفعالك، وتظن أن محمد علي ورجاله سينفعونك، كلهم أصحاب مصالح في المحروسة، سيستخدمونك كالكلب المسعور، يطلقونك هنا وهناك لتفزعنا، وعندما يأتي دورك سيقتلونك حتى لا تعقرهم، ولكن أنا سأقتلك أولًا»..

كان الحسن منشغلًا بمقاومة كمال الدين بجسده الضئيل، مستغلًّا رشاقته وليونة جسمه حتى نجح في تحرير مساحة لا بأس بها لإحدى ساقيه، فدفع ركبته بكل قوته بين فخذي أخيه ليتكوَّم كمال الدين في ثوانٍ كثورٍ خارت قواه فجأة على مقربةٍ منه، متأوهًا بعد أن ضُرب في مقتل..

نهض الحسن وقد تنمَّر تمامًا واستنفرت أعصابه واستشاط غضبه، فاقترب من أخيه محاولًا ركله بقدمه في وجهه ليردعه، إلَّا أن كمال الدين أمسك بساقه، ثم طرحه أرضًا وانهال عليه باللكمات حتى سال خيط دماء رفيع من أحد جانبي شفتيه.. ظلَّا يتضاربان بضراوةٍ وكأن بينهما ثأرًا قديمًا حان وقت انتزاعه، إلى أن بدأ كمال الدين يلهث من فرط بدانته وما بذله من جهد، فتوقَّف عن لكم أخيه وهو يحكم قبضتيه على يدي الحسن المعقودتين على صدره قائلًا: «اسمعني أيها العنيد.. أنا أستطيع إخفاءك عن أعينهم لتنجو من العقاب لكن بشرطٍ واحدٍ».. سكت قليلًا،

ثـم استرسـل: «أن تتوقف تمامًا عن مشـاركتهم، وتخبرنـي الآن عن كل أطراف مؤامرة القاهرة».. ثم التقط بعضًا من أنفاسه المتقطعة مرة أخرى مردفًا بعدها: «أنا لا أريد أن يطير رأسي.. ولكن ثق أنني قبلها لن أرحمك أبدًا»..

مع اسـتمرار صمت الحسـن ونظراته المتحدية في عناد، تغيرت نبرة كمـال الدين وباتت أقرب إلى رجاء: «هل يرضيك أن أُقتل بسـببك؟ هل سـينصلح حال المحروسـة إذا ما علَّقوا رأسـي على باب زويلة؟ ها أنتم قتلتم طاهر باشـا، فما الذي حدث؟»، قبل أن يجيبه الحسـن تلك المرة، راح كمـال الدين يسـتكمل متلاعبًا بطبقات صوته بعـد أن خفَّف قبضتيه تمامًا عن رقبة أخيه وهو يهم بالنهوض: «سأجيبك أنا.. البلاد دخلت في فوضى مرة أخرى مثلما حدث بعد جلاء الفرنسيس وجنرالهم بونابرت.. ثلاثـة أعوام ونحـن ندور في نفس الفلـك المظلم.. ثـورة القاهرة تهب، ثـورة القاهـرة تخمد، وفـي كل مرة مئـات الوعود للبسـطاء والفقراء من الرعية يطلقها الراعي ليُسـكتهم ثـم تتبخَّر في الهواء، هذا ما تنجحون فيه فقط»..

تأهَّب الحسـن للرد بحماسٍ لكن كمال بسـط كفه في وجهه ليصمت واسترسـل بنبرةٍ حانيةٍ وابتسـامةٍ مغريةٍ بالصدق ليزيده قناعة بما سيقوله: «أنا لا أريد سـوى مصلحتك، فنحن من دمٍ واحدٍ شـئنا أم أبينا، سأضمن لك تجارة رائجة معي في حبوب البُن ولفائف الدخان مع بعض البكوات الكبـار، سـتعمل لصالحهـم وستشـعر بالاسـتقرار الاجتماعـي والأمان

اللذيـن تحققهمـا وفرة المـال لصاحبه.. سـتتزوج وتنجـب وتكون لك ذريـة، وإذا أردت أن تعيش في مدينة أخرى غير الجيزة.. لك مني الأمان في بر المحروسة كلها.. فما قولك؟»

- لـن تفهمنـي أبـدًا يا كمـال.. أنت تراني مـن الضفة الأخـرى للنهر والصورة معكوسة لكلينا، لن نتفق أبدًا.. صدقني إن قلت لك إنني أشفق عليـك من إذلال منصبك لـك.. فأنت مجرد عبد لـه.. والمماليك كلهم كلاب الراعي الإستنبولي نحن أسيادكم..

ثـم زفـر فـي ضيـق وهـو يسترسـل: «كمـا أنـك تعمـل لمصلحتـك ولا تهمـك صلة دم، اسـمعني أنت جيدًا، كل ما أسـتطيع أن أعدك به ألا تُضار بسـببي أو تفقد منصبك الذي تقدسـه، سأرشـدك عن جرائم بعض البكـوات لا يعرفهـا البصاصـون والعسـس التابعـون لك فتضمـن ترقية ورضا من أمرائك.. وفي المقابل ارفع يدك عني واخفض عين بصاصيك التي تتلصص عليَّ».. ثم صمت الحسن برهة ليرى وقع كلامه على أخيه، فلما ألفاه باردًا، قال بمكرٍ: «أما الموت فلا حيلة لي فيه، ولكن

قطـم عبارته الأخيرة متعمدًا وهو يمط شـفتيه ويرفع كتفيه قليلًا.. ثم ابتسـم بخبـثٍ مردفًا لما وجد بريـق اهتمام يلمع على اسـتحياء في عيني كمـال علـى ذكر المـوت: «ولكن حليمة قالـت لي يومًـا إن المرء عندما يوشك على الموت تختفي خطوط كفه اليسرى فجأة».

لم يبادله كمال الابتسام، وتجهَّم وجهه أكثر ولم يرق له الحديث عن المجذوبة حليمة التي كان الحسـن يعطف عليها ويترك لها بعض الطعام

كل يوم.. إلا أنه لم يستطع مقاومة حركة لا إرادية أفلتت منه عندما تفحَّص خطوط كفِّ يده، فلما اطمأن لوجودها هدأت قسماته قليلًا وعاد ليسأله بنبرة رجل الشرطة الذي لا يفارقه الشك كظله: «فقط أخبرني كيف دخلت إلى القلعة؟ ومَن مِن رجالي خائن فباعنا لك، وبكم؟!»

قبل أن يسترسل كمال سيف الدولة في أسئلته المندفعة كالسيل، هبَّ الحسن واقفًا بعدما شعر بالزهو لنجاحه في إثارة دهشة وحيرة أخيه رجل الأمن والنظام، فقال والغرور يقترب على خجلٍ من نبرة حديثه ليتسرَّب إليها خفية: «سأخبرك فقط إشفاقًا منِّي على حالتك الذهنية المتردية، أنا دخلت مع قوات الإنكشارية المتجمعين في الخارج تمردًا لعدم دفع رواتبهم، مرتديًا زيهم، تسلَّلت قبل وصولك مباشرة، ثم أعدت تغيير ملابسي مرة أخرى في أحد الإسطبلات الخاوية، متخفيًا في زي حُراس الباشا من الأرناؤوط، وأخفيت ملامح وجهي بالخوذة النحاسية ذات الجانبين مثل التي يستخدمها رجال القائد محمد علي، وكان معي ثلاثة من رجالي، والباقي أنت تعرفه»..

ثم عبث بخصلة شعره الأسود الناعم المتدلية على مقدمة وجهه وهو يستكمل في ثقة: «السهم جَرح كتفي ولكنني نزعته بسرعة، وهربت على حصان جندي مملوك بعد أن صرعته وهو يحاول استيقافي، حتى بلغت شاطئ النيل، ثم قفزت في قاربي واختبأت في عشش صيادي مصر القديمة حتى لا يكشفني النهر المفتوح إذا ما جدفت في اتجاه الدار إلى الجيزة».. وأد الحسن الحديث مكتفيًا بما قصَّه ولم يشأ أن يسترسل عن

محمد علي أو المعلم جرجس أو أن حليمة هي التي حاكت له زيًّا مماثلًا لملابس حُراس الباشا ليسهل عليه الاندساس وسطهم..

زمَّ كمال شفتيه وظلَّ يعبث بلحيته الخفيفة وهو يتفرَّس في عينيه مستشرفًا صدقه من كذبه، ففاجأه الحسن مراوغًا بسؤاله عن رجاله الثلاثة ليشتته قائلًا: «أستحلفك بكل ما هو غالٍ عندك ألَّا تعدمهم، فهم مخلصون صدقني، اسجنهم كيفما شئت ولكن لا تقتلهم»..

راح كمال ينفض التراب عن مؤخرة سرواله وهو يتعمَّد عدم مواجهة عيني الحسن، قائلًا بأسًى مصطنع: «خسارة، ليتك قلت لي ذلك مبكرًا ونبهتني لنواياهم الحسنة.. لقد أُعدموا اليوم.. فليرحمهم ربك ويغفر لهم طالما كانوا مخلصين حسبما تقول»..

اغرورقت عينا الحسن بالدموع وأطرق برأسه قليلًا وهو يقرأ لهم الفاتحة بصوتٍ خفيضٍ..

- والآن عدني أنك ستتوقَّف عن هذه الأفعال وإلا ستلحق بهم وأقرأ أنا الفاتحة على روحك..

قالها كمال بتحدٍّ وهو يرفع إصبعه في وجه الحسن الذي أمسك بها وأنزلها ببطءٍ وهو يردد في عنادٍ ونظراته الحادة مثبتة في عيني أخيه:

- افعل ما تريد، لا شأن لك بي ولا تهددني بعد اليوم، فليس عندي ما أخاف على فقده مثلك.. ولا أضع ذيلي بين فخذي خوفًا من عصا الراعي.

- سأقتلك..

قالها كمال بحسمٍ وجديةٍ وهو يمسك بتلابيب أخيه بيده، وبالأخرى يتحسَّس موضع طبنجته المثبتة بحزامٍ من الجلد العريض حول خصره، وعيناه تنطقان بالغدر بلا مواربة تلك المرة.

4
نظرة ثعلب ونبرة أسد

خـرج محمـد علـي متأبطًـا ذراع عمر أفنـدي مكرم مـن الأزهر، مصحوبين بدعوات المشـايخ وهتافات جمـوع المصلين الذين تصادف وجودهـم، توجَّهـا إلـى دار المعلم جرجس فـي الأزبكية قبـل أن يلتقي محمد علي عسـاكره لتحفيزهم على قتال فرسـان الألفي، ويمضي معهم وقتًا طويلًا.. بعدها سـلكا سـكة مختصرة كان الفرنسيون قد شقوها قبل رحيلهم بشـهورٍ قليلةٍ ليسـهل عليهم الوصول إلـى الأزهر الذي تتكدَّس حولـه الدكاكيـن والبيوت، ومـن ثم يسـلكونها حتى يسـتطيعوا حصاره والقبض على المتمردين إذا ما اندلعت شـرارة مقاومة لهم منه، فاختصرا وقتًا طويلًا من خلالها..

بـدا المُعلـم جرجـس الجوهـري قلقًا وعيناه شـبه زائغتيـن، ففاته أن يقدم لضيفيه شـرابًا أو طعامًا حتى نبهاه ضاحكين، فأمر مسـاعده يعقوب بإعـداد وليمة علـى الفـور، إلَّا أن محمد علي قاطعه قائـلًا: «يكفي قليل مـن الشـراب، فلم يعد الوقـت في صالحنـا».. لكن جرجـس أصر على ضيافتهمـا، فرُصَّت صوانٍ كبيرة من النحـاس ثبتها الخدم على قوائم من الخشـب، ثم وضعوا وسـادات ضخمة حولها على سـجاد عجمي بلون

وبـر الجمـل، منقوش بخيـوط ذهبية، ثم جـاء خادمان سـمراوان قصيرا القامة يرفلان في قفطانين بيضاوين براقين، وهما يحملان طسـتًا وإبريقًا من الفضة، صبًّا ماء الورد منه ليغسـل محمد علي ومكرم أفندي أيديهما، ثم التفوا جميعًا حول الطعام في شهية..

لاحـت بوادر التردد على وجه محمد علي، فقد كان يخشـى دومًا أن يُدس له السُّم في الطعام حتى صار الخوف عادة لم يفلح في الفكاك منها، ولو كان في ضيافة واحد من أخلص رجاله، ومع إلحاح المُعلم جرجس علـى تقديـم الوليمة راح الشـك ينخر مخيلـة محمد علي كالسـوس في العظام فزاده قلقًا، ظلَّ يعبث بالغطاء الجلدي الأحمر الذي يحفظ الطعام ساخنًا، يرفعه تارة ويعيده تارة ثانية، يقلِّب بيده دجاجة ضخمة ويفصِّص لحمهـا ويخلي عظامها في تباطؤ حتى اطمـأن لابتلاع جرجس وضيوفه بضـع لقيمـات ولـم تتبدل وجوههـم وبدوا متلذذين، فارتاحت قسـمات وجهـه وخفتت وساوسـه، والتهم الكثير من اللحم المسـلوق المغروس فـي الأرز الملدن والبصل المشـوي وطيور الحمام المحشـوة بالزبيب، فلما فرغوا من الطعام، دارت عليهم أكواب شراب التوت ورُصَّت قوائم النارجيلـة أمام محمد علي وضيوفه، والذي خلع نعليه وجلس القرفصاء علـى الأريكـة فـي أريحية واضحة، ثـم التفت إلـى جرجس بوجـهٍ رائقٍ متسائلًا عما يقلقه..

أفاض المُعلم جرجس وأسـهب فـي الحديث عن مخاوفه من عثمان بـك البرديسـي وأمـراء المماليك الآخريـن التابعين لغريمـه الألفي بك، وأنهـم قوم خربو الذمم لا عهد لهـم، ولا يهمهم إلا مصالحهم الخاصة،

ثم اختتم بأسًـى: «لقد أُنهكنا من حكم المماليك لسـنواتٍ طويلةٍ منذ أن جُلبوا إلى المحروسـة، كانوا عبيدًا فأذلوا رقابنا وحكمونا بالحديد والنار فاضطهدونـا وأفقرونا، حتى بونابرت فشـل أمامهم، لم يعد لدينا منقذ أو مخلِّص من شـرورهم بعـد أن أوغروا صـدور المسـلمين ضدنا وصرنا مغتربين في المحروسة كلها»..

سـكت وهلـة و نظـر مليًّا إلـى محمد علي، ثـم أردف: «أنـا أثق بك، ولكننـي أعـرف نواياهم وقدراتهم جيدًا، صدقنـي لا فائدة من المقاومة، لا بد من التحالف مع الفرنسيس مرة أخرى».

انشـغل محمد علي بتناول شـراب التـوت متظاهـرًا بالإنصات لرأي عمر أفندي مكرم الذي أخذ ناصية الحديث وتحمَّس كثيرًا لوجود محمد علي وقواته على أرض المحروسـة، وأبدى ثقة كبيرة في كونه قادرًا على دحر المماليك والإنجليز وأعوانهم، رافضًا التحالف مع الفرنسيس، وما إن فرغ بدوره من خطبته الطويلة كعادته حتى اتكأ محمد علي في جلسته على جانبه الأيسر، وبنظرة ثعلب ماكرٍ، ونبرة أسدٍ في عنفوانه، قال: «أنتم شـعب طيب، يصبـر كثيرًا على حكامـه، ولكنه عندما يثـور يقتلع اليابس قبـل الأخضر، فـلا تيأس يا جرجس، أمـا يا مكرم أفندي فالسـؤال الذي يجب أن نسـأله لأنفسـنا هو أين نقـف نحن الآن؟ ثم نقـرِّر بعدها مع مَن نتحالف»..

بـدت الحيرة على وجه كليهما، فراح محمـد علي يوضح، وقد توقع دهشتهما من طريقة تفكيره: «الشعب ثار على خسرو باشا وجاء البرديسي

والألفـي بدلًا منـه، الأول مدعوم من الفرنسـيس والثاني فرضه الإنجليز علـى الباب العالي، ونحـن لا نريد هذا ولا ذاك، إذن سـنتظاهر بمناصرة البرديسـي بك ومماليكه، وسـنقاتل الألفي بك ورجاله لنتخلَّص منه في طريقنا؛ لأنـه الأخطر، والإنجليز الذين يدعمونه أقوى من الفرنسـيس.. ثم بعدها نعيد خسرو باشا لحكم مصر مرة أخرى!»

قال جملته الأخيرة وسكت متجرعًا بعضًا من شراب التوت، حتى فرغ كوبه، وأعين جرجس ومكرم تتعلق به في دهشة عظيمة لاقت استحسانه وراقت له، أفلتت من شـفتي جرجس الكلمات رغمًا عنه: «تُعيد خسـرو واليًا على مصر! هل جُننت؟! هل نعود إلى الوراء؟!»

اكتملت ابتسامة المكر على شفتي محمد علي، ثم أمعن في مدِّ ساقيه القصيرتين قائلًا: «بالتأكيد لست مجنونًا يا جرجس، فخسرو باشا يتحصَّن فـي دمياط بمائتي جندي فقط، وحربيًّـا الأمر لن يحتاج من رجالي لأكثر من نصف يوم ونعود به أسـيرًا ذليلًا كالضبع الشـارد عن قطيعه، ثم نعطيه الأمان فنضمن ولاء تابعيه وهم يقدرون بالآلاف في القاهرة والجيزة كما تعلمـان، وهؤلاء يهمني أمرهم الآن كي آمن شـرورهم، وسـنعلن يومها للمصريين أهلنا من العامة والبسـطاء وما أكثرهم، أن محمد باشـا خسرو هـو الحاكم الشـرعي، وأن أي محاولـة لخلعه بالقوة سـتكون ضدَّ إرادة الله، وكثيرون سـيؤمنون بفكرتنا وينسـاقون خلفنا مثلما تُساق الشاة إلى مذبحها في قطيع منتظم خلف الراعي! وبعدها سنترك الحبل على غاربه لغيرنا لخلعه لأنه خالف شـريعتكم وسـفك الدماء ولم يرفع الظلم، ولن

لتدخّل لصالحه، وسنتركهم ينشغلون بفشله، بينما نختار نحن مَن يصلح راعيًا ليحل محله»..

أنهـى حديثه وهو يهز كوبه مرتين، فهرع خادم ليملأه بشـراب التوت مرة ثانية..

قاطعـه عمر مكرم وهو يعبث بلحيته مجاهـدًا ليجبر عقله وقلبه على تصديق محمد علي: «حسـنًا، ولكن ربما تدرك شـاة من هذا القطيع أنها ذاهبة إلى مذبحها فتتمرَّد على الراعي، فماذا أنت فاعل وقتها؟»

أجابه محمد علي بحسـم علـى الفور، وكأنه كان ينتظر السـؤال: «لو كان صـفُّ القطيـع الأول يُدرِك مصيـره، لما توالت عليـه باقي الصفوف حتى اسـتحال على بصرك إدراك آخرهـا.. لا تنسَ أن المصريين يضعون عقولهم بين ضلوعهم يا مكرم أفندي في أغلب الأحيان»..

ثـم نهض من جلسته وقد همَّ بالانصراف، لكنه توقف فجأة في منتصف البهو كَمَن تذكَّر شيئًا مهمًّا، فالتفت إلى المُعلم جرجس قائلًا: «لكنك لم تخبرني حتى الآن عن حجم السلاح والبارود الذي تم جمعه؟»

قـال جرجس بصوتـه الوقـور: «منذ جلاء الفرنسـيس ونحـن نجمع السـلاح ونخفيه في البيوت وتحت الأرض في جزيـرة كبيرة أمام إمبابة، ولدينا ما يكفي لمواجهة ثلاثة جيوش من المماليك ونستطيع أن

قاطعـه محمـد علي: «ليـس الآن.. اترك لي ذلك الأمـر، كل ما أريده أن تأمـر رجالـك بمهاجمـة بيـوت أمـراء المماليـك وحرق بعضهـا، دعِ

الرجال والنسـاء أيضًا يخرجون إلى الشوارع في جماعات ينادون برحيل البكوات ويندون بحكمهم، اتفق مع التجار على إخفاء السلع المهمة للحياة اليومية وكأن هناك أزمة طاحنة، أريدها فوضى منتظمة تسيطر أنت عليها وتدير أمرها بنفسك وتتحكم في لجامها، أخرجوا المصريين على موجات متتابعة وإذا ما اقتضى الأمر دع رجالك يقتلون بعض جامعي الضرائب التي سيفرضها البرديسي لدفع رواتب جنودي، أنا واثق من أنه سيفعلها اليوم قبل الغد»..

رفع عمر مكرم أحد حاجبيه في دهشة وهو يردِّد مستنكرًا: «ولكنك عاهدته بالدماء على الولاء له!»

ضحك محمد علي بصوتٍ عالٍ حتى ارتجَّ جسده السمين وازداد احمرار وجنتيه: «على العكس، لقد خرج الدم الفاسد من بدني على يد المُعلم جرجس، وفي حضورك يا مولانا، أنا الآن يا والدي العزيز في حلٍّ من عهدي تمامًا، وسأحارب البرديسي مثلما سأقاتل الألفي وجنوده»..

ابتسم جرجس في خجلٍ، بينما شرد عمر مكرم قليلًا، ثم عاد يسأل في جدية وإلحاح: «هل أنت واثق من أن الباب العالي والإنجليز سيقبلان بالأمر الواقع حسبما تخطط؟»، قبل أن ينتظر إجابة من محمد علي تطوَّع هو بالرد على تساؤله: «لا أظن.. لا أظن»، كررها مرتين وهو غارق في شروده..

لم يشأ محمد علي أن يترك مكرم أفندي فريسة لهواجسه فتبتلعه مخاوفه من فرط قلقه، فاعتدل في وقفته وهو يتحسس موضع ألمه

المتزايد في ساقه اليسرى، وبنبرةٍ واثقةٍ قال: «قلت لكما لا تقلقا؛ فغباء المماليك وشهوتهم العارمة للسلطة سيجعلانهم يقضون على أنفسهم قبل أن ننقض عليهم، صحيح أن الإنجليز يسيطرون على الباب العالي، ولكنهم أيضا لا يناصرون الأغبياء للنهاية، سيتركونهم قبل الهاوية وسيتخلون عنهم على حدود الحافة.. فمصالحهم دومًا مع الطرف القوي»، ثم تنهَّد بعمقٍ وهو يضيف: «وعرش المحروسة الآن صار هشًّا، ولن تقوم له قائمة إلا بجيشٍ قوي يحميه، ومصريين مخلصين ينهضون به من عثرته».. ثم زفر بشدةٍ وهو يضغط على مخارج ألفاظه: «آن الأوان لهذا البلد أن يستقر..!»

بعدها أدار ظهره لهما مسترسلًا: «سألتقي القنصل دي روسيتي الليلة، وكما تعرفانه فلن يهدأ له بال أو يغمض جفنه، حتى ينقل كلامنا إلى الإنجليز، وهذا ما نريده بالضبط»..

توقف مرة ثالثة قرب البوابة وهو يلوح بيديه مكملًا في ثقة: «سنضمن حيادهم في هذا الصراع مؤقتًا وفي تلك الفترة البينية سينقلب الحال حتمًا، وسندير الدفة لصالحنا.. اطمئنا».. ثم التفت بجذعه فجأة متعمدًا لتأمل وقع كلامه عليهما، فلما ارتاح لتأثيره عَلَت نبرته بحزم: «أيها المُعلم جرجس.. مَن مِن رجالك ترشحه وتثق فيه ليقود حملةً الهجوم على بكوات المماليك وتحريك المصريين؟»

أجابه جرجس في فخر وهو يودِّعه مع مكرم أفندي حتى باب الدار: «وهل لدينا غيره.. أنا لم أعد أثق في أحد سواه الآن في بر المحروسة كلها»..

ابتسم لهما ابتسامة رضا، وقال وهو يمتطي جواده مغادرًا: «كاتب المخطوطات ومدون التاريخ.. انقل تحياتي إلى الشاطر حسن..»!

ثم أطلق ضحكته الوقور، شبه المكتومة، وانطلق محاطًا بالعشرات من فرسانه الأرناؤوط على خيولهم، الذين لا يفارقونه أبدًا، حتى علت سحابة من الغبار خلفهم، فحجبتهم عن أنظار مودعيهم.

***

كانا يبدوان من بعيد كشبحين يرقصان في شبه عناق، يتحركان فجأة كأن كلًّا منهما يرج الآخر بعنف، ثم يسكنان ببطءٍ ويعاودان الكرَّة مرة أخرى، يبتعدان عن بعضهما وأيديهما متشابكة، ثم يقتربان في سرعة مباغتة، يلتحمان، يدوران بجسديهما وكل منهما يحاول طرح الآخر أرضًا فلا يفلح أي منهما، أمسك الحسن بيد أخيه المطبقة على الطبنجة المحشوة بالبارود وهو يضغط على نواجذه: «لا تنسَ أن معي مثلها»..

قبل أن يبادر كمال الدين بأي رد فعل، باغتهما صوت نفير طويل يطلق من بوق يحمله رجل مرحبًا بقدوم سفينة كبيرة قادمة من اتجاه رشيد لترسو على مقربة من الجزيرة ناحية إمبابة، وفي مواجهتهما مباشرة، لم يكن يفصلهما عنها سوى صفحة النهر الضيقة.. عشرات من الرجال كانوا في انتظار السفينة على الشاطئ، راحوا يحملون صناديق خشبية كبيرة منها ليرصها العبيد على عربات خشبية يجرُّونها، أو لوضعها على ظهور الدَّواب، مكَّنهما ضوء القمر الساطع من رؤية واضحة، لكن للتفرس في الملامح بدقة أخرج الحسن منظاره وراح يتأمل المشهد ويتفحَّص

الوجـوه كعادتـه.. هدأ كمال الدين لوهلة، وقبل أن يسـتجمع شـتاته قفز الحسـن في مكانه وهو يصيح كمن مسَّـه الجنون: «انظـر مَن بصحبتهم! إنها هي.. يبدو أنها قد انتوت العودة مرة أخرى»..

ثم ناوله المنظار المقرب فرحًا..

- ألف لعنة عليه.. هذا محمد بك الألفي والكثير من فرسـانه وعبيده أيضًا، هذه ليست زيارة مؤقتة لمصر إذن..

أنـزل كمـال الديـن المنظـار وقد بـدت عليه ملامـح التوتـر والضيق الشـديد، نقل بصره بين أخيه وبين الشـاطئ مرتين وهو يتساءل بعينيه عن تلك المرأة التي كان يقصدها الحسـن بحديثـه، وقرر أنها انتوت العودة، فلم يكن قد أبصر سيدات على الإطلاق.. أعاد وضع المنظار مرة أخرى قائلًا في ضجر: «لقد نجا الألفي إذن من الموت في رشـيد.. يا تُرى لمن الغلبة الآن؟ هو أم البرديسي؟!»، ثم ألقى به في عصبية ورمق أخاه بنظرةٍ مشـوبة بالشـرود والقلق، ثم راح يصعـد التبَّة بهمةٍ، وسـرعان ما كان قد اختفى عن أنظار الحسن بعد أن طواه الظلام، ولكن لم يفته أن يلقي على مسامعه تهديدًا أخيرًا بقتله لو عاود مغامراته..

تنفس الحسـن الصعداء، وافترش العشـب الندي فـي بطء حتى تهدأ نفسـه قليلًا، ثم قـرَّر ألا يكترث بتهديدات كمال الدين مكتفيًا بالسـخرية منـه ومـن خوفـه من الألفي بـك، متمتمًـا: «تربـط مصيرك بعبـد مملوك اكتسب لقبه لما اشتروه بألف إردب من القمح، ياللعار!».. قالها بصوتٍ عـالٍ وكأن كمـال الدين ما زال واقفًـا أمامه، تنهد في أسـى، ثم بصق في

امتعــاض وراح يوجِّه منظاره صوب الشــاطئ ليتابعها، وقعت عينه عليها بدقة تلك المرة.. شعر بقلبه يخفق بشدة، رآها فتاةً جميلةً، سمراء فاتحة، متوسطة الطول، دقيقة الأنف، ترفع رقبتها بإباءٍ وشممٍ كسيدةٍ حرَّةٍ تملك أمر نفسها، تسير واثقة الخطو رغم أن مظاهر المشهد توحي بأنها صارت مــن جــواري الألفي بك، أو على أحســن تقدير من محظياتــه، فقد كانت تكشــف وجهها الذي بدت مســحة من الحزن لصيقة بــه وكأنها تداخلت بأنسجته..

عبث بأصابعه في مؤخرة رأســه وظل يعيــد المنظار المقرب كل فترة إلى عينيه وهو يشرئب بعنقه ليتابعها حتى امتطت بغلة خلف أحد العبيد، بعدها توارى الركب عن الأنظار مخترقًا شــوارع إمبابة، محاطًا بالحُراس والفرســان وهم يرفعون بنادقهم، يسـبقهم المنادون من أعوان المماليك وتابعيهم في طريقهم إلى دار الألفي بك ناحية الجيزة.

***

تحرك ركب محمد علي بفرســانه وعساكره بعد صلاة الجمعة متفقدًا حامياته العســكرية التي تمركزت بأربع نقاط فــي القاهرة اختارها جميعًا بعناية، وبالمشورة مع قوات عثمان البرديسي من عسكر المماليك الذين تركهــم تحت إمرته بعدما أمن جانبــه، قُطعت الطرق بين القاهرة والجيزة تمامًــا فلم يعد هناك معبر إلا جســر الروضة الخشــبي الذي يســيطر عليه بعــض المماليك الذين يســهل شــراؤهم بالذهــب، كان عبــارة عن صندل كبير يتحكَّمون في اتجاهه، في ذلك اليوم عبر محمد علي ورجاله، الذين

يزيـد عددهم علـى أربعمئة فارس، منطقـة الرميلة وسـط تهليل الأهالي ودعواتهـم، وراح بعضهـم يركض وراء الموكب فـي فرحة مبتذلة، كانوا يركبـون خيولهم وهم مدجَّجون بالسـلاح، تتلألأ السـيوف في جنوبهم، ويتمنطقـون بالطبنجـات، وكل منهـم يحمـل بندقية فـوق فوهتها خنجر رفيـع مدبب، سـار الموكب ناحية شـارع الصليبة حيث أمـر محمد علي بتـرك مدفع متوسـط، وبعـض جنوده هنـاك، وأكثر من مئتـي مملوك من جنود البرديسـي بك يحملون الرماح والسـيوف بعد أن رفض تسـليحهم بالبارود..

نـزل الركـب المهيـب ناحية بـاب زويلـة وعبـره بصعوبة مـن جرَّاء احتشـاد الأهالي، ومرَّ بعدها مرور الكـرام دون أدنى توقفٍ على الغورية والأشـرفية، فلمـا بلغـوا منطقة بيـن القصرين ترجَّـل محمد علـي تاركًا جـواده لأحـد حرَّاسـه، ودارت أحاديث طويلـة بينه وبين بعـض التجار وعقـلاء العامـة، طمأنهم فيها بعـد أن لاحظ أنهم تعمـدوا فتح دكاكينهم متأخريـن إلى ما بعـد الصلاة بوقتٍ طويلٍ، لكنه لـم يلُمهم على تأخرهم في فتحها..

خرج الموكب العسـكري مـن باب النصر والمنادون الذين أرسـلهم المُعلـم جرجس وأخـوه إبراهيم الجوهـري يتدفَّقون بالعشـرات بعد أن اتفقـا معهم على أداء دورٍ محدَّدٍ لقَّنهم إيَّـاه الجوهري بعنايةٍ كبيرةٍ مقابل عشـرين ريالًا من الفضة لكلٍّ منهم، ظلوا يهرولون أمام العسكر وخلفهم وينـادون فـي الناس بصـوتٍ جهـوري يبثون فيهـم الأمـان والاطمئنان،

مستخدمين آياتٍ من القرآن اختارها بعناية عمر مكرم، توجَّه بعدها الركب كله ناحية مصر القديمة، متفاديًا المرور من أمام أبواب القلعة الرئيسية، حيث تنتشر كتائب فرسان الجيش العثماني لحمايتها، فلما بلغ مقصده متجاوزًا خرائب الفسطاط، عسكر قرب مصر القديمة مع جنوده الأرناؤوط وبعض الإنكشاريين الذين استمالهم بالمال، ووشوا بالألفي بك وغدروا به، ورغم ذلك وضعهم تحت الملاحظة الدقيقة آمرًا رجاله بالتخلُّص منهم في وقتٍ معلومٍ..

اختار محمد علي أقرب منطقة يعبر منها إلى غرب الجيزة، حيث تقع دار الألفي بك، وأقام فيها مخيم عساكره، وتحرَّك الصندل الكبير متهاديًا على سطح الماء كتمساحٍ ضخمٍ مترقب ليكون بانتظار عبوره، فلما أسدل الليل ستائره، اجتمع بقادة جنده على ضوء المشاعل، أمرهم جميعًا بالجلوس ليكونوا أقرب لمستوى بصره.. ثم أمسك بعصا طويلة من العاج، وراح يتحرَّك وسطهم وهو يخطُّ على الرمال خطوطًا ودوائر تجسِّد دار الألفي بك، مخارجها، ومداخلها، ونقاط تمركُز جنود المماليك وفرسانهم حولها، وعدد المدافع التي بحوزتهم، شارحًا لهم خطة الهجوم المزمع القيام بها بعد الفجر مباشرة.. ولما تأكد من استيعابهم لخططه، راح يمسح بحذائه ما خطته يداه، عائدًا إلى خيمته ذات الإضاءة الخافتة.

قـرب الفجر بقليل، اعتدل الحسـن فـي رقدته على الحِشـية الرقيقة، ومـال بجسـده حتـى لمـح الصبي ناجـي يتقلَّب على حشـيته هـو الآخر ويحتضـن وسـادة بيـن فخذيه ويفرك سـاقيه قلقًا.. ابتسـم وهـو ينهض، ودون أن يوجِّه له حديثًا، كان ناجي قد انتصب في فراشـه كزاويةٍ قائمةٍ.. بدا مستعدًّا ومتأهبًا للغاية.. تبسَّم في وجهه هامسًا: «مستعد؟!»

قبل أن يجيبه الصغير، أردف هو: «هيا بنا إذن..!»

خرجـا مرتديين ملابـس داكنة على أطراف أصابعهمـا والليل يلفهما بعناية، فبدوا كشـبحين اقتبسـا من العتمة كثيرًا من سوادها.. قبل أن يبلغا المرسـى عرج الحسن ناحية حجرة صغيرة أشـبه بكوخٍ، قريبة من النهر، قابعة خلف شجرة كافور عجوز شاهدة على طفولة كل منهما ومن قبلهما أجدادهمـا بعقـود طويلة.. دخلها وغـاب قليلًا ثم راح يحمـل، بمعاونة ناجي، لفافات قطنية كلًّا منها بحجم وشـكل وطول الغلام البالغ، رتباها في أرضية القارب متراصة، متلاصقة في سـكون، جلس ناجي القرفصاء فوقهـا في جزل، فأمره الحسـن بحزم أن يخفض رأسـه وينـام بجوارها، فحشـر جسـده الصغير بين اثنتين منها وهو يشـعر بخوفٍ بدأ يتسرَّب إلى نفسه..

راح يجدِّف وهو يتشـح بشـالٍ أسـود عابرًا النهر نحو الضفة الأخرى جنوب جزيرة الروضة، حيث تعسكر كتيبتان من قوات الأرناؤوط بقيادة محمـد علـي، فلما اقترب من الشـاطئ، أمر ناجي بـأن يقف في منتصف القـارب حافظًـا توازنـه، ويرفـع كفَّيه إلـى أعلـى، ففعلها بحـذر، عندئذ

ظهر من وراء الأشـجار عشـرون جنديًّا يتقدَّمهم فارس، لوَّح لهما بذات الإشـارة، ثم طلب منهما أن ينحرفا إلى اليسـار أكثر حتى يتوارى قاربهما عن الأنظار.. دقائق قليلة مرَّت لكنها كانت كافية لكي يناول ناجي الجنود بهمَّةٍ ونشـاطٍ الدُّمى القطنية الراقدة حتـى فرغت الحمولة بالكامل، فقفز إلـى الشـاطئ واقفًا بجـوار عمِّه، الذي كان منشـغلًا في حوارٍ جادٍّ، شـبه هامـسٍ، مـع أحد فرسـان كتيبة مـن الكتيبتين، ابتسـم فـارس الأرناؤوط لناجي وربَّت كتفه مشـجعًا، فشـعر الصبي بالفخر والزهو وكأنه نال نوط الشجاعة لتوِّه..

أتم الحسـن حديثـه في عجالـة للفارس، بعدهـا ألقى قائد الفرسـان بتعليماته إلى الجند، وسـرعان ما كانت الدُّمى القطنية توضع على ظهور الخيـل والبغال، وتثبَّت كل منها بقائم خشـبي لتسـتقيم ظهورها.. بعدها اصطحـب الحسـن الصبي ناجي معه واخترقا طرقات المعسـكر الصغير حتى وصلا إلى خيمة القائد ذات الساري، فاستئذنا للقائه، فلما أُذن لهما بعد برهةٍ دخلاها، فألفيا محمد علي جالسًـا في أريحية، متوسـطًا أريكته كأنه في نزهةٍ، متلفحًا بالظلال المتكونة على أضواء الشمعدان الخماسي فـي أقصـى الخيمة، يتنـاول بعضًا من ثمـار فاكهة جافة، ورأسـه عارٍ من طربوشـه القصير الـذي يميزه، فبدا دقيقًـا، ملفتًا للغاية.. ابتسـم لهما في مـودَّة، وربَّـت بحنوٍّ رأس ناجي الذي انحنى مقبلًا يده، مرتجفًا من شـدة الانفعال والرهبة..

اتسعت ابتسامة الحسن فخرًا، ثم اكتسى وجهه بالجدية اللازمة معلنًا بحماس: «الفرسان جاهزون يا سيدي القائد كما أمرت، اثنان وخمسون جوالًا في حجم ناجي أو أطول قليلًا».. قالها وهو يربِّت كتف الصبي مرتين، تأهَّب محمد علي للنهوض وهو يشكره بكنيته التي أطلقها عليه، فدق الخجل وجنتي الحسن بعنفٍ وراح جسده ينتشي طربًا على وقع سماع لقبه المفضل: «الشاطر حسن»، وهو يخترق أذنيه على مهل، خرج محمد علي من الخيمة محاطًا بحراسه، وسرعان ما التحم بفرسانه وجنوده وبدا من بعيد كنقطة ضئيلة، لكنها مميزة، وهو يضبط طربوشه على رأسه، حتى غاب عن بصريهما وسط الجمع الغفير من قوات الكتيبتين، فلما بعدت المسافة بينه وبين الحسن الرومي، التفت للصبي الصغير ممسكًا بذراعه في رفق، وقال: «هيا بنا يا ناجي؛ فلدينا معركة أخرى على وشك أن تبدأ على الضفة الثانية من النهر».. قفزا في القارب ووجه ناجي ينوء بحمل دهشته العظيمة من لقاء محمد علي، وراح الحسن يجدف في اتجاه الجيزة عائدًا، والصبي يولي وجهه شطر الشاطئ الآخر وهو يتحرَّق شوقًا ويكاد الفضول يبتلعه حيًّا لمعرفة مصير الدُّمى القطنية التي وُضعت بعناية على ظهور الخيل..

بعد منتصف ليل اليوم التالي، عدَّل محمد علي من خطته، فأمر قادة كتيبته أن يستعدوا بعساكرهم لبدء الهجوم فورًا بدلًا من الانتظار للفجر، كان كعادته يفاجئ قواته في اللحظات الأخيرة بخطة بديلة وضعها مسبقًا، كانت نحو خمسين دابة أو يزيد، غالبيتها من البغال الكبيرة، وبقيتها من الخيل العجوز، قد صُفَّت بعنايةٍ في صفوفٍ منتظمة، يعتلي ظهر كلٍّ

منهـا فارس يرتدي خوذة نحاسـية، ولكنـه لا يحرِّك سـاكنًا، جميعها من القطن والخيش ونشـارة الخشـب، من صنع الحسـن، بمعاونةٍ سخيَّةٍ من المجذوبـة حليمـة، التي مـا إن عرفت الغايـة من صنعها حتى تحمَّسـت متطوعة، كان محمد علي قد أمر بوضع الخوذات النحاسـية على رؤوس الدُّمـى لتبدو كل منها من بعيدٍ كفـارسٍ ضئيل الحجم، في حين راح بقية جنود الكتيبة الأولى يدفعون مدفعًا ضخمًا ذا عجلات خشـبية كبيرة، وله فوهة تسـمح بمرور نعجة صغيرة في سلاسـة من فرط اتسـاعها، أشعلوا البـارود وأطلقـوا أول دانـةٍ فأحدثـت دويًّـا هائـلًا اخترق سـكون الليل، ففزعـت الخيـل والبغال التي تحمـل الدُّمى، واضطربت حتـى بان عليها الخوف، عندئذٍ ألهب الجنود مؤخراتها بالسـياط؛ لتندفع بأقصى سرعتها مـن المخرج الوحيد الـذي تركوه مفتوحًا أمامها باتجـاه دار الألفي بك، فركضـت محدثة جلبة شـديدة، وانطلق وراءها عشـرون فارسًـا من جند الأرناؤوط على خيولهم يتصايحون في حماس ويطلقون بارود بنادقهم، تاركين مسافة كافية بينهم وبينها تقيهم شر الإصابة بنيران المماليك..

أمـر محمـد علي بإطـلاق الدانة الثانية باتجاه فرسـان مقدمة عسـكر المماليك الذين خرجوا بأعدادٍ كبيرة لملاقاة الدُّمي وقتالها بعدما انطلت الحيلـة عليهم، وراحوا كمـا توقَّع تمامًا يطلقون نيـران بنادقهم باتجاهها فـي اندفـاع وفوضى كعادتهـم، وبكثافةٍ وبلا تروٍّ، حتى انكشـف ظهرهـم وجانبا كتيبتهم، فتحرك بقية جنود الأرناؤوط في ثقة وسرعة من الجانبين بخيولهم حتى طوَّقوا عسكر المماليك على شكل هلال، والذين كانوا قد شرعوا في قتال الدُّمى بحماس..

لـم تسـتغرق المعركة وقتًـا طويلًا حتـى كانت جثث جنـد المماليك وفرسـانهم تسـقط من فـوق خيولها لتسـتلقي بجـوار بعـض الدمى التي طـارت رؤوسـها مـن سـيوف المماليـك الغشـيمة، فتناثرت أحشـاؤها البيضـاء الرخـوة حتى اختلطت بدماء القتلى السـائلة، وبدهشـة فرسـان المماليك وجنودهم، أما مَن نجا منهم فقد وقع في الأسـر كذبابة حامت حـول خيـوط عنكبوت بمظنة أنها ماكرة، فلما حطَّت عليها بثقةٍ سـقطت في براثنه بيسر وسهولة وهو يتأمل بلاهتها في دهاء..

دفـع الجند الأرنـاؤوط الأسـرى المماليـك أمامهم مكبَّليـن بالقيود والسلاسـل الحديدية، مشـدودين إلى خيولهم، مشـدوهة أعينهم، وهم يتأملـون بقية الدُّمـى الرابضة فـوق الخيول في سـكون، وإن كان بعضها قـد مال قليلًا من عنف المعركة، وتخيلـوا لوهلة أنها تتأملهم بدورها في صمـت، وتبادلهـم الدهشـة، ثم تنعتهم في سـرها بالغبـاء، فأطرقوا وهم يشعرون بالخزي والغفلة.

بعـد إطـلاق الدانـة الثالثة من المدافـع، عبر محمد علـي مع كتيبة كاملـة مجرى النيـل من ناحية جزيـرة الروضة، وهجم على بقية فرسـان الألفـي بـك، الذيـن كانـوا يعسـكرون بالقـرب من خـزان ميـاه الجيزة، فأخذهم على غِرَّة بعد أن هاجمهم بجناحين من اليسار واليمين بضراوة، وترك المدفعجية بعيدًا بمسافة كافية في مواجهتهم، يطلقون قذائفهم كل فترة لتشـتيت فلول قوات المماليك الأخـرى، فتجبرهم على الوقوع في مرمى نيران بنادقه كلما تقدموا لملاقاتهم..

لـم يكن الألفي بك في مقدمة الصفوف، بل ظل متحصنًا بداره، ولما حـلَّ الثلث الأخير من الليل وعلا دوي المدافع، اختبأ في محل الحريم، وعندمـا احتل محمد علي الـدار وأحكم قبضته على مدينـة الجيزة، كان الألفي قد هرب عبر الحديقة الخلفية الشاسعة، متسترًا خلف صف طويلٍ شـبه متلاصق من النخيل بعرض النهر.. ثم عرج يسـارًا إلى ناحية إمبابة، ومنها أطلق لحصانه العنان في اتجاه حدائق بنها المطلة على النيل..

أمـر القائـد محمد علـي مئة من فرسـانه بتعقُّـب الألفي بـك ورجاله الهاربيـن وأسـرهم، فأخـذوا يطاردونهم لسـاعات طويلـة تعدَّت نصف اليـوم حتى بلغوا مدينة منوف، بعدها اختفى الألفي بك تمامًا ومعه اثنين من رجاله لحقا به وسط الزراعات والقرى الصغيرة، في حين سقط معظم فرسانه في الأسر، فأصدر محمد علي أوامره ببقاء المدينة تحت الحصار بلا طعام أو شـراب حتى يستسـلم المملوك المنهزم، ثـم التفت إلى قائد فرسـانه الـذي بدت عليه ملامح انزعاج طفيف مـن حصار مدينة قد يثور أهلها في وجهه، قائلًا له بخبثٍ: «أو يسلموه لنا ميتًا في نهاية اليوم بعد أن يشتدَّ بهم العطش ويستبدَّ بهم الجوع.. لا تقلق فلن يصبروا عليه كثيرًا».

***

5
ضي القمر

ظلت الشمس في ذلك اليوم سيدة الموقف لفترة طويلة، ترسل أشعتها الحارقة لتحلَّ قيظًا على رؤوس المارة، فأجبرت بلهيبها مراسم الغروب ونسائم العصاري على الانتظار ريثما تنتهي من مهمتها، مضى السقا مناديًا يطوف الحارات وهو يدق الأرض بعصاه الرفيعة، وكأنه يحصي خطواته، وظهره المحني حاملًا القربة التي ينوء بثقلها، وتتهادى منها قطرات ماء سرعان ما تتبخَّر بمجرد ملامستها الطرقات الضيقة قرب مسجد الحسين، تتناثر هناك المقاهي المكتظة برجال في منتصف العمر يدخنون «الجوزة» بشراهة، وكأنهم انتووا قصف أعمارهم قبل أوانها.

تلفتت حليمة التي نقلت فرشتها قرب المسجد الكبير حولها وهي تتفرَّس في وجوه المارة صامتة، ثم تردد مقولتها المعتادة: «يا مفرِّج الكروب.. يا رب القلوب».. يلمع هلالها النحاسي التي تثقب به أنفها، ويميزها عن غيرها ممَّن يفترشون الطرقات بالمنطقة، يمر الحسن عليها كعادته، يدس يده في فتحة ثوبه العميقة، يقبض على كيس صغير يحوي أنصافًا من الفضة لا يعرف عددها فيلقيه في حِجرها دون أن يفتحه وهو

يبتسـم لها ابتسـامة حانية، فيعلو صوتها بالدعاء لـه أكثر ليغطي على نداء تاجر موسر ينادي على بضاعة واردة من بلاد الشام بغير أن يحددها، فيزيد فضول المتابعين ليصيروا بعد برهة مشترين تحت وطأة الغموض..

اختار حسـن ركنًـا قصيًّا في مقهـاه المفضل بخان الخليلـي في نهاية الصحن قرب الفناء الذي يجري فيه مزاد لبيع الأقمشـة الهندية والحلبية، تعلوه شـرفات الربع التي يقطنها التجار، وجلس يحتسي القهوة في تلذذ وهو شـارد في قسـمات وجههـا الدقيقة التي لـم يقوَ يومًا على نسـيانها، ظلّـت تحوم حـول ذاكرته كالفراشـة وتطوف في مخيلتـه برقتها وعذوبة حديثها ودفء مشـاعرها، ابتعدت عنه في السنوات الأخيرة رويدًا رويدًا حتى غابت وقت قدوم الفرنسـيس فلم يعد يعرف عنها شـيئًا وانشغل هو بمقاومتهـم حتـى رحلوا، ثم لاحت له من بعيد منـذ أيام قليلة، لن يتركها هـذه المرة أبدًا.. طـرق الطاولة التي أمامه بشـدة حتى لفـت الأنظار إليه فشـعر ببعض الخجل، كان يصطف حوله وبالقـرب منه رجال في أعمار متفاوتـة يتربعـون فـوق دكك خشـبية عاليـة ومصاطب حجريـة ملتصقة بالجـدران، تختلط أصوات ثرثرتهم الصاخبة مع رنين الأكواب وأدوات غلـي القهوة، فذاب في المشـهد مـع خواطره، مرت فترة ليسـت بالقليلة حتـى ظهر بعـض القصاصيـن يتلون السـيرة الهلاليـة على أنغـام الربابة فصار المشـهد أكثر شـجنًا، لم يعكر صفوه سوى بعض المتسولين الذين يطلبون الصدقة في إلحاح وكأن أقدامهم تسـمَّرت في مكانها، فجأة انتبه

الحسن لطرقعة سوط يُقرع بشدة فأخرجه من ذكرياته واستمتاعه بنغم الربابة، التفت ناحيته، كان عبدًا ضخمًا يسير أمام أحد بكوات المماليك، وخلفه بمسافة ثلاث من الحريم اللاتي تخفين وجوههن خلف يشمك مصنوع من قماش حريري، ويلتهمن المارة بأعينهن التي تبعث من ورائه بابتسامة خفيَّة خبيثة تشي برغبة مكبوتة.. كان العبد ينهر السائرين كي يُفسحوا الطريق لسيده وحريمه مستخدمًا عصا خيزران لينبه بها الكُسالى والمتنطِّعين، وكل فينة وأخرى يعلو صوته: «خذ يمينك يا حاج.. احترس لقدمك يا معلم.. ارجع يا أفندي.. أفسحوا الطريق».. كان يمط كلامه وينغمه مغموسًا بعمق في نبرة وعيد..

مرَّ الموكب المملوكي الصغير ونظرات الاحتقار تتناثر من أعين البك باشمئزار لتهبط على رؤوس المارة فتبتلعها نفوسهم بمرارة.. يظهر من بطن حارة ضيقة حاوٍ رث الثياب، وبصحبته قرد ضخم يتأمل الموكب في ازدراء وهو يعبث بإصبعه في أنفه ويرفع أحد حاجبيه مستنكرًا، ثم يأمر قرده بالرقود، كان قد ألبسه زيًّا أشبه بهذا الذي يرتديه عسكر المماليك، وراح يضربه بعصا خيزران على مؤخرته الحمراء البارزة ليؤدي حركات ماجنة درَّبه عليها إمعانًا في السخرية من حكام البلاد، التف حوله المارة يصفِّقون ويضحكون، ثم علت همهماتهم على استحياء وهم يتلفتون حذرًا بينما ألسنتهم تهمس سبًّا في المماليك وأيامهم..

علا صوت جهير لمنادٍ يطوف الطرقات، يقرع طبلة صغيرة، فغطَّى على أصوات الجميع وهو يعلن هروب الألفي بك إلى الدلتا، وهزيمة

عساكره على يد محمد علي ورجاله، فيعلو الهتاف بالنصر لقائد الأرناؤوط على المماليك.. كان الحسن قد فرغ من قهوته المطحونة بالحبَّهان ومسح بإصبعه التنوة ولاكها بين أسنانه مغمضا عينيه وكأنها تمنحه إكسير الحياة، ثم غادر المقهى المزدحم في اتجاه حي الموسكي، حيث الدكاكين الخشبية الصغيرة المتلاصقة إلى جوار بعضها كقوالب الطوب وغالبيتها تبيع ذات البضاعة، أقمشة، وأوانٍ فضية، وأعشاب، ونعال جلدية مرتفعة الثمن قليلًا، يتفحَّصها روَّاد السوق الحفاة، ثم يفضِّلون حفاءهم على التنازل عن ريالاتهم القليلة التي تقيهم شر الجوع..

سار لا يلوي على شيء بمنطقة السوق في تباطؤ وهو شارد تمامًا، هل يذهب إليها الآن أم ينتظر؟ حتى بلغ حي الغورية، كان الزحام على أشده، والساحة مغطاة بالقماش السميك ليحمي المارة من الحر والمطر، لكن نسمات الهواء بدت حبيسة، ثقيلة، تريد أن تتمدَّد فلا تقوى على الانسياب، شعر الحسن باختناق خفيف، وتعكَّر مزاجه، ولكن ظلَّ ذهنه مشغولًا بها وصورتها لا تفارق مخيلته منذ أن نادى المنادي بدحر فلول الألفي بك وهو يتلهَّف على لقائها.. لا بد أنها الآن بانتظاره، اخترق شارع الصاغة بحماره الرمادي الصغير الذي يتجوَّل به في شوارع المحروسة، فارتاحت قسمات وجهه مع إبداع الصناع للمشغولات الذهبية والحلي الفضية المشغولة بعناية، التي زُيِّنت بها واجهات الدكاكين الضيقة، ضمَّ ساقيه بشدَّة على بطن حماره فتوقفت الدَّابة حائرة قليلًا لكنها مطيعة..

كان يرغب في شراء قلادة من الفضة، ساومه التاجر مستغلًّا لهفته وفاصله الحسن مرتكنًا إلى قلَّة الزبائن لديه وركود السوق كله، لاحظ أنَّ البائع يعلِّق على مدخل حانوته جِراب أحد المماليك، ففهم أن الرجل يشاركهم مقابل حماية تجارته، لكنه لم يلِن فظلَّ يضغط بعنادٍ أكبر حتى استقرت في جيبه القلادة بدلَّاياتها الصغيرة من فصوص بلون الكهرمان بسعر معقول، ثم لكز الحمار بقوة في طريقه إلى دار الألفي بك، وابتسامة رضا تزيِّن وجنتيه بلطفٍ وهو يتخيل القلادة تتدلَّى على عنقها الطويل، شقَّ السوق في سرعة والشوق يسابقه فيجاريه متحمسًا، مرَّ في طريقه بجمعٍ مشابهٍ يلتفون حول حاوٍ آخر من المنتشرين في المنطقة وبصحبته قردة صغيرة تتلوَّى على الأرض في ميوعة وتتأوَّه كامرأة شبقة غلبتها الشهوة، والحاوي يدغدغ في وقاحة مواضع حساسة من جسدها بعصا رفيعة من البوص، ولسانه يقذف سيلًا من البذاءات بإيحاءات فاحشة عن بكوات المماليك وحريمهم، والناس من حوله يضحكون وقد انبسطت قسمات وجوههم في راحة و كأنهم قد أخذوا بثأرهم من جلَّاديهم..

يخترق الجمع فجأة رجال تسابق الريح مثلما تشق السفينة صفحة البحر الرائق على حين غرة إثر مطاردة بعض المارة لجماعة من اللصوص اعتادوا خطف العمائم التي يخبئ الرجال نقودهم بين ثناياها، ثم يصفعون الضحية على قفاه ليشغلوه بإهانته فيصعب عليه مطاردتهم، أفلتت ابتسامة ساخرة من الحسن لما سمع رنين الصفعة التي تلقَّاها الرجل وراح يمسك بقفاه متألمًا، وبالكف الأخرى يتحسَّس رأسه العاري والخزي والعار يتسابقان على نهش مشاعره..

انتحى الحسن بحماره جانبًا ليُفسح طريقًا لركب محتسب الغورية الذي يتبعه ثلاثة رجال أشداء مسلحين بسيوف وطبنجات، اثنان منهما حاملان المكيال والميزان ليراقبوا التجار.. لم يكد يمضي في طريقه حتى علت أصوات جلبة خلفه فالتفت ناحيتها، كان المحتسب قد ضبط بائعًا يغش في الأوزان مطففًا، وعلى الفور نَصب أحد رجاله الفلكة، وخلع آخر نعلي البائع وراح محتسب الغورية بنفسه يجلده عشر جلدات، وروّاد السوق تغلّفهم الرهبة ولا يحركون ساكنًا كأن على رؤوسهم الطير، ولكن عيونهم تنطق بتأييده وتقبلهم عقابه.. بعدها أمره المحتسب بأن يمضي بقية اليوم ورأسه عارٍ من العمامة، فانزوى خجلًا في دكانه.

لما بلغ الحسن دار الألفي بك استوقفه الجُند الأرناؤوط المسيطرون على الدار وما حولها لمسافة ذات قطر كبير، على رأسها مدفعجية ورماة بأقواسهم يعتلون تبّتين عاليتين من التراب، تعرَّف عليه بعض الحُراس فترجَّل تاركًا حماره وسار خلف أحدهم حتى بلغ أول نقطة عسكرية يتمركز بها فارس كبير وبعض جنوده، فصافحه في ودٍّ بالغٍ وأخبره بنجاح الغارة الحربية على المماليك، وأثنى على فكرته بمساعدتهم بالدُّمى القطنية التي خُدعت بها قوات الألفي بك لفترة كانت كافية للانقضاض عليهم، دارت عينا الحسن في فناء الدار الفسيح تُفتش عن ضالته المنشودة حتى لمح ثلاثة جنود يحيطون بجمعٍ من النساء تتعثَّر بعضهن في السير، يمشين بانكسارٍ إلّا واحدة..كانت أبيّة، شامخة، تمشي بثقةٍ ممزوجةٍ بالتحدي كأنها في ملكِها الذي نزع منها عنوة، انتفخ صدر الحسن ولمعت عيناه، اختلج فرحًا بقدرتها على الصمود، وخرج

صوته من بين ضلوعه المرتجفة ولعًا بنبرة متحشرجة قليلًا: «هل لي أن ألتقي القائد محمد علي؟!»

أجابه الفارس رافعًا أحد حاجبيه في دهشة من تبدُّل نبرته: «إنه ليس هنا الآن.. غادر منذ قليل للقاء القنصل دي روسيتي لأمر عاجل، ولحق به المُعلم جرجس.. فقد بلغنا أن الباب العالي سيعين واليًا جديدًا للمحروسة وهو في طريقه إلينا عن طريق الإسكندرية»..

استرعى الحديث انتباه الحسن، وراح الفضول يحوم حول عقله فسأله باهتمام:

- هل عرفتم مَن يكون هذا الوالي؟

- نعم، علي باشا الجزايرلي، وقد وصل من يافا وبصحبته ألف مقاتل ويقولون أيضًا إن

لم يستمع الحسن لبقية كلام الفارس؛ فقد غلب الحنين فضوله ووجد قدميه تذهبان به رغمًا عنه كالسائرين نيامًا في اتجاه محل الحريم بداخل دار الألفي بك، حتى بدا الفارس الأرناؤوطي وعساكره كصورة مهزوزة من خلفه وهو يبتعد عنهم، فلما أدرك الحرملك استوقفه جندي آخر ضخم مدجج بالسلاح على جانبيه، يرتدي حزامًا عريضًا متخمًا بالطبنجات والخناجر حتى ليحسبه المرء ترسانة أسلحة متنقلة، كان فظًّا سريع الغضب كعادة الأرناؤوط، له شارب كثيف ونظرات نارية تفيض بالشك، فرفض دخوله أو التفاهم معه وبدا عصبيًّا متقلِّب المزاج حتى كاد يدفعه بكلتا يديه بعيدًا، راح الحسن بقامته القصيرة وجسده النحيل

يشـرئب بعنقـه عن يمينـه تارة وعن يسـاره تـارة أخرى مختلسًـا نظرات خاطفة لعلَّها تبعث الطمأنينة بقلبه على وجودها بالداخل..

- أهؤلاء هن جواري الألفي بك؟

تساءل الحسن بنبرة مغلفة ببراءة أطفال مصطنعة أقرب للبلاهة..

ردَّ الجندي في غلظة:

- ولِمَ تسأل؟ ما شأنك بهن؟ مَن أنت؟ وماذا تريد؟

تجاهـل الحسـن أسـئلته وحملق فـي وجهه بعينيـن حادتين فشـتَّت تفكيـره حتـى ذهبـت الظنـون بالجندي إلـى أن الحسـن قد يباغتـه فجأة بتصرُّف مريب، فوضع يده على أحد سيفيه متأهبًا، لكن الحسن ابتسم له في برود والتفت حوله حتى لمح مَن يعرفه من قادة فرسـان محمد علي، فطلب معاونته هامسًا في أذنه:

- لقـد وعدنـي القائد بجارية من جـواري الألفي بك لمسـاعدة أمي العجوز، وأريد أن أختارها بنفسـي؛ فليست كل واحدة تصلح لما نريدها من أجله..

هزَّ الفارس رأسه قائلًا:

- لا أتذكر هذا الوعد، لكن لِمَ لا؟ فنحن لن نحتاج إليهن..

عبث الحسن في جيب سرواله، ثم أخرج مرسومًا يحمل خاتم محمد علي بالسـماح له بجارية مملوكية، تفحَّصه الفارس بعدم اكتراث، بعدها

أمر الجندي بأن يسمح للحسن بالدخول ويتركه ليختار جاريته قائلًا بنبرة حاسمة:

- وبعد أن يُتم مهمته عليك تأمين خروجه من الدار ومَن معه في سلام..

رضخ الجندي على مضض لأوامر قائده وهو يوجِّه نظراته النارية المتفحصة صوب الحسن، ثم أصر على تفتيش ثيابه، بعدها تركه يمر، فمضى مختالًا أمامه كالطاووس ليثير أعصابه أكثر ويشعره بأنه قد نجح في كسر شوكته مبتسمًا في تشفٍّ، رافعًا أحد حاجبيه في تحدٍّ صريح..

عندما اجتاز بوابة محل الحريم، راحت عيناه تبحثان عنها في شغف وسط البهو الفسيح الخالي من الأعمدة إلا ما ندر، كان عشرات الأغوات يروحون ويجيئون فيه حاملين صواني وأكوابًا، ومحدثين جلبة، يمشون أحيانًا في تكاسل وتراخٍ، فأدرك الحسن أن الدار بلا سيد، كانت الأركان تنتشر بها الأرائك بأحجام مختلفة بوسائد ملونة غالبيتها حمراء قانية، طُليت الجدران العالية بلون أبيض شاهق يريح الفؤاد، وفرشت الأرض الرخامية السوداء اللامعة بقطع صغيرة من السجاد العجمي المنقوش برسوم بديعة تحالفت مع الشمس التي كانت تبثُّ أشعتها بسخاءٍ من بين ثنايا المشربيات الواسعة، والنوافذ الصغيرة؛ لتتعاقد كضفائر ذهبية رقيقة تسر الناظرين..

كانت ألوان الجدران العالية، والوسائد المنتفخة، والأرائك الفسيحة، وثياب الجواري الملونة، وبشرة العبيد اللامعة، قد أضفت

على المكان رونقًا حالمًا ناعمًا مختلفًا عن الغبرة والخشونة خارجه من جرَّاء انتشار عسكر الأرناؤوط وخيولهم ومدافعهم، فسبح الحسن معها في خياله، وسرت رعشة خفيفة في صدره ارتجَّ بعدها جسده بهوادة عندما صافحت عيناه عينيها.. ها هي أمامه جالسة على أريكة مع بعض الجواري والمحظيات، بعضهن يبتسمن له، وأخريات يخفين وجوههن بيشمك رقيق لتظهر منه بوضوح عيونهن الواسعة الكحيلة، وابتسامتهن الخجلة تكاد تمزق أستار حرير خمارهن المنسدل على جيوبهن، بدت هي وسطهن ساحرة، ببشرتها الملساء الرائقة مثل شعاع نجمة في قنينة خمر، ترتدي ثوبًا فضفاضًا أزرق مثل صفحة السماء الصافية وقت العصاري، بينما تنساب جدائل شعرها الأسود الفاحم على كتفيها برقة أمواج النهر وقت الخريف، وخلخالها الفيروزي يطوِّق كاحلها برفق ويحتضنه في مودَّة، بادلته نظرة حانية من عينيها الواسعتين، شعر معها بأنه طائر يرفرف في مكانه بعد أن أرهقه التحليق فآن الأوان لاستقراره..

اقترب منها واحتضنها بعينيه، ثم ضمَّها بوجدانه إلى صدره، فشعر بأنفاسها تخبو مطمئنة وهى تختبئ كقطة خائفة قلقة بين ذراعيه؛ لتدفن رأسها الرقيق بين ضلوعه وتتمسح فيه، فراح يستنشق عبقها العطري المُفتقد منذ زمن طال انتظاره فيه..

خطا خطوة ناحيتها بثقة وعيناه تلمعان قائلًا: «رأيتكِ وأنتِ تغادرين السفينة منذ يومين، لا زلت أتذكركِ، الحقيقة أنني لم أنسكِ أبدًا»..

انسابت ابتسامة طمأنينة بهدوء من بين شفتيها المكتنزتين هامسة: «وأنا أيضًا كنت في انتظارك»..

تلعثم قليلًا، وتورَّدت وجنتاه وهو يقول: «أنا الحسن جمال الدين الرومي.. وكنا نسكن بالقرب منكم في دار سيف الدولة بالجيزة، كنت أعمل كاتبًا بالقلعة، والآن أعاون القائد محمد علي في معركته مع

بتر كلامه متلفتًا حوله، فخرجت الكلمات من ثغرها المتبسِّم خجلة تعكس احمرار خديها بلا مواربة: «اسمي نورسين.. وكنت أشاهدك كل صباح من خلف المشربية حتى انتقلنا للإقامة في مدينة رشيد وقت قدوم الفرنسيس، ووقتها أُسر أبي، ثم قتلوه، وبعدها باعني حاكم البلدة لمحمد بك الألفي، فصرت من جواريه، والآن لا أعلم مصيري.. ولا أعرف أحدًا هنا»..

ثم أردفت في خجلٍ. «سواك..

«نورسين.. نورسين».. ظل يرددها الحسن في تناغم: «اسم جميل لوجهٍ صبوحٍ مشرقٍ، وسمرتك تفضح مصريتك».. تنحنح مكملًا: «لم أكن اعرف أنَّك تحملين هذا الاسم، لا بد أنه يعني الكثير»..

- ضي القمر.. هكذا أخبرتني أمي..

قالتها والخجل يغمرها ويزيدها ارتباكًا فنهضت وهي تخفض رأسها قليلًا وتسترق النظر إلى وجهه كل برهة، بينما راحت بقية النسوة يبتسمن في صمت، وجد الحسن نفسه فجأة محاطًا بعشرات العيون ترقبه بإعجاب وتتابعه بفضول ولهفة، ابتسم نصف ابتسامة، ثم ثبَّت عينيه على عينيها.. ومدَّ يده إليها.. تلامست أناملهما برفق، شعر بالدفء يغزو

جسده لما تشابكت أصابعهما وسارا سويًّا شبه متلاصقين.. ظلَّا على حالهما حتى اقتربا من الجندي الأرناؤوط الضخم، فاعترض طريقهما بجسده مرة أخرى ليخرجهما من حالة الهيام إلى هواجس الريبة وعوالم القلق بنظراته المتفحِّصة التي تشي برعونة متوقعة تلك المرة، لم تخلُ من بجاحة وجرأة في ذات الوقت، مستغلًّا غياب فارسه ليضايقهما ويثأر لنفسه من دخول الحسن إلى الحرملك رغمًا عنه، ضغط الحسن على كفِّها مرتين ليبعث لها برسالة طمأنينة، فتشبثت بذراعه وهي تلتصق به أكثر وهو يبادل الجندي نظرات صلدة تحطَّمت عليها سهام نظراته الحادة حتى تزحزح قليلًا ليُفسح لهما الطريق، والحسن يذكره بأوامر سيده في نبرة مغلفة بتهديد صريح باستدعائه لو تراخى أو تهوَّر.. مرقا من زاوية ضيقة بالكاد أتاحها لهما وهو يتزحزح في سماجةٍ وصلفٍ، فرضخ الحسن حتى لا يشتبك معه، وسرعان ما كانت نورسين تستقر خلفه على حماره وهي تحيط خصره بإحدى ذراعيها، وتستند برأسها على كتفيه مغمضة عينيها في هيام، مستنشقة الهواء بحرية لأول مرة منذ زمن طويل..

مضت بهما الدابة نحو داره بالجيزة دون أن يوجهها الحسن تلك المرة، وكأنها كانت تعرف ما انتواه صاحبها مسبقًا وتشعر بمشاعره، فقد بدا رائق الوجه، مرتاح القسمات، وابتسامة الرضا الغائبة عنه عادت بقوة وراحت تحفر مكانها بثقة على وجنتيه لتستقر إلى الأبد حسبما انتوى.

***

6

الخيل أول ما يموت بالحروب

حمل ناجي ما اشتراه من السوق عائدًا إلى داره في تكاسل، وقد تدلى جوال صغير على كتفه يحوي عشرين رغيفًا، وعشر بيضات، وحزمتين كبيرتين من البصل، وثالثة من الفجل، دفع فيها جميعًا نصف ريال من الفضة، كان شاردًا في أن أمه ستلومه على غلاء الأسعار وكأنه الذي يحددها، فركل حجرًا بمركوبه معربًا عن تذمُّره، لفت انتباهه هدوء شوارع الجيزة، رغم أن النهار قد انتصف، كانت المقاهي خالية تقريبًا من الرواد وغالبية الدكاكين مغلقة، ونادرًا ما يتصادف مرور رجل على حماره أو بغلته، حتى الشحاذون تواروا من الحارات وكأنهم قد اغتنوا فجأة فاكتفوا بما غنموه عن بسط أيديهم طلبًا للصدقة.. ظلَّ يتلفَّت حوله في دهشة طوال الطريق وكأن البلدة تحولت إلى مقبرة جماعية لا يسمع فيها إلا صوت الصمت.. لما وصل قرب الدار لمح العبد الأبكم وساف يتحرك قلقًا أمام بوابتها، يضع يديه حول وسطه ويبدو حائرًا، وما إن وقعت عيناه عليه حتى هرول إليه مسرعًا، مشيحًا بكلتا يديه، ثم اصطحبه إلى جدته لأبيه التي عاتبته على إصراره على الذهاب إلى السوق بمفرده رغم أن الدار تكتظ بالعبيد والخدم، جلست العجوز على أريكة صغيرة

وهي تفرد ساقيها لنورسين، والتي راحت تدلك قدميها المتورمتين برفقٍ وهي تبتسم للصغير ناجي في حنان.

كانت نورسين ترتدي قميصًا طويلًا بأكمام واسعة طويلة منتفخة عند كتفيها، أسفله تنورة مزركشة، وتكشف وجهها وتضع طرحة صفراء فاقع لونها على منتصف رأسها، وبينما تُدلِّك قدمي العجوز، كانت تدندن بلحنٍ قديمٍ سمعته من الحسن مرارًا وتكرارًا حتى حفظته، طرق أحدهم الباب مرتين فأسدلت بسرعة البرقع الحريري المتدلي على رقبتها، وجذبت طرحتها حتى مقدمة رأسها، واعتدلت في جلستها، وظلت تحملق بعينيها الواسعتين من أسفله متأملة العبد وساف الذي مثل أمام الأم العجوز وهو يشرح بكفيه أنَّ هناك مَن يرغب في الدخول عليهما، ويتمتم بصوتٍ مكتومٍ وإشاراتٍ غريبةٍ متلاحقةٍ أغمض معها عينيه وهو يضم قبضته ناحية قلبه، ثم يزم جبهته ويشير نفيًا بكفِّه، ويعود ليبتسم في وداعة، ضحكت الأم وهي تهزُّ رأسها بالإيجاب..

سألتها نورسين بأدب جم عن القادم فضحكت قائلة:

- إنه الحسن، ابني الأكبر..

- وكيف فهمتِ ذلك؟

عندما أشار وساف لأسفل أنفه عرفت أن القادم له شارب، ثم رفع إصبعًا واحدة فعلمت أنه ليس بدينًا؛ إذن فهو ليس كمال الدين، وتأكدت من أنه يقصد الحسن عندما قبض كفه ووضعه ناحية قلبه، ثم ابتسم نافيًا الضجر؛ فهو يُكنُّ للحسن محبة خاصة لا ينافسه فيها أحد من أهل الدار،

فطالما أنقذ ظهره من سوط كمال سيف الدولة الذي لا يفارق يده، حتى إنني أظن أنه ينام ممسكًا به ليعاقب مَن يظهر في أحلامه..

قالتها بصوتٍ عالٍ فضحكتا.. لم تكد الأم العجوز تنتهي من ضحكاتها حتى خطا الحسن ناحيتهما، وهو يرفل في ثوبه الأخضر الداكن المزركش بخطوط ذهبية عند مقدمة صدره، وعمامته السوداء الصغيرة تزين رأسه، بدا رغم سعادته برؤية نورسين مهمومًا، اقترب من أمه مقبلًا يديها، فربَّتت كتفه قائلة بتوجُّسٍ:

- ماذا بك؟

- ادعِ لي يا أماه.. ادعِ لنا جميعًا؛ فنحن نحتاج للدعاء الآن أكثر من أي وقت مضى..

رفع وساف يديه تضرعًا إلى السماء وراحت شفتاه تتحرَّكان بدعاءٍ صامتٍ ليحمي ربُّه سيدَه، رمقه الحسن بنظرة سريعة وكتم ضحكة بداخله وهو يرقب جسد وساف السمين، الذي يترجرج مع انفعاله بالدعاء، ثم ألقى نظرة حانية على نورسين، بينما عيناها خلف البرقع الشفاف تشيان بابتسامةٍ على ثغرها الهامس بالدعاء له، أطال النظر إليها وهو يشعر بأن المسافة بينهما تتلاشى، حتى كادت أنفاسها تلفح وجنتيه، وخُيِّل له أن شفتيهما تتلامسان ببطءٍ حتى تتلاحما في عناقٍ أبدي، فأغمض عينيه متخيِّلًا جسدها البض بين ذراعيه، بينما راحت شفتاه ترجفان شوقًا لتقبيلها.. همهمت أمه مرتين بصوتٍ عالٍ فانتبه وابتسامة الخجل تسدل أستارها على وجهه لتتعثر خطواته وتتلعثم حروفه فيغادر مسرعًا، اكتسى

وجـه نورسـين بالحمـرة، وأطرقت لتتفـادى نظـرات الأم العجـوز التي ابتسمت ولمعت عيناها وهي تفتح صندوق حكاياتها قائلةً:

- سـأروي لكِ سـرًّا، كان الحسـن منذ نعومة أظافره لا ينام إلا عندما أقص عليه حكايات روتها لي جدتي

ثم ضحكت بعفوية مسترسلة:

- فـي كثيـر من الأحيان كنت أشـعر من دهشـته وبريـق عينيه ورهافة سمعه أنه يكاد يرى الشاطر حسن بحصانه الأبيض وسيفه الذهبي أمامه.. يتقمَّص شـخصيته، وتتلبَّسه روحه، حتى عندما ينام كانت قسمات وجهه تبدو مرتاحة، راضية عمَّا فعله الشاطر حسن مع الأشرار، وكأنه هو الذي فعلها..

صمتت وتنهَّدت بعمقٍ، ثم أردفت:

- هـذا الفتـى حالـم، غيور، ومختلـف عن أخيه الـذي كان لا ينام إلا إذا تناول عشـاءه مرتين، حتى إنني كنت أحيانًا أتشكك في أن الاثنين من بطني..!

انفتـح باب جانبي آخـر في ذات اللحظة فجأة بعنف لتغلق العجوز برفق خزانة ذكرياتها مع الشاطر حسن وحكاياته، لتدخل وردشان زوجة كمال الدين وهي تتدحرج من فرط بدانتها، فتلقي نظرة احتقار لنورسين، أعقبتهـا بأوامـر متلاحقة، ثم وضعت قدميها في طسـت كبيـر من الفضة الخالصـة، وبنبـرة ممزوجـة بالتعالي والغطرسـة أمرت نورسـين بغسـل قدميها وتدليك أصابعها بعد ما أطاحات بنعليها بعيدًا..

تـرددت نورسـين قليـلًا حتـى لمحت نظـرة خفيـة مـن الأم العجوز تشـجعها علـى التمـرد وتحثها علـى الرفض، ابتسـمت ابتسـامة صفراء لوردشـان، ثم توجَّهـت إلى غرفة الحمَّام الملاصقـة للبهو، اختارت إناءً كبيرًا طويلًا مملوءً بالماء كان منتصبًا بشـموخ علـى «الكانون»، انتظرت أمامـه قليلًا وهي تشـرئب بعنقها لتراقب سـطحه، فلمـا تقافزت فقَّاعات المياه عليه، عاونها وساف على حمله وهو يكتم ضحكاته بصعوبة، اقتربا منها بهدوءٍ وترقُّبٍ، ثم صبَّته نورسـين دفعة واحدة على قدمي وردشـان التي شهقت فجأة، ثم علا صراخها من جرَّاء سخونة المياه الشديدة التي ألهبـت قدميها، فبدت من شـدة انتفاضتها كقطة قُطـع ذيلها فجأة، عادت بقـوة للوراء حتى سـقطت على ظهرها مـن فوق الأريكـة فأحدثت دويًّا شـديدًا.. بينما تبخَّرت نورسـين مـن أمام عينيها وهـي تطبق على طرف ثـوب وسـاف، وهـو يجـري ويصفـق بكفيـه الصغيرتين خفيـة في جزل كالأطفال.

***

منـذ أن تـرك جـواده للسـائس لـم يتوقف كمـال الدين عـن إلقاء الأوامر لعسـاكره وفرسـانه بعدما بلغه من العسس والبصاصين أن الجند الأرنـاؤوط التابعيـن لمحمد علـي قد أغلقوا أبـواب القاهـرة منذ قليل، أوصدت أبواب النصر وزويلة والفتوح حتى صار قلب القاهرة في عزلة، ثم نقل له العسس أن محمد علي قد بلغ دمياط، وقاتل جنود خسرو باشا المتحصنيـن قرب النيل، حتى هرب الباشـا ناحية الفنـار مضطرًّا، وهدَّد

بالانتحـار فلم يأبه أحد لتهديده، وتركه محمـد علي بلا طعام نصف يومٍ فاستسلم صاغرًا..

- خُـذ كتيبـة من الفرسـان ومعك عشـرة منادين، طمئنـوا الناس بأن الأمـن والنظام محفوظان فـي مصر كلها، وأن الكل آمنون على أنفسـهم ومالهم وأهلهم طالما سيدفعون الضرائب للملتزم..

اسـتدار الفارس ليُنفِّذ تعليمات كمال سـيف الدولة، فاسـتوقفه قائلًا بعصبية وهو يتفرَّس في خطوط كفِّه اليسرى:

- لا تجعل الملتزمين يخرجون بغير حراسـة لجمع الضرائب، أرسل خلف كل منهم رجلًا بطبنجة وسيف..

- سمعًا وطاعة يا سيدي.

لم يكد كمال الدين يسـتقر على الأريكة دافسًـا رأسـه بين كفيه لينال قسـطًا من راحة مُفتقدة، وتوتر مزمن صار مصاحبًا له من كثرة ما تفحَّص كف يده إثر تقلُّب الأحوال كل يوم، وهو يلعن في سرِّه الحسن والمجذوبة حليمة ويزفر في ضيق؛ حتى دخل عليه رجل من رجاله والقلق قد نال منه حتى أعيته الحيلة عن إيجاد تفسير لما يقوله:

- الشوارع مقفرة وخالية من الناس.. لا أثر للحياة فيها..!

نظر إليه كمال الدين في حيرة، فلم يعد يفهم ما يجري في المحروسة، وكأن أهلهـا قـد اتفقـوا جميعًا علـى التمرد.. ولكـن أين اختفـوا جميعًا هكـذا؟! تسـاءل شـاردًا فاكتفى الرجل بهـزِّ كتفيه ومطِّ شـفتيه مجيبًا عن

تساؤله الصامت، فنال سبابًا لم يكن يتوقعه، وخرج مصحوبًا باللعنات، وبعدها بقليلٍ كان كمال الدين يغادر القلعة متوجهًا نحو دار البرديسي بك لتباحث الأمر مع فرسانه وتفقُّد شوارع المحروسة بنفسه في طريقه.

قبل أن يمتطي جواده سأله أحد فرسانه عمَّا ينتوي فعله مع رجال الحسن الثلاثة القابعين في سجن العرقانة منذ مقتل طاهر باشا..

- هل نعرض أمرهم على القاضي عثمان ركن الدين؟ حالتهم الصحية تسوء يومًا بعد يوم..

لمعت عينا كمال الدين والشرر يطقُّ منهما، كان قد نسي أمرهم تمامًا، شرد لبرهةٍ وهو يشد لجام الفرس عن آخره بقوة متذكرًا رجاء أخيه الحسن له كي لا يعدمهم، فقال بحسمٍ:

- لا حاجة لنا إلى القاضي، افصلوا نصفهم السفلي عن العلوي بضربة سيف، وعلِّقوا رؤوسهم على باب زويلة.. وألقوا ببقية جثثهم في الصحراء، فلا بد أن الذئاب جائعة..

قالها وهو يطلق ضحكة مبتسرة وينظر إلى لا شيء..

ثم بسط اللجام تمامًا لجواده لينطلق وخلفه جنوده هابطين المنحدر المؤدي إلى الفسطاط في طريقهم إلى الجيزة.. في حين كان فارسه يُسرع الخطى نحو الإسطبلات، ولم تمضِ دقائق حتى ظهر الفارس مرة أخرى في طريقه إلى سجن العرقانة، ومن خلفه الجلاد جلهوم حاملًا سيفًا طويلًا، تلك المرة يلمع نصله بشدة وابتسامته الباردة لا تفارق وجهه الأمرد.

***

احتشدت أكثر من مئة امرأة يرتدين ثيابًا سوداء، ويسدلن على صدر كل منهن «يشمك» من الحرير الأبيض، فيتدلَّى ليغطي نصف سيقانهن، وقد شمَّرن عن سواعدهن في الحوش الخلفي لبيت زينب خاتون، أمرهن الحسن بأن يغمرن كفوفهن في براميل النيلة ففعلن، كن بين الحين والآخر يطلقن زغاريد مكتومة فينهرهن الحسن ويستعجلهن..

خلف ستار سميك يفصلهم عنهن، كان رجال الحسن منشغلين في عملهم بتصنيع فتائل مغموسة بالزيت والقطران، تخرج ملتوية كأفاعٍ وليدة من كعكة صلصال مستديرة، تفقَّدهم الحسن وارتاحت قسمات وجهه وهو يرى المئات من فتائل البارود قد أُعدَّت بعنايةٍ وباتت جاهزة للاستعمال.. اقترب منه المساعد يعقوب هامسًا ببضع كلمات على إثرها طلب الحسن من زينب خاتون أن تتولى أمر النساء المحتشدات وتخرج بهن للشوراع في ساعة محددة عندما يرسل لها رسولًا من عنده، ثم استدرك قائلًا:

– أو عندما تسمعين الأذان يُرفع في كل المساجد بحي على الجهاد..

ثم همَّ بالمغادرة، إلا أنه توقف قليلًا متفرسًا في عيون النساء التي تطل عليه من خلف «اليشامك»، أو من وراء «البراقع»، كلها تتعلَّق به وهو يتعلَّق بواحدةٍ فقط، يبحث عنها بوجدانه، يدلُّه قلبه عليها وينبهه عقله إليها، ها هي هناك.. لمحها، انبسطت قسماته وبدأت ابتسامته تتأهَّب للاتساع، فخفضت نورسين رأسها خجلًا، منشغلة بما تطمس

فيه كفيها، شاردة في عينيه السوداوين اللتين تخترقان قلبها برفق فتناجيه بفؤادها: «أحبك».. وتكاد تسمع همساته إليها: «لن أتركك أبدًا».. دقَّ قلبها بعنفٍ، وشعر هو بأن للحنين همسات صاخبة تدوي في أذنيه، وترجُّ جنباته، وتزلزل وجدانه، لا يسمعها أحد غيره، لوهلة أحسَّ أنه لا يرى سواها، وتمنى لو أن الزمن توقف عند تلك اللحظة..

انتبه على وقع كف المساعد يعقوب مربتًا كتفه يستعجله، فخرج بصحبته وهو يتلفَّت خلفه كل برهة ليودعها بعينيه حتى امتطى جواده منطلقًا مع يعقوب في اتجاه الأزبكية ليلتقي المُعلم جرجس، في أثناء سيره عابرًا الحديقة المواجهة للبركة، كان صمت القبور يغلِّف القاهرة حسبما نبَّه المُعلم جرجس وعمر مكرم على الأهالي، فالتزموا ديارهم وحشدوا أنفسهم خلف المشربيات وعلى الأسطح وفي مداخل البيوت، أغلقوا الحارات من نهاياتها في ترقب، بينما كمن بعضهم في أفنية منازلهم لحين مرور المنادين عليهم، فارتاحت قسمات وجهه وابتسم للمساعد يعقوب بما يعني أن الخطة تسير على ما يرام.. ثم أطلقا لجواديهما العنان، وصلا إلى الغورية في دقائق قليلة، ترجَّلا وفتح الحسن حانوته وراقب الطريق لوهلة، ثم أحكم إغلاق بوابته الصاج العتيقة، وأضاء مصباحًا زيتيًّا صغيرًا تلمَّسا على ضوئه طريقهما، أزاح الكِليم وحرَّك العتلة الحديدية، وعاونه يعقوب بكلتا يديه ليرفعا الفوهة حتى تظهر فتحة السرداب التي تسمح بالكاد لرجلٍ واحدٍ بالمرور منها، طالما استخدم هذا السرداب طوال فترة مقاومة الفرنسيس، عشرات الاجتماعات واللقاءات السرية

عقدت هنا، مئات التكليفات كان يدونها، والخطط والمؤامرات كانت كلها تدبر من هذا المكان الصغير الغارق في باطن الأرض في سكون لكنه قادر على أن يغيِّر مسيرة الحياة على سطحها..

نزلا بحذرٍ شديدٍ على الدرج المعدني الحلزوني ليستقرَّا في القبو، عبق التاريخ يسد الأنوف ورائحة الحبر تنبعث من مخطوطات الحسن، للحظات تبادلا النظرات الصامتة وهما يتفرَّسان في السلاح المتناثر والأوراق المبعثرة والمحبرة والريشات الكثيرة الملقاة هنا وهناك جنبًا إلى جنب بجوار فتائل البارود والخناجر والسيوف، ثم راحا يجمعان بعض الأسلحة الخفيفة من البنادق القصيرة والطبنجات، وعبَّئا جوالًا قديمًا حتى منتصفه بالبارود، ثم خرجا كما دخلا، وبعد وقت قصير كانا على أطراف ميدان الرميلة، ومنه اتخذا طريقهما نحو الأزبكية مرة أخرى..

فجأة علت غبرة واضحة، فلما انقشعت لمحا من بعيد موكب كمال سيف الدولة قادمًا من اتجاه القلعة بعد أن غير وجهته لتفقُّد الأمن، كانوا أكثر من أربعين فارسًا يركضون بخيولهم، ينهبون الأرض نهبًا، وكان بجوار أخيه مباشرة فارسان يشهران البنادق، فانحرف الحسن ويعقوب لأقصى اليسار في لمح البصر، متسترين بأشجار كافور متناثرة أمامهم على أطراف البركة، مجبرين حصانيهما على الرقود، وجلسا القرفصاء خافضين رأسيهما لا يتنفسان، حتى عبر ركب كمال الدين وخلفهم بمسافة قريبة مرَّت كتيبة من عساكر الإنجليز الذين قدموا من الإسكندرية

لمعاونـة مماليـك الألفي بك فـي قتالهم ضـد قوات محمد علـي.. كان الإنجليـز يمتطـون خيـولًا أكبـر حجمًـا إلا أنها أبـطء قليلًا.. فاسـتغرق مرورها وقتًا، بدا ثقيلًا على الحسـن ورفيقه حتى شعرا بأن دماءهما تكاد تتجمد في عروقهما..

توقـف كمـال الدين عند بركـة الأزبكية من الناحيـة الأخرى، كان قد أصـدر أمـرًا لقواته من عسـكر المماليك قبـل مغادرة القلعـة بأن تطوف الشـوارع بصحبـة الملتزميـن والمناديـن ليخرج النـاس آمنيـن ويدفعوا الضرائـب، فبدأ رجاله يمـرون على بيوت الجماليـة والغورية والأزبكية والجيـزة فـي ذات الوقـت، لكن لم يسـتجب لهم أحد.. رُفـع الأذان في المسـاجد، فانطلـق رجال الحسـن الملثمون يطرقون أبـواب المصريين ليخرجوا في جماعات كالسـيل المنهمر فوق رؤوس المماليك، النسـاء حبلـى بالضجر والغضب والرجال متعطشـون للثأر مـن جلاديهم الذين ألهبوا ظهورهم بالضرائب..

انفتحـت أبـواب جهنم فجأة وانقلبت الأحياء السـاكنة إلى سـاحات حـرب مصغـرة، فمـا إن عبر الموكـب المملوكي الشـارع حتـى انهالت عليـه كعـكات وفتائـل البـارود مـن الأسـطح، وقذفـت النسـاء عسـكر المماليك بأواني الطعام النحاسـية المملوءة بالمـاء ليزيدها ثقلًا فهبطت على رؤوسـهم كالصخر، أغلق الرجال الحارات بمتاريس من الخشـب والأتربـة والبراميـل الصدئة وانقضُّوا علـى جامعي الضرائب والعسـكر

الذين من فرط ذعرهم ألقوا بدفاترهم وأكياسهم وراحوا يتخبطون كمن غرقوا في ظلامٍ دامسٍ فجأة، وباتوا يتلمَّسون الطريق لباب الخروج..

سقط عشرات القتلى من جامعي الضرائب وجُند المماليك، ووقع الباقون في الأسر، فكان الأهالي يقطعون شحم آذانهم بالسكاكين بعد أن يحلقوا لهم رؤوسهم بالموسى قدر ما يستطيعون.. ارتبك كمال الدين بشدة وقد أحاط به بعض فرسانه شاهرين أسلحتهم، ثم أفسحوا له طريقًا أطلق فيه العنان لحصانه بصحبتهم وسرعان ما اختفوا عن الأنظار..

في ذات التوقيت، بالقرب من القلعة، تحركت أكثر من خمسمئة سيدة بقيادة زينب خاتون التي كانت قد تفرَّغت منذ قدوم الفرنسيس لمصر للمقاومة مع الحسن ورجاله عندما خصَّصت وقتها جناحين كبيرين في بيتها خلف القلعة لإيواء المصريين وتطبيب جراحهم..

كانت حشود النساء تهتف بهتافٍ منتظمٍ لا يتغير ولا تنخفض وتيرته أبدًا بعدما حفظته لهن زينب خاتون على مدار يومين سابقين:

«إيش تاخد من تفليسي يا برديسي»

كنَّ رافعات كفوفهن السوداء المخضبة بالنيلة احتجاجًا على فرض ضرائب جديدة، بينما لا يجدن ما يسد رمقهن.. كان بعضهن يضربن على الدفوف بنغمة واحدة، وبالغت أخريات في الندب والعويل، فسرت العدوى بين صفوف الباقيات حتى تندَّر الرجال السائرون في المؤخرة لحمايتهن بالخناجر والنبابيت بأن صوت نسائهم يصم آذان أفندينا الوالي الآن في إستنبول ويقض مضجعه في مرقده..

كموجة بشرية عاتية عبرت الحشود ميدان الرميلة واخترقت حي الجمالية وقد لحق بها بعض العامة من الرجال وزوجاتهم، فلما اقتربت من أسوار القلعة انضم لها آلاف آخرون غالبيتهم من النساء الرافعات أيديهن السوداء لأعلى، وكان دقُّ الدفوف لا يتوقف، والعويل تعلو وتيرته كلما مرُّوا ببيوت أو دكاكين، التحمت المسيرات ببعضها البعض حتى ليحسبن الغريب أن أهل المحروسة كلهم يسيرون في طرقاتها مجتمعين في وقت واحد.. ظلَّ الهتاف يتصاعد لكنه كان مختلفًا هذه المرة بعد أن وضعت الجموع المنضمَّة حديثًا للمسيرة لمساتها:

«يا برديسي يا وش القملة.. مين قالك تعمل دي العَملة»

على مقربة من تلك الحشود الهادرة، وخلف باب زويلة، كان الحسن قادمًا من الأزبكية على رأس فرقة من خمسين رجلًا لحماية المسيرات وقطع الطرق على عسكر المماليك كي لا يلتحموا مع المصريين فيفرقوا جمعهم، وقبلها ببضع ساعات كان يتفقَّد منطقة إمبابة مع مجموعة أخرى منتقاة من رجاله حتى اطمأن على صمود أهلها الذين أجبروا قوات المماليك على الانسحاب ناحية جنوب الجيزة، بعد أن ألهبوا ظهور خيل فرسانهم بفتائل البارود المغموسة بالزيت والقطران، كانوا يشعلونها بالنيران ويلقونها عليهم من فوق الأسطح ومن وراء المشربيات المفتوحة لأعلى فصارت كطير أبابيل تنزل عليهم نارًا موقدة فتزيدهم ألمًا وارتباكًا..

علا هتاف الرجال بحماس:

«يا برديسي يا كلب الراعي.. روح خدلك عضمة من الوالي»

اشتبك الحسن ورفاقه مع عسكر المماليك في معركة ضارية، فقتل منهم العشرات، وجرح المئات، ولم يفقد سوى رجلين، كان يصول ويجول على حصانه وهو يضرب الرؤوس بالحُسام فيطيرها في ثوانٍ، ولما استعان المماليك بجنود الإنجليز لمؤازرتهم، غرس الحسن سيفه في بطن قائدهم وتركه به مترنحًا من آلامه، ثم استلَّ طبنجته وهو يدور بجواده من خلفهم نصف دورة فحصد ثلثهم بالبارود، وعاونه رجاله في الخلاص من الباقين الذين باتوا أشبه بفئران في مصيدة ضيقة، فتراصَّت جثثهم فوق بعضها البعض.. دارت رحى المعركة بعنفٍ فحصدت الكثيرين من عسكر المماليك.. فتارة تطير ذراع أحدهم ليسقط من على حصانه من شدة الألم والفزع ينطلق من عينيه، وتارة أخرى يصهل جواد بشدة تحت وطأة كثافة البارود ليتكوَّم بصاحبه فيسهل طعنه، على مقربة كان يعقوب يعدو بجواده في سرعة مشهرًا سيفه، فلما اقترب من الخيمة الكبيرة التي تغطي الحوانيت والدكاكين الضيقة، ضرب حبلها المشدود إلى وتدها العريض بالسيف، وسرعان ما دار بحصانه في لمح البصر ليضرب حبل الوتد الآخر، فأسدلت الخيمة على واجهات المحال التي كان المماليك يحتمون وراءها لإطلاق البارود، فراحوا يتخبطون خلف القماش السميك محاولين الخروج فرادى في عشوائية ليصطادهم يعقوب ورجاله بسهولة مثل الذباب.. بينما فرَّت عشرات الدجاجات تنقنق فزعة من أقفاصها التي تهالكت عيدانها بعدما دهستها الخيول الراكضة.. تعالت الغبرة واشتد سعار المعركة ولم يعد يُسمع سوى دوي البارود ورنين السيوف وصيحات المماليك الأخيرة حتى علا صوت المساعد يعقوب فجأة بهلعٍ:

- احترس.. احترس..

قالها من فوق حصانه بأعلى صوته ليُنبِّه الحسن الذي انشغل بحشو البارود في طبنجته، كان أحد المماليك قد التوى كثعبان وسط الحشود وهو يشهر خنجرًا بنصلٍ قصيرٍ معقوفٍ أشبه بالمنجل، قافزًا في رشاقة خلف فارس آخر على حصانه، ثم وثب منه فجأة ليجثم على صدر الحسن الذي لم يره مطلقًا ففوجئ به يطعنه في مقتل ليسقطا سويًّا والدماء تغطي صدره، وقد أفلتت الطبنجة من يده واستقرت على مقربة من موقع سقوطهما، نظرا لها سويًّا في آنٍ واحدٍ ولكن جفون الحسن أسدلت ستائر سوداء فجأة، قبل أن يصرخ ألمًا بقوة، ثم راح في غيبوبة كاملة، فسبق السيف العذل.

وقف الرماة أعلى أبراج القلعة بأقواسهم وسهامهم يرتدون زيًّا أقرب إلى لون الحجر فيصعب على المرء تمييزهم من بعيد وهم يظهرون كل برهة من المزاغل الكبيرة ليطلقوا دفعة منها، فبدت السماء غاضبة تمطر سهامًا على رؤوس الجموع المحتشدة لتخترق قلوبهم الموجوعة على حال بلدهم، تراجع المواطنون الثائرون مبتعدين بمسافة كبيرة عن الأبواب التي مُلئت خنادقها بالمياه وانتشر خلفها عشرات الجنود ببنادقهم بعد أن صدرت لهم أوامر مسبقة من كمال سيف الدولة بقتل مَن يقترب دون تبيان أو تحذير

كان المحتسب جالسًا في القاعة الكبرى يوقِّع مراسيم لحفظ النظام توالى صدورها على مدار يومين تقيِّد حرية التنقل وتنظم مواعيد فتح وغلق الدكاكين وأسعار السلع، أُلغيت الضرائب التي فرضها البرديسي قبل أن يدفع المصريون ريالًا واحدًا من الفضة جباية لها فوأدها الشعب في مهدها، وقُتل أكثر من أربعة عشر ملتزمًا من الجباة في مناطق متفرقة منها إمبابة والأزبكية والغورية والرميلة، كانت قاعة الحكم بالقلعة مغلقة وكرسي العرش خاويًا لم يجلس عليه أحد منذ أسابيع، ولا يوجد حاكم بسلطات كاملة في المحروسة كلها..

على مقربة من تلك الحجرة المقفرة هرع أحد الرجال للقاعة الكبرى وقدَّم مرسومًا للمحتسب فقرأه بصوتٍ عالٍ على مسامع كاتم أسراره وفرسانه ورجال الضبط والربط المصاحبين له، كان المرسوم صادرًا عن الباب العالي بتعيين علي باشا الجزايرلي واليًا على مصر، وكان تاريخ المرسوم يعود إلى ثلاثة أسابيع مضت، امتعض وجه كبير البصَّاصين وراح يؤكد للمحتسب أن المرشح لحكم المحروسة هو خورشيد باشا حاكم الإسكندرية الذي وصل إلى القاهرة مع ألفين من رجاله منذ ساعات قليلة ولا بد أن هذا المرسوم مدسوس عليهم، لم تكن ملامح المحتسب تشي باقتناع أو حتى اكتراث لما يقوله كبير البصاصين، وتأكدت اللامبالاة المترسخة بوجدانه أكثر عندما تجاهله تمامًا محدِّثًا أحد حرَّاسه ليستدعي نائبه كمال سيف الدولة، فلما مثُل بين يديه ظلَّ يتجاهله بدوره لدقائق هبطت ثقيلة على كمال الذي تفصَّد عرقًا رغم برودة الطقس، وظلَّ متسمرًا في مكانه لا يفعل شيئًا إلا اختلاس نظرات

خاطفة إلى عيني كبير البصاصين المملوءتين عن آخرهما غدرًا، ثم ينقل بصره لكفِّه اليسرى خوفًا من أن يطير رأسه في أي لحظة؛ فقد كان يشعر بأنه قد أخفق للمرة الثانية في قمع ثورة المصريين على البرديسي الذي فرَّ هاربًا منذ يومين إلى الصعيد وانقطعت أخباره..

انشغل المحتسب عنهما في حديث جانبي مع بعض فرسانه من المماليك لمتابعة حالة البلاد إثر المظاهرات الحاشدة، يتلقى منهم ما سمعوه من العسس والبصاصين، ورغم أن غالبيتهم رأوا بأعينهم المسيرات وعشرات القتلى إلا أنهم طمأنوه بأن الوضع لا يزال مسيطرًا عليه، وأنهم تمكنوا من فتح بابي زويلة والنصر مرة أخرى ودخلت منهما قوات الإنجليز وكتيبتين من الجيش العثماني للمعاونة، وأخبروه أيضًا أن جند الأرناؤوط وقائدهم محمد علي يتمركزون منذ الصباح الباكر قرب طُرة على ساحل مصر القديمة، مما يؤكد حياده وعدم تورطه..

هنا طلب كبير البصاصين من المحتسب الإذن بالحديث مرة أخرى رافعًا كفه، فأذن له على مضض، تنحنح الرجل وهو يعبث بشاربه المبروم ويشد في قامته، ثم قال بنبرة العارف ببواطن الأمور: «بلغني من رجالي أن خسرو باشا أسير الآن لدى محمد علي بعدما أحضره من دمياط على متن سفينة وهو ما يؤكد شكوكي في مرسوم تعيين علي باشا الجزايرلي لأن ...»، لم يستطع إكمال حديثه، فقد بترته نظرة حادة من عيني المحتسب، الذي كسا الغضب وجهه بغير تمهل، ثم خاطبه بعنفٍ قائلًا: «يبدو أن رجالك يجمعون الأخبار من المنشدين على المقاهي، ما هذا الهراء الذي تقوله؟»

ارتبك كبير البصاصين حتى تراخت كتفاه وقد ساوره الخوف متحسِّسًا رقبته: «لا يا سيدي أنا تأكدت من الصيادين التابعين لنا على الساحل هناك، لقد رأوه وهو ينزل من السفينة في حراسة رجال محمد علي، وبلغني أيضًا أن القنصل دي روسيتي وقنصل فرنسا ومعهما المُعلم جرجس ومكرم أفندي ذهبوا في حراسة كتيبة صغيرة من الأرناؤوط؛ ليجتمعوا مع محمد علي هناك».

ضرب المحتسب الطاولة التي أمامه بقبضته صارخًا: «إذن مرسوم الجزايرلي صحيح ومحمد علي كان يخطِّط لكل هذا وأنتم تظنون أن قواته تنسحب وأن قواتنا تمكَّنت من دحره حتى اضطر للبقاء على ساحل مصر القديمة قرب طرة.. ثم تقولون إنه على الحياد.. يا لكم من أغبياء! من المؤكد أنه يرتب مؤامرة الآن، فلا أحد يكرهنا كراهة التحريم قدر الجزايرلي باشا، يا لها من خطة! سيتظاهر بأنه يريد عودة خسرو باشا ليُجبر الباب العالي على تعيين الجزايرلي، ونحن الذين سنتصدَّر الصفوف ونُقتل مثل الخيل في أول الحرب.. أنتم أغبياء.. أغبياء».. ظلَّ يكررها وشفتاه تتدليان، ثم نهض غاضبًا، فهبوا جميعًا واقفين وفرائصهم ترتعد..

اقترب المحتسب من شرفة القاعة الضخمة وهو يتأمل جُنده من خلف الستار وهم يُفرِّقون المسيرات بالكرابيج، ويطلقون بارود بنادقهم في الهواء لإخافتهم.. ولكن الأهالي كانت تبتعد لمسافة قريبة، ثم ما تلبث أن تعود مرة أخرى وكأن حاجز الخوف قد انكسر ولم تعد لحياتهم

قيمة بعدما صارت رائحة البارود عطرًا يستنشقونه فيزيدهم تعلقًا بالحياة أكثر، نادى المحتسب بصوتٍ عالٍ على كمال سيف الدولة دون أن يلتفت إليه، فاقترب منه وهو يردد:

- أمرك يا مولانا المحتسب..

- هناك أمر مهم نسيت أن أسألك عنه يا كمال، هل تعرف رجلًا يُدعى الشاطر حسن؟!

ظلَّ كمال يستمع لصدى صوت يعيد تكرار السؤال على مسامعه غير مصدِّقٍ ما اخترق أذنيه، ثم راح يتفصَّد عرقًا حتى شعر برأسه يسبح تحت عمامته، فأزاحها قليلًا ومسح أعلى جبهته، تلعثم وارتبك وردَّد كلمات غير مفهومة، لم ينفِ أو يؤكد، حتى قاده تفكيره إلى مواجهة سؤال المحتسب بتساؤل:

- ومَن يكون الشاطر حسن هذا؟!

ألقاه على مسامع الجميع وهو ينقل بصره الزائغ بينهم بغير تركيز، أفلتت ابتسامة استنكار من بين شفتي كاتم الأسرار وأخرى مماثلة من قائد حُراس القلعة، في حين أطلَّت نظرة ميتة لا تخلو من تشفٍّ واضحٍ من عيني كبير البصاصين أضافت مزيدًا من الحيرة إلى عقل كمال الدين، التفت المحتسب ناحيته والغضب يتطاير من عينيه، فزاده توترًا وخوفًا، ثم أشار بعينيه لكبير البصاصين الذي وجدها فرصة سانحة لإزاحة كمال سيف الدولة من طريقه وهو يقول:

- نعـم يعرفـه يا سـيدي؛ فهـو أخوه غيـر الشـقيق، واسـمه الحقيقي الحسـن جمـال الديـن الرومـي، وتأكدنا من أنـه يقيم معه فـي داره وغير متـزوج، وأمس أمر كمال الدين بتنفيذ حكـم الإعدام في ثلاثة من رجاله بعقوبـة التوسـيط، ثـم علَّق الجـلاد جلهوم رؤوسـهم على بـاب زويلة، وقبيل المغرب ألصقنا على الجدران مرسـومًا بإعدامهم ليقرأه المنادون على العامة.. أما الشاطر حسن فقد كان رابعهم الذي هرب..

ثم أردف مفاجئًا كمال الدين وحده:

- واليـوم بحمـد اللـه يـا مولانا تمكَّـن أحد عسـاكرنا مـن قتله قرب الجماليـة، ولكنَّ رجالـه حملوا جثمانه وهربوا به إلـى مكانٍ غير معلوم، والعسـس يجمعون الأخبار حولهم، وسـوف نظفر به إلا إذا كان الشاطر حسن ينعم بحماية خاصة حتى بعد مماته..

قالها مستنكرًا وهو يرمق كمال بطرف عينه..

لـم يهتـز كمال سـيف الدولة علـى الإطلاق مـن خارجـه، وإن كان ارتعـد من داخلـه وعصفت به المخاوف عصفًا، فبات مثل شـجرة تحني رأسـها أمـام الريح العاتيـة.. تنهَّد بعمـقٍ عندما ومضت في رأسـه فكرة، فشـعر أنه يتنفس الصُّعداء لأول مرة هذا اليوم.. اختلس نظرة سـريعة إلى كفِّه اليسـرى ليُطمئن نفسـه بها قائلًا بنبرةٍ هادئةٍ مغلفةٍ بثقةٍ متأرجحةٍ وهو ينظر إلى المحتسب وحده متجاهلًا كبير البصاصين والباقين وكأنهم غير موجودين:

- حسنًا.. أنا لم أشأ أن أشغلكم بأمر أخي المارق، ولم أكن أعرف أنكم لقَّبتموه بالشاطر حسن إلا الآن، مع أنه في نظري شخص خائب، لا يحمل من لقبه شيئًا.. لكن ربما يبدو شاطرًا بالنسبة لكبير البصاصين!

قالها وهو يبتسم في سماجةٍ، ثم أردف مسرعًا بجدية:

- سيدي.. عَز سلطانك، لقد قدرت الأمر بمفردي وربما أكون مخطئًا، فقرَّرت أن أتولى أمر أخي بنفسي باعتباره خائنًا يستحيل إصلاحه، فأرسلت خلفه بعضًا من رجالي حتى ظفروا به وقتلوه..

ثم استدار بنصف جسمه ناحية كبير البصاصين والسخرية تُغرق نبرة صوته تلك المرة:

- أمَّا مَن حملوا جثته واختفوا بها عن أعين بصاصيك، فهم من رجالي أيضا، أحضروه إلى داري حتى أتأكد بنفسي من موته وأدفنه بيدي.. للأسف يبدو أن كبير البصاصين يعتمد بالفعل على المنشدين والحواة في جمع الأخبار، وربما الغوازي أيضًا!

قال كلمته الأخيرة وهو يثبت نظراته على وجه كبير البصاصين الذي بدا عليه الارتباك الشديد وجالت بخاطره ملامح الغازية التي يرافقها منذ فترة وخشي أن يفضح كمال الدين أمره أكثر، فحاول الدفاع عن رجاله من العسس، إلا أن إشارة من يد المحتسب أخرسته، فاسترسل كمال الدين قائلًا بمزيد من الثقة:

- إلا الخيانة يا سيدي؛ فهي لا تُغتفر عندي حتى ولو كان أخي، فسأكون أنا أول مَن يقتله..

اقترب منه المحتسب وربَّت كتفه مرتين وهو يتفرَّس فيه بنظراتٍ لا تخلو من الشك والريبة في أمره حتى مالت شفة كمال الدين السفلى إلى اليسار قليلًا وهبط جفنه الأيمن وانتفض جسده كله من داخله ولم يهدأ إلا عندما أشاح المحتسب بوجهه مبتعدًا عنه، عاقدًا كفيه خلف ظهره.. دقائق بطيئة مرَّت على الجميع ثقيلة، حتى فاجأهم المحتسب قائلًا بحسمٍ:

- حسنًا، لنرَ مَن منكما سيعيش أطول من الآخر، كمال سيف الدولة.. فلتحضر لنا رقبة أخيك الشاطر حسن مفصولة عن جسده لكي نصدقك ووقتها سندفن معها كبير البصاصين حيًّا عقابًا له على تقديم معلومات خاطئة بقصد التدليس والتقصير في عمله..

صمت المحتسب برهة، ثم أردف بذات اللهجة الحاسمة ونبرة التهديد:

- وإلا اعتبر أنك قد حفرت قبرك بيديك، ووقتها سيغلقه عليك للأبد كبير البصاصين إن كنت تكذب علينا.. هيا اذهب الآن ولا تعد إلا بما أمرتك به.

***

7
حمّام الحريم

لـم يسـتطع القنصـل الإيطالـي دي روسـيتي أن يجـاري محمـد علـي ورفاقه في جلسـتهم القرفصاء بداخـل الخيمة الكبيـرة التي نصبها الأرناؤوط وسـط مخيمهم العسكري قرب طُرة على امتداد ساحل مصر القديمـة، و بـدا التأفف واضحًـا على قنصل إنجلترا، وسـرعان ما تحوَّل إلـى عصبيـة مفرطة، فاقتـرح القنصل الفرنسـي أن ينقلـوا مباحثاتهم إلى مقره بالقرب من أهرام الجيزة، إلا أن محمد علي أمر لهم من خيمة قريبة بوسـائد قطنية ضخمة مسـتديرة تعاونهم على تحمل الجلسة، فاستجابوا متململيـن، رحَّـب بهـم بعبـارات مقتضبـة وطمأنهـم علـى مصالحهـم ورعاياهم، وشـرح لهم سـبب قتالـه للمماليك، ثم فاجأهـم وكأنه يقطع عليهم طريق الاعتراض على أفعاله مصادرًا أي رأي قد يُبدى ضده قائلًا: «خسـرو باشا لا يزال هو الحاكم الشـرعي للبلاد، وإذا ما أردتم أن تكون لكـم مصداقية، فاقبلـوا عودته من الآن إلى عرش المحروسـة، وارفضوا مرسـوم تعيين الجزايرلي باشـا الذي أصدره البـاب العالي حتى يخلصنا الوالي القديم من المماليك»..

صمت لبرهة متفحصًا ملامحهم فلما وجدها مرتبكة للغاية أردف: «إن خسرو باشا في خيمة قريبة من هنا، ويمكنكم زيارته إن أردتم قبل أن يغادر لمقر الحكم بالقلعة»، ثم اختتم حديثه العاصف في هدوء وهو ينظر إلى صفحة النيل الرائقة البادية من بعيد: «آن الأوان لهذا البلد أن يستقر..»!

هبَّ قنصل إنجلترا من جلسته قائلًا بعصبيةٍ بالغةٍ فشل في السيطرة عليها: «أنت لا تمثل أحدًا في هذا البلد حتى تتحدَّث عن استقراره، وعليك بالرحيل فورًا مع جنودك المرتزقة الذين جلبتهم معك، ولا تنسَ أننا كنا ندفع رواتبك ورواتب جندك عندما جلبناك من بلادك لتحارب جنبًا إلى جنب مع المماليك ضد بونابرت، والآن دورك انتهى، ونحن لن نوافق على خسرو باشا أو الجزايرلي، نحن نرى أن الألفي بك هو الأنسب لقيادة مصر الآن، والأقدر على تخليصها من فوضى تسببت أنت فيها بمؤامراتك»..

رمقه محمد علي بنظرةٍ باردةٍ بعدما تيقن من أن خطته تسير على ما يرام، ثم تبادل حديثًا هامسًا طويلًا عبر مترجمه مع عمر مكرم وجرجس الجوهري حتى لا يسمعه الترجمان الآخر المرافق للقناصل، بعدها وقف بتؤدَّة مصافحًا قنصل فرنسا، والقنصل دي روسيتي ممثل النمسا وإيطاليا بحرارة شديدة قائلًا لهما في هدوء: «أنا أثق في رجاحة عقليكما وتقديركما للأمور».. ثم وجه حديثه لمترجمه ذي الشعر الأحمر وهو يصوِّب نظره في حدَّةٍ نحو القنصل الإنجليزي: «قل له إن الزيارة انتهت،

ولا مصالح مشتركة للمصريين مع إنجلترا حسبما أخبرني الآن السيدان الكريمان عمر مكرم والمُعلم جرجس.. وبالنيابة عن المصريين فإنهما يعتبرانه شخصًا غير مرغوب فيه»..

قالها وهو يخطو بضع خطوات ناحية باب الخيمة، في حين راح مكرم أفندي والمعلم جرجس يهزّان رأسيهما تأمينًا على كلامه، ثم التفت رافعًا صوته بنبرةٍ غاضبةٍ: «وبصفتي مكلفًا منهما بحماية المصريين، فإنني أُمهلك يومين تغادر فيهما المحروسة كلها، أو تقبل صاغرًا ما قد يقرره الوالي الجديد بشأنك»..

ثم أردف في تحدٍّ وهو يشير له بإصبعين: «يومان فقط لا غير»..

ارتبك القنصل الإنجليزى قليلًا، ولكنه حافظ على بروده قائلًا بنبرةٍ ممزوجةٍ بالسخرية: «والٍ جديد! ومَن يكون هذا الرجل إذن؟ خسرو باشا؟!»

- ستعرف عند انتهاء المهلة.. ووقتها لن تتشرف حتى بمصافحته..

قالها محمد علي بثقةٍ بالغةٍ والجدية تكسو ملامحه كلها، فلم تسمح لأي تعبير آخر بمشاركتها..

***

قبل أن يغادر كمال سيف الدولة مقر القلعة عرج إلى القاعة التي يشغلها الدفتردار لإدارة أمور المحروسة المالية، وذهنه لا يتوقَّف عن التفكير في مصيره؛ فأي خطأ الآن سيُكلفه حياته، فقرَّر أن يطلب

منه معونة مادية عاجلة لتدعيم عسسه وبصاصيه ببعض المرتزقة، شعر رجائي أفندي الدفتردار بنذر الغضب تهبُّ مع دخول كمال الدين وثلاثة من أقرب فرسانه إليه، فأمر الموجودين بالانصراف، فلما أُغلق الباب خلفهم لمعت عينا الدفتردار وراحتا تتسعان خوفًا، قائلًا بذعرٍ شديدٍ وهو يتلعثم متفحصًا طبنجاتهم الظاهرة وسيوفهم المدلاة على أجنابهم وكفوفهم المتأهبة إلى جذبها: «لقد كنت أنوي أن أخبركم بالطبع، ولكن الظروف لم تكن سانحة بسبب الفوضى»..

لم يفهم كمال الدين شيئًا ولكنه آثر الصمت مؤقتًا مكتفيًا بتبادل نظرات الدهشة مع رجاله الذين تحفزوا أكثر، فاندفع الدفتردار نحو صندوق ضخم أسود مطعم بالنحاس المشغول كان يقبع منزويًا قرب الحائط في ركن بعيد، فتحه بيدٍ مهتزة فإذا به يحوي مئات الأكياس الجلدية الصغيرة، ففضَّ إحداها وهو يبسط كفه ليروا معه العملات الذهبية التي علا رنينها وهي تتساقط على الأرض إثر ارتعاش كفيه، فبدت كحبَّات المطر المنهمر..

رمق كمال رجاله بنظرة ماكرة محفزة قائلًا بسرعة بديهة: «يا رجائي أفندي كل لبيب بالإشارة يفهم، وأنت فهمتنا بسرعة، لا تخف فأنا لن أخبر الوالي بالأمر ولا حتى المحتسب، بل سنريحك أيضًا من عناء عدِّ النقود وإحصائها، ولكن ...»، صمت لبرهة كانت كافية ليتهلَّل وجه الدفتردار مرة أخرى قليلًا بعد أن ضمن التستر على اختلاسه لبعض مال الضرائب، مستغلًّا الفوضى وانشغالهم عنه بها، فهرول ناحيته قائلًا: «سأفعل أي شيء تأمرني به.. أي شيء»..

- كنت واثقًا من رجاحة عقلك..

ثم أردف كمال الدين وهو يُربِّت كتفه:

- اعلم أن هذا المال سننفقه لحماية البرديسي بك وتدعيم قوَّاته ليعود لحكم المحروسة؛ لذا فإنني أريد مثله كل شهرين.. فقد آن الأوان لهذا البلد أن يستقر..!

اتسعت عينا الدفتردار ولم يقوَ على الرد، في حين راح فارسان يحملان الصندوق الثقيل ويسيران خلفه، وغادروا جميعًا وراء كمال الدين الذي أفقده بريق الذهب تذكر سبب مجيئه، ليتحرك الركب في طريقه إلى دار سيف الدولة محملًا بالغنيمة.

***

اقترب العبد صالح من حارس حمَّام الحريم بالجمالية وهو يهمس في أذنه ببضع كلمات على إثرها تفرس الحارس فيمن بصحبته، كانتا امرأتان، الأولى قصيرة بدينة ترتدي زيًّا داكنًا و«يشمك» يغطِّي ملامحها تمامًا فلا تظهر إلا عيناها المرتبكتان، والثانية لم تكن سوى نورسين التي ظهر بمشيتها عرج واضح بعد أن أمرت وردشان زوجة كمال الدين بوضع قدميها في ماءٍ مغلي لفترة طويلة حتى تورَّمتا عقابًا لها على فعلتها معها..

دار الحارس حول المرأتين دورة كاملة، وهو يبتسم للبدينة رافعًا حاجبيه عدَّة مرات مغازلًا إيَّاها، قائلًا بنبرة شكٍّ: «ولكن لم يخبرني

أحـد أن زوجـة نائـب المحتسـب سـوف تحضـر وبصحبتهـا صديقاتها وجواريها»..

عاد صالح يقول في وعيد: «كما تشاء.. ولكنني سأخبره بأنك رفضت إخـلاء الحمـام»، ثم أشـار للمرأتيـن قائلًا: «هيـا نعُد للدار».. اسـتوقفه الحارس وهو يبتسم في لزوجة: «لا تكن قليل الصبر هكذا، أنا فقط أمزح معك، أمهلني بضع دقائق فقط وسأُخلي الحمَّام والمغطس فورًا»..

قالهـا وهو يغمز للمـرأة البدينة وشـهوة عارمة تطلُّ مـن عينيه كضبع يتضوَّر جوعًا، ما إن دخل الرجل إلى الحمام لإخلائه من النسـوة اللاتي يسـترخين فيـه، حتـى أشـار صالح إلـى ثلاثة آخرين مـن بعيـد، فاقتربوا مسـرعين وهـم يعاونون امرأة ضئيلـة الحجم على السـير بصعوبة، وبعد قليـل غادرت بضـع سـيدات المغطس وإحداهن تسـبُّ المماليـك علنًا غيـر عابئة، ثم بصقت بجوار الواقفين اعتراضًا على إخراجهن عنوة، وما إن انصرفـن حتى اسـتقر هذا الجمـع الرباعي الغريب الـذي يغلِّفه القلق بداخل بهو الحمام الرئيسي، قرب المغطس الكبير البيضاوي، بعيدًا عن الحجرات الخشـبية الضيقة المتلاصقة التي تبدِّل فيها النسـاء ملابسهن، فـي حين مكث صالح مع حـارس الحمَّام في الخـارج يتجاذبان أطراف حديـث ممل، ويدخنـان النارجيلة بالتبادل، والرجل لا يكف عن سـؤاله عن المرأة البدينة..

رفع المسـاعد يعقوب اليشـمك عن وجهه، ثم كشـف وجه الحسـن الذي كان شـبه غائب عن الوعي، وسـاعدته حليمة على كشـف صدره،

بينما خلعت المرأة البدينة - التي كان الحارس يغازلها - برقعها، فإذا بها العبد وساف.. وراحوا جميعًا وبصحبتهم نورسين يتفحصون جرحًا كبيرًا أسفل كتف الحسن اليمنى من جرَّاء الخنجر الذي لولا كونه معقوفًا لكان قد ترك أثرًا غائرًا في جسده، وربما فقد حياته بسببه بعد أن أفلت من الموت بأعجوبة عندما تدخَّل يعقوب في اللحظة الأخيرة وأطار رأس المملوك الذي كانت كفه تقبض على طبنجة الحسن، فتحت حليمة كيسًا من القماش وأخرجت منه أعشابًا وخِرقًا قديمة وقنينة صغيرة تحوي سائلًا مائلًا للصفرة، في حين راح المساعد يعقوب، الذي كان على دراية بسيطة بالتطبيب وتضميد الجراح وجبر الكسور، ينظِّف الجرح بخِرقةٍ صغيرةٍ مبلَّلةٍ بالكحول، فتتعقد قسمات وجه الحسن وتتقلص عضلاته ألمًا، وحليمة تدعو له وترقيه وهي تقبض بكفها على كمية من الأعشاب التي تؤمن بقدرتها على الشفاء، في حين أطلَّ القلق من عيني نورسين وهي تمسك بيده في حنوٍّ وتمسح برفقٍ حبَّات العرق التي تتلألأ على جبهته كل برهة..

نظر لها الحسن مليًّا بنصف عين مفتوحة بالكاد، كان قلبه يفيض عشقًا لها، وتسري محبتها في عروقه بنفس قدر دمائه.. تقلَّب على طاولة المغطس وصورتها تداعب مخيلته في حنان، لم يعد يرى سوى عينيها الواسعتين، فأغمض عينيه أكثر حتى لا يرى سواها، وراح يناجيها في خاطره، تهمس شفتاه باسمها ويخفق قلبه أكثر مع لمسات يديها الحانيتين على خصلات شعره.. وعلى مقربة من هذا الجمع، كان وساف نافد الصبر

يـروح ويجيء كالنحلة قرب باب الحمَّـام؛ ليراقب الطريق ويتأكد من أن الحـارس ما زال جالسًـا مع صالح بعيدًا عنهـم، يتجاذبان أطراف حديث يختلـط بدوائر الدخان الكثيفـة الصاعدة من النارجيلة التـي أمامهما، ثم يعود ليحثهم على الإسـراع حتى يرحلوا قبل أن ينكشـف أمرهم ويعيدوا الحسن إلى دار سيف الدولة قبل قدوم كمال الدين إليها..

***

عرج موكب كمال سـيف الدولة على خفرة الجمالية، أحد أقسـام القاهرة الثمانية التي أنشأها ليسهل السيطرة عليها ومراقبتها، بعد أن أبلغه العسس بجريمة شقيقة إبراهيم بك الكبير حاكم القاهرة التي قتلت إحدى جواريهـا في أثنـاء تأديبها، بعد أن قامت بكيها فـي موضع العفة عقابًا لها على سرقة قرط ذهبي من شكمجيتها، فلم تتحمل الجارية الألم ولفظت أنفاسـها، فألقت السـيدة بجثة الجارية عارية مشوهة على قارعة الطريق، عندئـذ تجمهر الأهالي مطالبين بالقصـاص، وحاصروا قصر إبراهيم بك مهدديـن باقتحامـه إذا ما تراخى عسـاكر الخفرة في القبض على شـقيقته لتنال عقابها..

أخـذ كمال الدين قـوات إضافية، ثم خرج وسـطهم مخاطبًا الجموع الغاضبـة بصوتـه الجهـوري: «اهـدأوا واسـمعوا.. لن يفلت أحـد في بر المحروسـة كلهـا من العقـاب ولو بعد حيـن.. أنتم على حـق ولن يغفل لنـا جفن أو نسـتلقي على جنوبنا نيامًا طلبًـا للراحة إلا بعد أن نقتصَّ لكم مـن المجرمين».. علـت الهتافات بأن الله أكبر، ثم بالقصاص على وتيرة

متكررة.. كان بعضهم يصفق بارتياب لكن ابتسامة ثقة مصطنعة رسمها بدقة كمال الدين على شفتيه بدَّدت شكوكهم في مصداقيته، فانتظم تصفيقهم وراح يعلو تدريجًا، فامتطى جواده وهو يلوِّح لهم مودعًا في طريقه إلى قصر إبراهيم بك الكبير، معلنًا أنه سينفذ القانون ولو كلَّفه ذلك فقد منصبه، قائلًا بنبرة مسرحية: «لم يعد لي خيار آخر، وأنتم شهود على ما أقول الآن»..

غادر الركب مخلفًا غبرة كبيرة خلفه ابتلعت الجمع الغاضب حتى تفرَّق وبقيت في الذاكرة روايات عن عدل المماليك تنسج ببراعة من خيوط الوهم على ألسنة المنادين والجوقة من المنافقين.

- رُبَّ ضارَّة نافعة!

قالها كمال بعد أن دخل إلى جناحه في الدار وهو يخلع رداءه الأزرق الزاهي من على كتفيه، ثم نزع عمامته الكتانية الضخمة برفقٍ مخاطبًا زوجته وردشان بعد أن روى لها كيف فضَّ الحشود المتجمهرة حول قصر إبراهيم بك، وكيف أقنعه بأن يُسلِّم شقيقته المتهمة بقتل جاريتها متباهيًا بقدرته على حلِّ المستعصي من المشكلات التي قد تبدو مستحيلة للآخرين من أقرانه، فلما زادت حيرتها واستعصى عليها الفهم أبلغها بما ينوي عمله حتى استغرقتها الدهشة تمامًا من تفكيره الشيطاني.. ولمعت عيناها ببريق غريب، ثم تهلَّل وجهها أكثر عندما فتح صندوق العملات الذهبية أمامها في تفاخرٍ، مغلقًا إيَّاه بإحكامٍ، وفي سرعة حتى لا تمد عيناها أكثر فتستطيل يداها إليه كعادتها، تركها متعجلًا وهو يضع قدميه

في نعلين من الجلد متوجِّهًا إلى جناح الحسن، دفع باب الحجرة المؤدي إلـى ممرٍّ طويـلٍ يفصل بين جناحه وجنـاح أخيه، فارتطم بالعبد وسـاف الذي كان يسـترق السـمع خلفه، فتكوَّم تحت قدمي كمال الدين، أمسك بتلابيبـه وهـو يسـبُّه لتنصُّته عليه مهـددًا إياه بقطـع رقبتـه، والعبد الأبكم يصرخ فزعًا بأنَّاتٍ متقطعةٍ متوسلًا..

ظـلَّ كمـال يسـأله عمَّا سـمعه وهـو يجيبه بإشـارات وأصـوات غير مفهومـة حتى هزمه الضجر وراح الانتقام يقترب من عقله ليزيح مشـاعر الرحمـة والغفران وينحيها جانبًا، تمهَّل قليـلًا كمن لفت نظره أمر ما، ثم تفرَّس في وجه وسـاف مليًّا لفترة طالت حتى لمعت عيناه، وخاطبه وهو يخفِّـف من وطـأة قبضته على جلبابـه: «لم أكن أعرف أنك تشـبهني إلى حـدٍّ كبيـرٍ هكذا».. قالها كمال وأنيابه تظهر ببطءٍ مع اتسـاع ابتسـامته، ثم نادى على صالح بأعلى صوته وأمره بأن يسـتدعي اثنين من حرَّاس الدار التابعين له ليتحفَّظا على وسـاف في الإسطبل الملحق بالدار لحين البت في أمره، فلما حضرا أشار لهما بعينه ناحيته وهو يردف بنبرة حادة: «اذهبا بعد ذلك إلى مسـجد الحسـين وأخبرا المجذوبة حليمة أن أخي الحسن مريـض مرض مـوتٍ ويرغب في رؤيتها لمـرة أخيرة..!»، ثـم توجَّه إلى جناح أخيه وهو يتحسَّس خنجره.

***

لـم يكد خسـرو باشـا يسـتقر على كرسـي العـرش مـرَّة أخرى في حمايـة قوات محمد علي وكتيبة غيـر مكتملة من الجيش العثماني، حتى

أمـر كبير الطهاة بإعداد وليمة تكفي لألف شـخص مـن أنصاره، بالغ في طلـب أصنـاف الطعـام وكأنه لم يذق اللحـم منذ زمن بعيـد، وأصدر في ذات اليوم مرسـومًا بفرض ضرائب جديدة علـى الأُورُبيين المقيمين في القاهرة والجيزة والإسـكندرية، واسـتدعى رجائي أفندي الدفتردار طالبًا منـه تنفيذهـا بأثرٍ رجعي، محتسـبًا أيام خلعه عن عـرش مصر، ثم أضاف فـي مكرٍ مفضوح: «ولكن اسـتعِن برجال محمد علـي لحمايتك في أثناء جبايتهـا.. لا تُقحم رجالنا أبدًا في هذا الأمر».. بعدها أردف وهو يبتسـم في بلاهة: «لقد آن لهذا البلد أن يسـتقر علـى أيدينا، والله اصطفانا، وهو غالب على أمره»..

أمضى خسرو باشا ثلاثة أيام بلياليها في دار الحكم بالقلعة، أنفقها في الطعام والشراب وإصدار مراسـيم بأربع ضرائب جديدة من بينها ضريبة على السـير بدابة في شـوارع المحروسـة الرئيسـية، وأخرى إضافية على الأقباط وإلزامهم بارتداء عمامة سوداء تميزهم عن المسلمين، وإلا نتفت حواجبهم جزاء مخالفة الأمر، وجلب إلى مطبخه في يومين مئة خروف، ومثلهـا من الحملان، وأكثر من خمسـمئة إِوَزَّة، وألـف دجاجة، هذا غير مئة كيس كبير من الحلوى، وأصدر مرسومًا في الساعات الأخيرة لحكمه يُلزم حاكم أسـيوط بتوريد خمسين ألف تفاحة كل موسم زراعي، ولكن القدر كان رحيمًا بموارد المحروسة وأهلها، وبصحته أيضًا، بعد أن آلمته معدته عقب مرور أربعين ساعة فقط على توليه مقاليد الحكم مرة أخرى، ولـم يفلح الطبيب في مداواة شراهته إلا بنهيه عن تناول الطعام..

وفي حين كان محمد علي وقواته يطاردون البرديسي وفلوله في كل مكان حتى فرَّ منهم هاربًا يائسًا إلى منفلوط، أقصى الجنوب، وتوارى عن الأنظار مرة أخرى، كانت بقية قوات المماليك تشتبك بالتوازي كل حين مع الجيش العثماني، فتُكبِّده خسائر فادحة، وتستولي على أسلحته وعتاده، بعد أن تمرد عساكره على قواته لضعفهم وانشغالهم بأمور اللهو عن التخطيط العسكري، كان المماليك يهدفون بغاراتهم تلك إلى إضعاف شوكة الجزايرلي باشا قبل أن يستوي على عرش مصر لكرهه لهم وخوفهم من بطشه، لكن في كل مرة كانت قوات المماليك تفاجأ بعد انتصاراتها بقوات من الأرناؤوط بقيادة محمد علي تغير عليهم من الخلف وتطاردهم بشراسة، وتعود محمَّلة ببعض المدافع والبنادق التي كانوا قد غنموها من العثمانيين.. بدا الأمر أشبه بمشهدٍ عبثي، وكأن السلاح والعتاد يتناوب استخدامه بين الجيوش الثلاثة على التوالي.. حتى يستقر في حيازة قوات محمد علي..!

وصل علي باشا الجزايرلي إلى أبي قير مع رجاله، لكن الباب العالي تلكَّأ في إعلان مرسوم تنصيبه رسميًّا بنصيحة من القنصل دي روسيتي، الذي أشار عليهم بتعيين خورشيد باشا حاكم الإسكندرية بدلًا منه على سندٍ من شعبيته، لكن تدخل الإنجليز رجَّح كفة الجزايرلي، فاستغرق الأمر أربعين ساعة أخرى متصلة من المفاوضات، بعدها تم عزل خسرو باشا المنشغل بطعامه وشرابه على مدار ثلاث ليالٍ، وبدأت مراسم ترحيله إلى الآستانة عبر حيفا على متن أول سفينة مغادرة في هدوء شديد، واستغل محمد علي الأمر لصالحه بعد أن نجح في تلك الفترة

القصيرة في استمالة الآلاف من الموالين لخسرو باشا وصاروا من رجاله الأوفياء، بعد أن ظنوا أنه مؤيد لبقائه عندما أعاده لحكم مصر بضع أيام، فتحقَّق له ما أراد..!

.. لم يلقَ علي باشا الجزايرلي شعبية من أي طرف، فلا تحمَّس له محمد علي الذي انشغل بتذمُّر قواته بعد أن بلغ تأخُّر رواتبهم مداه، ولا أحبه المصريون لغطرسته وتكبُّره، أما بكوات المماليك فقد طالبوا الباب العالي بالعفو عنهم والسماح لهم بالبقاء في مناصبهم لما بلغهم من أن علي باشا الجزايرلي ينوي الخلاص منهم وقتالهم، فأخذوا حذرهم وأعدوا عدَّتهم، وبوساطة من القنصل الإنجليزي وصلهم خطاب مطمئن بخط شريف من السلطان العثماني يوافق فيه على العفو عنهم والبقاء في مصر، ولكنه بناءً على نصيحة من قنصل فرنسا والقنصل دي روسيتي حرمهم في الوقت نفسه من إيراد الخراج والضرائب، وفرض عليهم قيودًا كثيرة في التنقُّل و تقلُّد المناصب العليا..

اجتمع البكوات وأمراء المماليك بقصر إبراهيم بك الكبير في قلب القاهرة قرب الفجر، وظلوا يتناقشون حتى أدركهم الصباح، وكانوا قد انتهوا إلى أمر اتفقوا فيه على قلب رجل واحد، فكتبوا خطابًا لعلي باشا الجزايرلي كي يدخل القاهرة ويستقر بدار الحكم بالقلعة بدلًا من بقائه في الإسكندرية في حماية خورشيد باشا الذي أظهر له الولاء مؤقتًا بالاتفاق مع محمد علي ووعدوه بالأمان وعدم القتال، استجاب الجزايرلي للمماليك، لكنه خطَّط مع رجاله الذين تعدوا الألفين من

المسـلحين بأن يقضـي عليهم قبل أن ينام ليلته الأولـى في القلعة، كانت المفاجأة التي يعدها لهم ينسـج خيوطها بإحكام نائب المحتسـب كمال سـيف الدولـة، كان هو بصَّاصـه الخفي الـذي يمده بالأخبـار من خلال الجواسـيس والعسس التابعين له، والذين اشتراهم بالذهب والفضة التي استولي عليها من الدفتردار، وظلَّ يعاون الجزايرلي في الخفاء ليُمكِّنه من الوثوب على عـرش مصر؛ ليضمن بقاءه في منصبه الذي بات مهددًا بعد انكشاف أمر أخيه الحسن، فخشي غدر البكوات به حتى ولو قتل الحسن تنفيذًا لأوامر المحتسب، وراح يبحث عن حلول جديدة حتى دلَّه شيطانه عليها، أن يدعوهم لوليمة بالقلعة للمصالحة ثم يقتلهم بالرصاص.. لكن أتت الرياح بما لا تشـتهي السفن، فقد تنبَّه المماليك لمخطط الجزايرلي وأفشلوه بأن قلَّصوا رجاله وعتاده بحجة تأمينه بمعرفتهم في أثناء إبحاره مـن الإسـكندرية إلى القاهـرة، بعد أن أقنعوه من خلال جواسيسـهم بألا يضع البيض كله في سلة واحدة، فاستجاب أملًا في بلوغ القلعة بأي ثمن لتدبيـر المذبحـة لهم، فلما بلـغ كمال الدين الأمـر وأدرك ضعف موقف الجزايرلي باشـا وسـوء تصرُّفه، أعاد رفع شراع قوارب مطامعه في اتجاه الريـح، ونقـل أخبـار الجزايرلـي وتفاصيل المذبحـة المنتظـرة لبكوات المماليك، ووشـى بـه وأبلغهم بالمؤامرة المرتقبـة للخلاص منهم، فنال رضاهم مؤقتًا واسـتخدموه جسـرًا لكـي يعبر الجزايرلي عليـه إلى نهايته بسهولة..

قبل أن يُدرك موكب علي باشا الجزايرلي حدود القاهرة، كان بكوات المماليـك قـد أطبقوا عليه وقاتلـوا رجاله فهزموهم، ثم أسـروه وحملوه

علـى الخروج من المحروسـة كلها في طريقه إلى حيفـا، وبعدها بيومين قتله أحد حرَّاسـه على السفينة بخنجرٍ مسـموم، وألقى جثته في الماء بناءً على وشاية من كمال الدين مصحوبة بمئة كيسٍ من ريالات الفضة ليسهل تنفيذهـا ولا يفتضـح أمـر خيانته للمماليك، فدفن سـره معه واسـتقر في أعماق البحر.. ولما عاد الحارس إلى كمال الدين يبلغه بقتل الجزايرلي، اعتقله بسـجن العرقانة، ولـم تمضِ سـاعات طويلة حتـى كان جلهوم قد قطع رأس الحارس وألقى به للذئاب في صحراء الريدانية قرب القلعة..

على مقربة من ذلك المكان كان محمد علي، الذي لم يفارق قصره منذ أيام، يتابع عن كثب تحرُّكات المماليك، وزحف الجزايرلي نحو القاهرة، وكلما سـأله قادة جيشـه عن موقفهم يكتفي بابتسـامة ثقة خفيفة لا تسمن ولا تغني من جوع الفضول، فلما لاحت بوادر تذمُّر من عسـاكره خشـية دخولهم معركة غير متكافئة مع عسكر الجزايرلي، جمع محمد علي قادة الجيش فـي صالون قصره، اتكأ كعادته مائلًا علـى أريكته وتحدَّث قليلًا لبثِّ الطمأنينة في عقولهم، ثم سخر من الوالي الجديد وما فعله به الباب العالي عندما أصدر مرسـومًا بتعيينه، ولكن لم يعلنه، فوصفه بأنه الوحيد الذي حكم المحروسة من داره ولم يجلس على عرشها، ثم أردف قائلًا: «الجزايرلي سـبق له حكم مصر، ولكن مـن الآن فصاعدًا لن يحكم أحد هذا البلد مرتين.. فمَن خرج لن يعود»..

رجع لاظوغلي كبير قوَّاده بظهره في مقعده قائلًا بقلقٍ: «قواتنا أُنهكت ولا يمكننا فتح جبهات جديدة وعلينا أن نختار جانبًا من الجانبين لنقاتل في صفوفه مثلما نفعل دومًا»..

ابتسم محمد علي ابتسامته الثعلبية قائلًا: «لن ننحاز للوالي الجديد أيًا كان، ولن نقاتل خلف صفوف قوات مماليك الألفي».

اعتدل لاظوغلي في جلسته وهو يتساءل: «وماذا نحن فاعلون إذن؟»

ألقى محمد علي بقطعتين كبيرتين من الحطب في قلب المدفأة فاستعرت نيرانها بشدة وتطاير شررها قليلًا فانتفض كبير قواده وراح يبتعد عنها بمقعده اتقاءً لصهدها، وهنا فرد محمد علي ساقيه أمامه قائلًا بثقة وابتسامته تتسع: «هذا بالضبط ما سنفعله، سنبتعد ونراقب حتى تأكلهما النيران سويًّا، نحن الآن في استراحة محارب ولا شيء غير ذلك».

ما إن اقتحم كمال الدين جناح أخيه ووقع بصره على نجله الصغير ناجي قابعًا بالقرب من الحسن كعادته حتى صفعه بشدة على وجهه وهو يطرده منها، ثم اقترب من الحسن الذي كان لا يزال نائمًا، فلكزه بقدمه في جانبه لينتفض مذعورًا من مرقده.. ظلَّ يدور حوله حتى أصابه بدوارٍ خفيفٍ، بعدها انحنى كمال الدين على إحدى ركبتيه قائلًا بنبرة لا تحتمل القسمة على اثنين: «قلت لك من قبل إنني أعرض عليك الأمان والاستقرار لكنك اخترت طريق التمرد، وقد تركتك تسير فيه، أما وقد بلغت نهايته ولم يعد لك خيار فاسمعني جيدًا، أنت الآن ميت في نظر أولي الأمر، والأولى بك أن تختفي»..

لم يرد الحسن كعادته، ولم يعِ جيدًا مقصد أخيه، وظلَّ ينتظر كلمة النهاية..

انتصب كمال وعاد يدور حوله مرة أخرى وهو يقصُّ على مسامعه ما دار بينه وبين المحتسب وكبير البصاصين، ثم اقترب هامسًا: «رغم أنني أستطيع قتلك الآن بكل سهولة، لكنني سأفتح لك باب الخروج وسأتركك تهرب من مصر.. اذهب إلى أي مكان في المحروسة لتقضي ما تبقَّى لك من أيام، اختفِ عن الأنظار حتى تموت.. صدِّقني أنا أعمل لصالحك تلك المرة، ولو لا أن أمك قد أوصتني بك لكنت

صمت ولم يقل كلمته الأخيرة، وظل يحملق في وجه الحسن منتظرًا ردَّه، فخرج صوت أخيه واهنًا من بين ضلوعه بسبب جروحه: «ولماذا لا تقتلني الآن وتريحني وتستريح؟ الفرصة مواتية أكثر من أي وقت مضى، والأسباب مقنعة للجميع، حتى أمي ستصدقك، فما أكثر مؤامرات القاهرة هذه الأيام»..

حكَّ كمال الدين أنفه وهو يبتسم في استفزاز ومكر قائلًا بريبةٍ: «ما دمت تتحدث هكذا بالمكشوف فاسمعني جيدًا أيها الشاطر، للأسف ربما يفلح قائدك محمد علي يومًا ما، وقد يزيح المماليك عن المحروسة، ووقتها لا أريد أن أكون مملوكًا شاردًا، ولكن ...»، لم يكمل كمال الدين كلامه تلك المرة أيضًا، وظل يتفرَّس في وجه أخيه مليًّا وكأنه يستشرف مستقبله..

نهض الحسن بتكاسلٍ، ثم قال بنبرةٍ خافتةٍ: «لا بأس.. اعتبرني ميت من الآن.. سأترك الدار، بل والمحروسة كلها، ولكن أمهلني سبعة أيام أرتب فيها أموري، وسأرحل بعدها للأبد».

«سبعة أيام فقط، وفي اليوم الثامن لو ظفر بك رجالي فسيفصلون رأسك عن جسدك، ووقتها سأكون أنا في حِلٍّ من دمك!»

ثم اقترب كمال منه أكثر حتى كاد أنفاهما يتلاصقان، وهو يقول: «إذا ما راوغتني كعادتك فلن أمهلك وقتًا حتى لتلتقط أنفاسك، سأقتلك قبل أن يخرج زفيرك من صدرك.. اتفقنا؟»

قبل أن يرد الحسن، كان كمال الدين يغادر الحجرة ململمًا عباءته الواسعة، وهو ينوب عنه في الرد بثقةٍ: «اتفقنا».

***

لم يكد يبلغ أبواب القلعة حتى كان بعض رجاله يهرولون ناحيته ليخبروه بأن المحتسب يبحث عنه منذ فترة ويريده في أمر مهم، التفت كمال سيف الدولة بعينيه بحثًا عن زهير، فارسه الأقرب إليه، حتى لمحه من بعيد يعطي أوامره لسائسي الإسطبل، فتوجَّه ناحيته على ظهر حصانه مشيرًا لرجاله بألا يتبعوه.. انتبه زهير لوجوده فاقترب منه ممسكًا بلجام جواده وهو ينتظر أوامره بعينين منتبهتين كعادته..

- هل أحضر رجالك المجذوبة حليمة كما أمرت؟

- نعم يا سيدي، ووضعناها مع بعض النسوة السجينات في سجن العرقانة..

امتعض وجه كمال الدين قليلًا، ثم جذب اللجام بشدة قائلًا: «لا داعي لذلك، أحضروها إلى قاعتي بعد قليل»، سكت برهة وهو يتفرس في وجه زهير، ثم سأله بصوت خفيض، مترددٍ: «أين كنت أمس؟ بحثت عنك في كل مكان»، ارتبك زهير قليلًا، ثم قال: «لا شيء، مجرد وعكة بسيطة ألمت بي فلزمت داري طوال اليوم».. زام كمال عاقدًا حاجبيه في شك: «ولكنني أرسلت بعض رجالي لدارك فقالوا إنك لم تبت حتى بها!»، رد زهير بثقة: «أصابتني الوعكة في دار أبي فأمضيت الليل عنده».. مطَّ كمال الدين شفتيه قائلًا: «عظيم أنك ذكَّرتني بأبيك، تلك فرصة طيبة كي أزوره قريبًا».. قال عبارته ولم ينتظر ردًّا وانطلق ناحية الطرف الآخر من القلعة حيث تقبع قاعة المحتسب، فلما بلغها ودخل عليه وجد بصحبته القاضي عثمان ركن الدين، وقد بدا مضطربًا، فرمقه كمال الدين بنظرةٍ باردةٍ كعادته، ولم يحيِّه، بل مثل بين يدي قائده متصنعًا الخنوع..

اعتدل المحتسب في جلسته متحدثًا بنبرة وعيد لا تخطئها أذن: «يبدو أنك لا تكترث كثيرًا لحياتك، إذا كانت تشكِّل عبئًا عليك فقل لنا لنخلِّصك منها فورًا ونريحك للأبد

كانت الكلمات تخرج من بين شفتي الرجل مثقلة بالتهديد، ومغلفة بسخرية قاسية، إلا أن كمال الدين ظلَّ على ثباته وهو يرمق القاضي

بـذات النظـرة كل برهـة، ثـم كال الكثيـر من المديـح المشـوب بالتملق للمحتسـب، بعدها انحنى بـأدب جمٍّ طالبًا الإذن لأحـد رجاله بالدخول فأذن له، صفَّق كمال الدين مرتين، ثم اختلس نظرة لكفِّه اليسرى طمأنته، بعدها دخل القاعة فارس مملوكي يحمل جوالًا من الخيش سلَّمه لكمال الديـن الـذي ظلَّ يعبث بفتحتـه المعقودة بالدوبار الغليظ بتباطؤ شـديدٍ، وعيون القاضي والمحتسـب تتعلَّقان بكفيه في لهفةٍ ممزوجةٍ بالدهشـة، بينما لاحت ابتسامة مريبة على أطراف شفتيه وهو يجز بأسنانه في عصبية فاتحًـا الجـوال فجأة مثل الحـاوي، انتظر برهـة، بعدها قلبـه وفوهته في اتجاههمـا ليتدحـرج رأس مغمض العينيـن، منقبض عنـد الفكين، حتى اسـتقر بيـن قدمي القاضـي، فانتفض مذعـورًا وهو يحوقل بصـوتٍ عالٍ وسـط ضحكاتٍ خافتةٍ من كمال الدين، ونظرةٍ متوجِّسـةٍ من المحتسـب الـذي لم يحرِّك سـاكنًا مكتفيًا برفع حاجبه في دهشـة، متسـائلًا بنبرة مَن ينتظر إجابة معينة تجول في ذهنه:

- لمن يكون هذا الرأس؟

- هذا رأس أخي المارق، الخائن...

ثم مضيفًا بصوتٍ رخيمٍ:

- المرحـوم الشـاطر حسـن كمـا لقَّبتمـوه، أنـا وعـدت فأوفيـت يـا مولانا..

تفحَّصـه المحتسـب بنظرةٍ متشـككةٍ قليلًا، ثم هزَّ رأسـه وهـو يتأمَّل الرأس للمرة الأخيرة وقد لاحظ الشبه الكبير بينه وبين كمال الدين، وأمر

أحد رجاله بإلقائه في الخارج، ثم التفت إلى كمال وكأن شيئًا لم يكن قائلًا:

- لماذا قبضت على شقيقة إبراهيم بك الكبير؟ وكيف جرؤت على عدم إبلاغي أولًا؟

- تلعثم كمال وابتلع ريقه مرتين قبل أن يرد وهو ينتقي كلماته بعناية:

ولكنها تلقى منَّا كل رعاية يا مولانا، فهي هنا في القلعة معزَّزة مكرَّمة، تقيم في قاعة خاصة تطل على حديقة صغيرة، ولا تنسَ يا سيدي أنها لم تترك لنا أي فرصة لمعاونتها، فمنذ اللحظة الأولى أعلنت على الملأ أنها قتلت جاريتها وألقت بجثمانها أمام الدار لتردع الباقين، ولم تمسح دليلًا وراءها أو تترك لنا ثغرة ننفذ منها لتبرئتها، ولكن أنا شخصيًّا أقوم بـ...

لاحت نظرة غضب بعيني المحتسب وهو يقاطعه بدوره رافعًا من صوته:

- ولكنها كانت حبيسة، وهي شقيقة أحد كبار البكوات الذي كان حتى سنوات قريبة يقتسم السلطة مع مراد بك، ولولا الفرنسيس لكان لا يزال يحكم المحروسة كلها.. أم نسيت؟

قبل أن يجيبه كمال استرسل الرجل وكأنه لا ينتظر إجابة:

- ثم إن القتيلة مصرية، مجرد جارية عندها، ولقد أخطأت فأدَّبتها سيدتها، هذه ليست نهاية الدنيا، ويكفي أن يحصل أهلها على دية، هكذا أفتى القاضي عثمان ركن الدين، إذن هذا هو حكم الشرع، وقد طبَّقناه..

قبل أن يشـرع كمال في الرد، كان القاضي يسارع بهزٍّ رأسه بالإيجاب مرتين، بعدها أردف المحتسب بحسمٍ:

– أنـا أمرت بإطلاق سـراحها أمس، وسـلّمناها لزوجهـا قرب الفجر حتى لا تراها الأعين، وعليك أن تنهي الأمر في طي الكتمان، فأنا لا أريد أن يبدأ الوالي الجديد عهده بتعليق رأسـك على باب زويلة لتقصيرك في عملـك، أمامك يومان لتقنع أهـل القتيلة وجيرانها بالجمالية بأن شـقيقة إبراهيـم بـك لم تكن تقصد قتلهـا، أو أن الجارية لصـة أثيمة، وعليهم أن يتقبَّلوا ما سـوف يجود به إبراهيم بك عليهم من دية.. يمكنك الانصراف الآن..

أحنى كمال رأسـه وهو يعقد كفيه عند صدره رافعًا عينيه فقط متحدثًا باستكانة:

– اطمئن يا مولانا، سأنفذ أمرك بحذافيره، ولكنني أخشى أن يغدر بي كبير البصاصين وكنت أود أن أذكرك بـوعدك لي وأن...

بتر المحتسب حديثه بابتسامةٍ محرضةٍ:

– لـم يعد لدينا كبير بصاصين بعد اليوم، لقد أصبح المنصب شـاغرًا منـذ أن أتيـت لنا برأس الشـاطر حسـن ضعـه مع رأس أخيـك في قبر واحد!

رقص قلب كمال الدين طربًا، وهو يردِّد مغادرًا بظهره:

- سمعًا وطاعة يا سيدي.. سمعًا وطاعة..

وظل يرددها تباعًا وهو يفرد ذراعيه أمامه باسطًا كفيه، ثم رفعهما قرب جبهته وكأنه ينهل من بركة سيده ليضعها تاجًا على رأسه يزينه به، فلما بلغ قاعته نادى على جلهوم ليأمره بتنفيذ أمر المحتسب بدفن كبير البصاصين حيًّا.

***

8
جواد جامع

ارتدت السماء ثوبها الفضي الداكن كعادتها وقت الغروب إذا ما التقت مصادفة بالقمر المكتمل، ووقف الحسن أسفل المشربية الكبرى لجناح الحريم منتظرًا إطلالة منها، متأملًا الأحجار الجيرية الضخمة التي شُيد بها البيت وهي متراصَّة فوق بعضها في نظامٍ بديعٍ، وسرح بخياله في البنَّائين وهم يتخيَّلون شكل تلك الدار قبل تشييدها، ويرسمونها في مخيلتهم فيحسنون تصويرها حتى تجلَّت بهذا الرونق بعد تمام بنائها، لاح له خيال نورسين واقفة خلف المشربية تتأمله في سكون، كان لا يرى منها سوى عينيها بصعوبة من بين الفتحات الخشبية الصغيرة، فأشار لها بيده بأن ترفع البرقع قليلًا بعد أن رآها بوجدانه، شعر بابتسامتها لما لمح ضيق عينيها، أزاحت اليشمك فتجلى له وجهها الصبوح، ارتاحت ملامحه وأنار وجهه من طلَّة محياها وهو ينظر إليها بعينين يتدفق منهما الشوق كفيضان النهر.. تهلَّل وجهها وتنهَّدت في حبور وكأنها تطرد الحزن اللصيق بروحها للأبد.. أشار لها كي تهبط إليه فنظرت خلفها مرتين وهي حائرة خائفة.. ظل يحفزها بعينيه الواسعتين وابتسامته المشجعة..

تباعدت شفتاها هامسة: «أنا لا زلت جارية»..

وقتها خُيِّل لها أنه يبادلها الحديث بهمسٍ نابعٍ من أعماقه، لكنه يجلجل في أذنيها ويكاد يرجُّ جنبات الدار.. لا بل جنبات المحروسة كلها: «أنا مَن خلَّصكِ من عبوديتكِ، أنا مَن أحضرك إلى هنا.. أنا مَن أحبك بصدقٍ وسأظل للأبد.. وروحي ستكون قربانًا لبقائكِ.. لن تكوني جارية بعد اليوم.. ستحصلين على حريتك ونتزوج»..

كان يضم كفيه على مقدمة صدره ونظراته تتضرَّع لها في رجاء.. وضعت اليشمك وتحرَّكت وهي تبتسم له ابتسامة مطمئنة بأنها آتية، وراحت تنسحب للوراء ببطءٍ حتى غابت عن نظره مثلما تذوب الشمس في البحر بملحمة الغروب.. أطرق الحسن برأسه متنهدًا، ثم عبث بخصلات شعره الفاحم التي تهدَّلت على جبهته، وشرد بعيدًا في انتظار شروق جديد.. قادته قدماه نحو المرسى وجلس يتأمل قاربه الخشبي وهو يتأرجح على صفحة النهر.. أخرجه من شروده أنين خافت تنامى إلى سمعه وبدا قريبًا منه، التفت يبحث عن مصدره فلم يهتدِ إليه، ظل يفتش حتى أعيته الحيرة والصوت يباغته كل فينة وأخرى، هبَّ واقفًا يتلفت حوله إلى أن لمح خلف الحشائش العالية حركة خافتة فاقترب بحذر من مصدر الصوت، لم يكن سوى الصغير ناجي يلصق ظهره بجدار السور، ويضم ركبتيه إلى صدره بشدة كأنه يرتجف بردًا، كان وجهه باكيًا حزينًا، وأمارات فزع تزيد عينيه الصغيرتين اتساعًا..

سـألـه الحسـن عمَّـا ألـم به فلـم يجبه، وبعـد جهد جهيد نطـق الصبي بعبـارة واحـدة غير مكتملة: «الســت حليمة».. ثم انفجـر بعدها في بكاءٍ شـديدٍ أقرب إلى النحيب، حتى هدأ، فروى للحسـن ما فهمه من وساف منـذ يوميـن وهـو يرتعد خوفـا، ثم راح يجهـش بالبكاء مـرة أخرى حتى أنهكـه التعـب فنام علـى صدر عمِّه وقد سـكنت ملامحـه كأنها ارتاحت مـن همٍّ ثقيلٍ يجثم عليها، وظلت خيوط دموعه تنسـاب على خديه حتى جفت تمامًا.. بينما راح القلق ينهش عقل الحسـن بشراسـة فوجد نفسـه يقـول بصوتٍ عـالٍ: «لا لا يمكـن أن يفعلها».. ثم هزَّ رأسـه نافيًا كمن يطـرد الفكـرة منـه، بعدها نهض متحاملًا على نفسـه بسـبب إصابته وهو يحمـل الصبي النائم بصعوبةٍ عائـدًا إلى حجرته والهواجس تفترس عقله بلا هوادة، وذهنه مشـتت لاختفاء وسـاف، فأسـرع من خطاه وهو يسابق الزمن حتى لا يترك كل ما لم يدركه.

خـرج القنصل دي روسـيتي مـن دار محمد علي بعـد اجتماع طويل معـه لبحث أمر التعامل مع بكوات المماليك في الفترة المقبلة بعد ورود أنباء عـن اتجاههم لمحاصرة القاهرة والجيزة وبنها في آنٍ واحدٍ، بعد أن ارتفعت معنوياتهم إلى عنان السماء عقب الخلاص من الجزايرلي باشا، كانت عينا القنصل مندهشـتين من حجم القوات الحربية المحيطة بالدار الكبيرة وملحقاتها من إسطبلات ومخيمات للجنود التي تطل على ميدان واسـع محاط بالنخيل فـي قلب القاهرة على مقربة مـن النيل، لفت نظره

زيادة عدد المدافع أمامها وخلفها إلى ستة، إحداها يُطلق باستمرار على مدار اليوم وكأنه أسد يزأر من بعيدٍ، فلا يجرؤ أحد على الاقتراب من منطقة نفوذه، هرع دي روسيتي مسرعًا إلى بيت القنصل الإنجليزي للقائه صحبة قنصل فرنسا قبل أن يكتب برقيته الدورية بأوضاع مصر السياسية، ما إن دخل عليهما حتى بادراه بالسؤال عن حجم قوات محمد علي ومعنويات جنوده ونواياه تجاه الأورُبيين والمماليك، ورغم إجابات دي روسيتي المستفيضة والتي رسمت علامات الارتياح على وجه قنصل فرنسا، إلا أن القنصل الإنجليزي كان حريصًا على سؤاله بأكثر من صيغة عن موقفه من المماليك، فلما استخلص من حديثه أن محمد علي ينوي قتالهم مرة ثالثة، امتعض وجهه وانقلبت سحنته غاضبة، ثم أفرغ قليلًا من شراب المارتيني المخفف بالماء في جوفه ملتفتًا إليهما والشرر يتطاير من عينيه: «لا بد وأن نتخذ موقفًا موحدًا ضد هذا الرجل الآن، وإلا سيتحول في وقت قصير إلى جواد جامح لن يستطيع أحدنا أن يمتطيه».

بدا قنصل فرنسا غير مكترث بما يقوله نظيره الإنجليزي، فلم يكن متحمسًا لقتال محمد علي بكتيبة من الجنود الفرنسيس الذين تخلَّفوا في القاهرة وقت جلاء الحملة وأقاموا بها وتزوَّجوا من أهلها، وحتى لو أراد فلا سيطرة له عليهم، فقد صاروا أشبه بالمصريين وتطبعوا بطباعهم، كان يخطط لأبعد من ذلك عندما دوَّن في برقيته الأخيرة أن على حكومة فرنسا مساندة الجنرال محمد علي لضمان استقرار القاهرة..

راح دي روسيتي يفيض في الحديث عن قدرة محمد علي الحربية وحب المصريين البسطاء له مختتمًا: «وهؤلاء قوة لا يُستهان بها، وقد

شاهدتما بأعينكما ماذا يفعلون عندما يخرجون في جماعات ثائرين وكأن قوًى خفية تحركهم جميعًا في وقتٍ واحدٍ لذات الهدف، يجب علينا الاحتفاظ به كقائدٍ عسكري لجيش المحروسة».

أشاح القنصل الإنجليزي بيده مستهينًا وهو يردِّد بسخرية:

- أنا عرفت مَن تكون تلك القوة الخفية، فهؤلاء الحفاة يحرِّكهم المُعلم جرجس وآخر مصري مغامر بحياته فيما يبدو، اسمه الشاطر حسن..

- وردت أنباء مؤكدة أنه قد قُتل.. أليس هذا هو شقيق كمال سيف الدولة مسئول الأمن؟

ألقى دي روسيتي بسؤاله المفاجئ رافعًا حاجبًا واحدًا وهو ينقل بصره بينهما منتظرًا إجابة تؤكد ما يقوله متفاخرًا بمعلوماته.. أجابه القنصل الإنجليزي ببرودٍ لا يخلو من مكرٍ مستترٍ:

- بالفعل هو أخوه، لقد أصبت في ذلك، لكنه على قيد الحياة، وقد أرسلت له رسولًا للقائه اليوم، لست وحدك في هذا المضمار يا عزيزي..

أطلَّت الدهشة من وجه الرجلين لاستدعائه الحسن، فاسترسل قائلًا:

- إنها الورقة الأخيرة التي ألعب بها لنعيد المماليك إلى عرش البلاد، فما يحدث الآن في مصر لا يبشر بخير على مصالحنا، فهذا الألباني

المجنـون سـيقاتل المماليـك حتى آخـر جنـدي، والباب العالـي اكتفى بالعفـو عنهـم على أن يعيشـوا فـي بلدة أسـوان، وهي منطقـة صحراوية مقفرة، تنتشـر التماسـيح بنيلها، ولا ينبـت بها زرع أبـدًا، وهو وضع مزرٍ لا يمكنني قبوله على الإطلاق..

تجرَّع بعضًا من كأسه مردفًا:

- لقد تأكدت من نائب المحتسـب كمال سـيف الدولـة، وهو واحد ممَّن يتعاونون معنا بإخلاص، أن الشاطر حسن هو رجل المُعلم جرجس الأول فـي تثوير المصريين، وكان يقود كل حروب الشـوارع ضد جنودنا وضـد حلفائنـا مـن المماليك، ومـن قبلها لعـب دورًا فـي مقاومة حملة نابليون الفاشلة.. والعقل المدبر لكل ذلك هو محمد علي..

قال عبارته الأخيرة وعيناه تتابعان قنصل فرنسا الذي أبدى سخطه من وصف الحملة بالفشل، لم يكترث له القنصل الإنجليزي وتابع قائلًا:

- إن قتل الشـاطر حسـن أو نفيه لن يفيدنا كثيرًا، بل سيخرج لنا غيره، فقـد درَّب المئـات علـى القتـال، وهـم يحبونه، فـلا بد إذن من اسـتمالته لصفوفنـا.. لم يعد لدينا متسـع من الوقت، لو حل علينا أغسـطس القادم علـى هذا الوضع سـيكون الشـاطر حسـن قـد قتـل كل جنودنـا ورجال المماليك!

ثم أطلق ضحكة عالية مردفًا:

- فـرِّق تسُـد.. ليس أمامنا مخـرج آخر، لكن لا تقلقـا، فنحن نجحنا في اسـتمالة كمال سيف الدولة بسهولة، وبالتأكيد لن يستعصي علينا أمر أخيه..

همَّ قنصل فرنسا بالحديث فقاطعه قائلًا بحدَّةٍ:

- انتظـر! أنـا أعلم ما سـتقوله، لا تدافـع عن محمد علـي لمجرد أنه ينتوي تطبيق ما كان نابليون يريد أن يفعله في مصر، هذا أمر يدل على غباءٍ سياسـي شـديدٍ منكم، فالرجل لو نهض بهذا البلد لن يتركه أبدًا وسيحلو أكثر في عينيه، وسيظل يورِّث حكمه في أولاده وأحفاده.. تذكَّرا مصالحنا هنا في القاهرة، وكمِّ البضائع التي جلبناها وأتلفها الشـاطر حسن، تذكرا السـفن التجارية المعطَّلة في الإسـكندرية، التي منعها خورشـيد باشا من الإبحـار بإيعازٍ مـن الجنـرال محمد علي، بحجـة نقص المـواد الغذائية هنـاك، تذكرا أن المماليـك الآن لا يحصلون من الوسـايا والضرائب إلا على اثني عشـر ألف قرشٍ فقط سـنويًّا، ولـن يتعاونوا معنا بهـذه العطايا الضئيلة، فهذا المبلغ يكفيهم بالكاد، كما أن

قاطعه دي روسيتي وهو يضع يده على كتفه ليهدأ قليلًا:

- ولمـاذا نسـلُك كل هذه الطـرق الوعرة؟ لماذا لا نسـتميل الجنرال محمـد علي نفسـه إلى جانبنا؟ وأمامنا اثني عشـر شـهرًا حتى أغسـطس 1805 كما تتوقع..

اعتدل قنصل فرنسا في جلسته منصتًا باهتمامٍ، فأردف دي روسيتي:

- أعطـه كل ما يريد الآن من وعود وتطمينات، ولنتحمل جميعًا كُلفة سـلفة مالية للمماليك تخصم على الحكومـة المصرية من خلال جمرك بولاق أو الإسكندرية، ونستردها بعد عامٍ مضاعفة، ووقتها يكون المماليك قـد قويت شـوكتهم واطمـأن محمد عليٍ لنـا ولهم، فتفتر حماسـته قليلًا خاصة إذا ما عجز عن سداد رواتب جنوده بانتظام.. والمصريون كما تعلم لا يصلحون للقتال أو الأعمال الحربية، وضاقوا ذرعًا بالضرائب، والفقر يطحنهـم تحت رحاتـه، ولن يدفعوا له قرشًـا واحدًا لرواتـب جنده، كما أنهم كُسـالى لا يحبون العمل مثل حبهم للراحة، فلنحاربه بذات السلاح ليثوروا هم عليه.. ووقتها يكون أغسطس 1805 تاريخًا لاحتفالنا بالقضاء على محمد علي..

قبل أن ينطق أي منهما، أردف دي روسـيتي وهو يضغط على مخارج ألفاظه ويثبت عينيه على وجه قنصل إنجلترا:

- الأنباء الواردة صباح اليوم أتت بأخبار طيبة.. فقد نجح الألفي بك في الهروب من مدينة منوف رغم حصار رجال محمد علي لها، وهو في طريقه للقاء عسـاكره المماليك قرب حدائق بنهـا، ومن الممكن تجهيزه وإعداده في فترة وجيزة..

لاحت ابتسـامة استنكار خفيفة على وجه القنصل الإنجليزي، لكنها لـم تكـن كافية لتثنيـه عن رأيـه، وبدا من ملامحـه أن هـروب الألفي من الحصار تم بتدبير منه، بينما توجَّس قنصل فرنسـا خيفة إثر سـماعه بأنباء

هـروب الألفـي بك.. غلَّف ثلاثتهـم الصمت حتى قطعـه قنصل إنجلترا قائلًا بحسم مَن يتخذ قرارًا مصيريًّا:

- هـذا البلد يفيـض بالخير، ومن الغبـاء الاكتفاء بالفتات، سنسـاعد بجنودنا وأسـلحتنا الألفي بك من الآن فصاعدًا، ولا هدنة أو تفاوض مع محمـد علي؛ فهذا الرجل الذي كان يرتدي ثـوب قَسٍّ زاهدٍ وقت قدومه لمصـر، صار بعد سـنوات قليلة طاغية قاسـيًا، لن نفلح فـي خداعه أبدًا، وحان وقت تقليم أظافره الطويلة قبل أن تتحول إلى مخالب..

وضع القنصل الفرنسـي ساقًا فوق أخرى، باسطًا ذراعه للخادم ليملأ كأسه بالنبيذ الأبيض قائلًا:

- أنـا أميـل لرأي السـيد دي روسـيتي.. فلنُعـطِ محمد علـي فرصة، فهـو أفضل لنـا على المدى البعيد من المماليك، نعـم هذه البلاد مملوءة بالخيـرات، وهي كالبكر التي لم يمسسـها أحد، ولكـن المماليك أغبياء لا يهمهم سـوى شـهواتهم وبناء القصور واقتناء الجواري والمحظيات، تحركهـم دومًا غرائزهم بعـد أن عطَّلوا عقولهم.. أنا سـأقترح ذلك على جلالـة إمبراطـور فرنسـا، وأطلب منك رسـميًّا أن تتعاون معنـا.. وإذا ما فشل محمد علي فلن نخسر كثيرًا.

نظر القنصل الإنجليزي ببرودٍ إلى نظيره الفرنسي قائلًا في صلفٍ:

- لا تتحالـف مـع الذئاب أبدًا، هكذا تعلَّمنا قبل مجيئنا إلى الشـرق، ودعنـي أقلهـا لك واضحـة: لا تعاون فيمـا يهدد مصالح بـلادي أو يضر بها، أنا أدرى بمصر منكما، والمماليك هم أصلح مَن يحكم هذا الشعب

الكسول الذي لا يهمه شيء سوى أن ينام وبطنه ممتلئ، أنا أفهم المصريين أكثر من أنفسهم، وأرى أن أغلبهم يفضِّلون العبودية على الحرية..

اتسعت عينا الرجلين دهشة من حديثه، ومطَّ الفرنسي شفتيه، وتقلَّبت سحنة دي روسيتي فبدت أقرب إلى الامتعاض..

ابتسم قنصل إنجلترا نصف ابتسامة قائلًا:

- اسمعا إذن هذه القصة القصيرة، لقد أعتقت خادمي العبد المصري منذ شهور، ومنحته حريته مع بعض المال ليبدأ حياة جديدة، لكن بعد يومين فقط، اختار المأوى والطعام وفضَّلهما على الحرية والجوع والشقاء، ورفض الحرية وعاد يتذلَّل لي ليعمل مرة أخرى عندي، ولا يزال عبدًا كما كان..

ثم اتكأ بمرفقه على البار العريض، ملتفتًا إلى قنصل فرنسا وكأنما يوجِّه له حديثًا خاصًّا:

- لا تنسَ أنكم فشلتم ورحلت حملتكم الحربية تجرُّ أذيال الخيبة إلى فرنسا، وإلا ما كنت أنا هنا الآن!

ساد الوجوم عقب حديثه مرة أخرى، حتى دخل عليهم القاعة رجل، بدا من هيئته أنه مساعده، همس في أذنه بأن الحسن بالخارج ينتظر الإذن بالدخول، فأشار إليه بأن يصطحبه إلى القاعة الصغرى، ثم انسحب في هدوءٍ تاركًا دي روسيتي وقنصل فرنسا غارقين في الهواجس والظنون، ومن قبلها الحيرة..

***

9

قارئة الكف

جلس كمال سيف الدولة بقاعته على أريكة مرتفعة بلا ظهر مستندًا علـى إحدى قائميهـا وقد انحنى ظهره قليلًا، متابعًا بغير تركيز عبر النافذة العريضة تدريبات الجند على الرماية بالطبلخانة التي يطل عليها مباشـرة من قاعته.. اقترب منه أحد فرسانه قائلًا بصوتٍ خفيضٍ.

- المجذوبة حليمة بالخارج يا سيدي..

لـم يلتفـت كمال الديـن إليه مكتفيًا بإشـارة من كفِّـه.. دخلت حليمة حافية وقد اتسخت ملابسها وبدت منهكة أرهقها الاعتقال ونهشها القلق والخـوف، كان الحـارس يقبـض علـى ذراعها فـي غلظة، بينما أنفاسـها العاليـة تعلـو وتهبط بصدرها الضخم، التفت كمال الدين برأسـه ناحيتها وهـو لا يزال جالسًـا، ثم أمر حارسـه بنزع العصابة السـميكة عن عينيها، اعتدل بجسـده كله في مواجهتها وهو يتفـرَّس فيها متلذذًا بارتباكها وهي تغمـض وتفتـح عينيها عـدة مرات لتتعـود على الضـوء المفتقد.. فركت مقلتيهـا مليًّـا بكفيها، ثـم تلفَّتـت حولها، فلمـا رأته أمامهـا بصقت على الأرض في قرفٍ..

انزعج كمال الدين قليلًا، لكنه أشار لحارسه الذي كان يتأهَّب لنزع سيفه من غمده لضربها بأن يلزم مكانه، ونهض مقتربًا منها وهو يدور حولها قائلًا بنبرةٍ مطمئنةٍ:

- لا تخافي يا امرأة، أنا فقط أريدكِ أن تقرأي لي كفِّي مثلما فعلتِ مع الحسن؛ لأعرف ما الذي سيحدث لي فأتجنبه قدر استطاعتي..

نظرت إليه حليمة في جرأةٍ لم يعتدها كمال الدين من قبل حتى من أقرب رجاله، ثم جلست بجواره على أريكته دون استئذان وهي تمطره بالأسئلة عن أخيه، ولماذا لم تره، ولماذا تحفظوا عليها منذ أمس، فابتسم كاشفًا عن أسنانه ذات الفلق، ولم يجبها بكلمة، وإنما فقط أشار لحارسه فأتى له بأريكة مثلها ليجلس في مواجهتها، آمرًا الحارس بالانصراف..

قالت حليمة وهي تحاول استفزازه:

- وهل يفرُّ المرء من قدره؟

ضحك بسخريةٍ قائلًا:

- ولماذا تقرئين كفوف الناس إذن؟ ها أنتِ تعترفين بممارسة الدجل، وواجبي الآن أن أقبض عليكِ لتنالي عقابكِ.. طالما تكذبين علينا!

قالها وهو يسترسل في ضحكات متقطعة، ثم تجهَّم وجهه فجأة قائلًا بحدةٍ:

- خبِّريني بما يخبئه القدر لي ولأخي الحسن؛ فأنا أعرف أنكِ قد قرأتِ كفَّه مرارًا وتكرارًا..

قالها وراح يبسط يده اليسرى أمامها، ونظراته تأمرها بأن تقرأ طالعه..

أمسكت بكفِّه في ضيقٍ ومسحته براحتها مرتين، ظلت تتفحَّصه لدقائق بطيئة وهو يضغط على فكيه، وعيناه مثبتتان على شفتيها وعينيها حتى نطقت:

- أرى في كفك غرابٌ كبير، نهِم، شرس، تخافه كل الطيور حتى الجارح منها، وهو يقبض بمنقاره على كسرة خبز كبيرة فلا يستطيع أن يبتلعها ولا يهنأ بطعمها أبدًا، لكنها في فمه وحده..

- أكملي.. أكملي..

قالها متلهفًا، فأكملت:

- أنت وأخوك خطوطكما متشابهة، مصيركما مرتبط بحياة كليكما في ذات الوقت.. ستشتد المحن على أحدكما حتى ليتمنى أن يعيش وسط الذئاب من شدَّة الغدر والمكر اللذين يحيقان به.. أما الآخر فسيذهب لقدره بخطى واثقة..

انتبه كمال الدين أكثر لحديثها، وبنفس اللهفة سألها:

- مَن منَّا تقصدين؟ وماذا هو فاعل؟

- سيتبع طريق الذئب الذي خاف على نفسه فخرج يبحث عن مأوى آمن.. وسيمضي خلف الذئاب الهاربة ليعيش معها..

- مَن منَّا سيفعل ذلك؟ أنا أم هو؟ أجيبي..

تنهَّدت بعمقٍ ثم نظرت إليه والغيظ يملأ عينيها قائلة:

- لا أعرف..

ثم ردَّدتها مرتين بحسم مَن لا يرغب في مزيدٍ من الأسئلة..

- وماذا عن طائر الغُراب وكِسرة الخبز؟

- سيحملها كثيرًا وهو لا يستطيع أن يقربها، فيجوع أكثر وأكثر حتى يهديه تفكيره إلى تفتيتها قطعًا صغيرة، ولكن وقتها سيكون

برقت عيناها ولم تكمل، وتركت كفَّه فجأة وأشاحت بوجهها عنه، وراحت بثقة تتأهب للانصراف وكأنها تملك قرارها.. فهبَّ ثائرًا وهو يجذبها من ثوبها بشدة ناحيته حتى ألصقها بصدره وعيناه تطقَّان شررًا زاعقًا:

- أكملي وقولي لي كلامًا واضحًا أفهمه، متى سأموت؟ متى سأتولى منصب المحتسب للمحروسة كلها؟ انطقي وإلا قطعتك إربًا وألقيتك لذئاب الصحراء أيتها المخرفة الدجالة، هل تظنين أنني من السذاجة بحيث أبتلع الطُّعم كي لا أقتل الحسن؟ أنتِ واهمة..

ظلَّت حليمة تبادله النظرات بتحدٍّ غريبٍ قائلة:

- لا أعرف إجابة على ما تطلب، فكفُّك ليس فيها أكثر مما قلته لك، ولو أن أخاك مكتوب له أن يعيش فلن تقوى على قتله مهما بلغت سطوتك، وربك يقبض الأرواح بمشيئته..

ظل يرميها بنظراتٍ ناريةٍ وابتعد عنها خطوةً واحدةً شاردًا، ثم التفت بسرعةٍ ناحيتها مرة أخرى، هاويًا على وجهها بصفعةٍ هائلةٍ طرحتها أرضًا من شدة المفاجأة، كانت شفتاه ترتشعان بعدما غزته القشعريرة بقسوةٍ وهو يردِّد:

- سيكون حسابك عسيرًا، وسأخبركِ بطالعكِ الأسود وفقًا لمشيئتي أنا..

ثم صرخ وهو يرفع رأسه عاليًا وجسده كله ينتفض مناديًا:

- جلهوم.. جلهوم..

***

.. بعد مرور يومين كان مجلس القضاء برئاسة عثمان ركن الدين قاضي القضاة قد انعقد بالقلعة، امتلأت قاعة العدل عن آخرها بأمراء المماليك وبكواتهم وفرسانهم وسُمح أيضًا لبعض العامة بالحضور، لكن لم يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، وقفوا في نهاية القاعة متوارين خجلًا، متلاصقين تغلِّفهم الرهبة، حفاة يغلب عليهم الذهول وتعصف بهم قداسة المكان، ونظرات رجاله المشبعة بالاحتقار لهم فبدوا كقوارب صغيرة متأرجحة في بحر متلاطم الأمواج، لم يكترث بهم أحد رغم أنهم اختيروا بعناية بمعرفة بصاصي كمال الدين، فحرصوا على أن يكون بينهم منادٍ على الأقل لينقل ما يدور أمامه إلى أهل المحروسة..

نودي على المتهمة فارتفع صوت الكاتب الجالس القرفصاء على مقربةٍ من القاضي:

- جنَّات هانم البنقداري، شقيقة حاكم القاهرة..

شـقَّ صوته الجهـوري صمت القاعة، وراحت الأعيـن تتلفَّت وتدور ولا مجيـب.. اتسـعت عينـا القاضي قلقًـا وراح يبحث عن كمال سـيف الدولـة بين الجالسـين والواقفين حتى وقـع بصره عليـه مرتكنًا إلى أحد عواميـد القاعـة جهة اليسـار قليلًا يلـوك خِلَّـة طويلة بين أسـنانه ويعبث بشـاربه في برودٍ، وذات النظرة الميتة تطلُّ مـن عينيه، ظلت عينا القاضي متعلقتيـن بكمال الدين تسـتغيثان به في صمتٍ صاخبٍ، وتسـتحثانه في عجالـة ليخرجـه مـن ورطته وشـعوره بالحـرج البالغ لعدم مثـول متهمة بجريمة تعذيب حتى الموت أمامه..

لم يسـتطع أن يخفض عينيه من على وجه كمال الدين، ولسـان حاله يـكاد يصـرخ: «لم يكـن هذا هـو اتفاقنا، افعل شـيئًا أرجـوك، وإلا لماذا ورَّطتني إذن؟!»

تسرَّبت ابتسامة تشف من بين شفتي كمال الغليظتين شامتًا في ارتباك القاضي، ثم أشار بعينه لأحد فرسانه الذي فتح بابًا جانبيًّا جذب منه امرأة بدينـة قصيرة، وجهها مغطى ببرقع أسـود كثيف حجـب ملامحها، كانت فـي حالـة هياج وتقاوم حرَّاسـها بضراوة بعـد أن كتم جلهـوم فمها بكفِّه العريضـة كخُفِّ الجمل، والحارس الآخـر يدفعها إلى الأمـام بيديه في عنفٍ وغلظةٍ، أشـار كمال لجلهوم بطرف عينه فنزع البرقع عنها، ظهرت جنَّـات هانم البنقـداري متجهِّمة الوجه، غاضبة لحد العاصفة، ولسـانها يُطلق وابلًا من السباب لمجلس القضاء كلِّه بلا استثناء، رمق كمال سيف

الدولـة القاضي بنظـرةٍ ناريةٍ ذات مغزى فتنبَّه وأمر علـى الفور بإخراجها مـن المجلس، ثم اعتـدل في جلسـته بعدما تربَّعت على وجهه قسـمات الارتياح قائلًا: «بسـم الله الحق، بسم الله العدل وبهداه، نفتتح المجلس فـي غيبة المتهمة حتى لا تؤثر علـى حكمنا، فلا يقضي القاضي أبدًا وهو غضبان»، بعد ذلك راح كاتبه يتلو التهمة وشـهودها ويشـيد بجهود كمال سـيف الدولـة وفرسـان الضبـط والربط في بـر المحروسـة ودورهـم في تحقيق الأمن والنظام، ثم سـكت المنادي ليتلـو القاضي العقوبة، تنحنح عثمـان ركـن الدين وجـال ببصره فـي القاعة التـي غلَّفها الصمـت ترقبًا وانتظارًا على أحر من الجمر..

ارتسـمت الجدية علـى وجهه قائـلًا: «هل من شـهودٍ آخرين خلاف مَن أتى بهم العسـس وتلونا شهادتهم على مسامعكم؟».. لم يتلقَّ إجابة، كرَّرها ثلاثًا فلما كان الصمت جوابه في كل مرة، أمر بأن يكون القصاص بالشـنق عقوبتها، وبنبرةٍ أكثر صرامة اختتم: «ويعلَّق جثمانها على شـباك سـبيل بـاب زويلة ثلاثة أيـام بلياليها جزاءً لما اقترفتـه يداها؛ لتكون عبرة لغيرها»..

بعدهـا رُفعت الجلسـة القصيـرة وانصـرف البكوات والأمـراء وهـم منغمسـون في أحاديث جانبية بدت ودِّية وكأنهم كانوا حاضرين احتفالًا لا محاكمـة، لـم تظهر ثمة بوادر اسـتياء علـى أيٍّ منهم رغـم أن المتهمة شـقيقة كبيرهـم.. الوحيدون الذين هلَّلوا هاتفين بإحياء العدل كانوا أربعة من عامة المصريين الذين علا صوتهم وفرحوا بعد أن شـعروا بالطمأنينة والسـكينة مـن قصاص القاضي لهـم في قاتلة واحدة منهـم فقيرة مثلهم،

رغم أن المجلس لم يستغرق سوى دقائق معدودات.. بينما كان خامسهم المنـادي قـد مـرق من بـاب القاعـة فـور النُّطـق بالحكـم، وراح يجوب الشــوارع والحارات مبشـرًا بحكم القصاص العادل حسـبما طُلب منه.. التفت ناحيتهم القاضي وقد امتعض قليلًا من الهرج والمرج الباديين في نهاية القاعة، ثم أمر بإخراجهم منها بإشــارةٍ بسيطةٍ من إصبعه في احتقارٍ، فراح الحراس يدفعونهم في غلظة بعصي من الخيزران وكأنهم يسـوقون قطيعًا من الخراف لم يفرغ بعد من طعامه..!

خـرج كمال الديـن من القلعة، ثـم اعتلى صهوة جـواده عائدًا إلى داره متبختـرًا، وصـدره منتفـخ بزهـو الانتصـار، تعمَّد الإبطاء في سـيره وسـط فرسـانه عند خروجه مـن بوابة القلعـة الكبيرة ليتلقَّـى تحية العامة والدهمـاء الذيـن تجمَّعوا على مقربـة هاتفين وملوحين لـه، وهو يكتفي برفع ذراعه في زهوٍ، كان محاطًا بكتيبة من عشـرين فارسًـا تُشكِّل نصف قوام فرسـانه بعد أن ترك بقيتهم لحراسـة داره حتى لا يهرب الحسن منها قبيل انتهاء المهلة.. فلما وصلها أبلغه كبير حرَّاسه بأنَّ رسولًا من القنصل الإنجليزي قد حضر لاصطحاب الحسـن معه، ثـم أردف: «وهناك ثلاثة فرسان مسلحين من رجالنا لمرافقته وفقًا لأوامرك»..

هزَّ كمال الدين رأسه راضيًا، ثم خاطبه آمرًا: «لا تنسَ أن تخفوا وجهه عنـد عودتـه أيضًـا، وإذا ما حـاول الهرب منكـم أطلقوا البـارود عليه».. صمـت برهة بينما صـورة حليمة تتراقص أمـام عينيه، ثـم أردف حازمًا: «صـوْبَ سـاقيه فقط».. كرَّرها مرتيـن، ثم صعد إلى جناحـه في الجانب الشـرقي، وما إن دخـل حجرته حتى فوجئ بزوجته وردشـان وقد دفنت

رأسها في خزانة الملابس الكبيرة، وظلت مؤخرتها العريضة في مواجهته تهتز برفقٍ كلما عبثت في محتوياته، فاندفع ناحيتها غاضبًا وجذبها من ذراعها، كانت قد بعثرت محتويات أحد الصناديق متوسطة الحجم التي تحوي علبَ تبغٍ ذهبية، وأقمشة هندية، وأخرى من حلب، وقطع سجاد مطرزة بخيوطٍ من الذهب، تبادلا النظرات، كانت عيناها تبرقان ذهولًا بشدةٍ مما رأت، في حين كانت عيناه تطقَّان بالشرر لما كشفت.. قبل أن يوبِّخها على فعلتها لاحظ أن كفها تقبض على عقدٍ من اللؤلؤ، فأحكم قبضته على ذراعها ليوجعها حتى تتركه، فرمقته بنظرةٍ حادةٍ تشي بتهديدٍ صريحٍ بفضح ما تلقَّاه من رشاوى، فلم يصمد أمامها كثيرًا وسرعان ما انكسرت عيناه..

كانت نظراتها تتحدَّث بصوتٍ عالٍ.. تفضح.. تكشف.. تُعلن في جرأة وبجاحة: «أنت مُرتشٍ وأنا شيطانة خرساء، وهذا ثمن سكوتي».. تراخت قبضته تمامًا، ثم راح يتحسَّس ذراعها البضة الناعمة بأصابعه الخشنة وهو يقترب منها أكثر ويتشمَّم رقبتها من الأمام، تسارعت ضربات قلبه وزاد توتره وانفعاله وهو يُشعرها بذكورته، أو يذكرها بها، لم يعد يهم الآن، فما يهمه احتواء الموقف، وأن تعود له اليد العليا مرة أخرى.. ابتعدت وردشان عنه بمسافة سمحت له بأن يرى سحب غضبها وهي تتجمَّع بوضوحٍ أمام عينيه، كانت تتحكم في غرائزها معه وتُعيِّره دومًا بضعفه الجنسي، وهو يصمت مفرغًا كبته في جواريه عندما يعبث بأجسادهن في شهوة متسرعة عشوائية مطمئنًا بأن أيًّا من محظياته لن تجرؤ على فضحه.. «لم أعد أطيق ضجيجًا بلا طحن». قالتها وردشان

ثم سارت مبتعدة ناحية المشربية وجسدها الممتلئ يترجرج في ردائها الأصفر الفاتح الشفاف الذي يكشف مفاتنها بدقةٍ متناهيةٍ، فأثارت شهوته أكثر، لمعت عيناه وهو يقترب منها مطوقًا خصرها بذراعيه من الخلف، وراح يهمر رقبتها بالقبلات المختلطة بأنفاسه الساخنة، تأفَّفت ولكزته بقوةٍ بكوعها في بطنه ليبتعد غاضبًا وهو يتأوَّه، بينما راحت هي تتفحَّص عقد اللؤلؤ باهتمام.. ظل واقفًا ينظر لها بغضب، صدره يعلو ويهبط في سرعة، خمدت جذوة الشهوة بسرعة واستعرت نيران الانتقام بصدره مثل كل مرة، ولكنه صار كبركانٍ خاملٍ يوحي مظهره بحممٍ ساخنةٍ ملتهبةٍ وهو لا يحرِّك ساكنًا، لمعت عيناه مرة ثانية بوميض غريب كمن خطر على باله هاجس مختلف جديد تلك المرة، فخلع عمامته وقذف بها بعيدًا، وتحرَّر من سترته الرسمية الحمراء المزخرفة بخطوط ذهبية عريضة، وغادر الحجرة مناديًا بصوتٍ عالٍ على خادمه عدَّة مرات، فمثل بين يديه خائفًا وشفتاه ترتعدان مجيبًا عن سؤاله العاصف قبل أن يتلقَّى صفعات وركلات منه: «الجارية نورسين في الحرملك يا سيدي، سأحضرها لك فورًا»..

قبل أن يلتفت الخادم لينصرف، كان كمال الدين يسبقه بخطوةٍ ويحجزه خلفه بجسده الضخم رامقًا إياه بنظرةٍ حاسمةٍ ثبتته في مكانه وفرائصه ترتعد، وانطلق كثورٍ هائجٍ تؤجِّجه الشهوة في طريقه إلى نورسين بجناح الحريم.. فلم يلمح في ثورته تلك قائد حراسته زهير وهو يدلف إلى جناحه من الناحية الأخرى متسللًا بخفة القط!

***

.. بعـد انتظارٍ دام أكثر من سـاعتين ببيت القنصـل الإنجليزي المطل علـى حديقـةٍ كبيـرةٍ ذات أشـجارٍ عاليـةٍ، وزهـورٍ منسـقةٍ بعنايـةٍ، دخـل الحسـن قاعـة تطل عليهـا مباشـرة بالطابق الأرضـي، كان يبـدو مأخوذًا بعض الشـيء، وقعت عيناه على القنصل بقامته الطويلة الفارعة، وشـعره الأصفر المجدول قرب أذنيه، وابتسـامة صفراء ترتسـم ببرودٍ على شفتيه المتوردتيـن، حيَّـاه الحسـن برأسـه متلفتًـا وهو يفتـش بعينيه فـي أرجاء المـكان، منتظـرًا أن يـرى مترجمًـا يعاونه علـى التخاطب معـه.. ففاجأه القنصـل وهو يفـرد ذراعيه مرحبًا: «الحسـن جمال الديـن الرومي الذي دوَّخ مماليك مصر كلها وراءه»..

ارتبك القنصل قليلًا لما لم يجد ترحيبًا متبادلًا من الحسن الذي كان بـدوره غير متعمِّـدٍ، فقد باغتته المفاجأة فتسـمَّر مكانـه، زام الرجل وهو يثبِّـت عينيـه الماكرتين في عيني الحسـن قائلًا: «مرحبًا بك أيها الشـاطر حسن»..

قفزت الدهشـة مرتين من عيني ابن الرومـي، الأولى لمعرفة القنصل باسم الشهرة الذي لا يناديه به سوى محمد علي، ولا يعرفه إلا المقربون منـه، والثانيـة لطلاقـة الرجـل فـي الحديث بلغـة الحسـن، عندما لاحظ القنصل ارتباكه بادره قائلًا بغرور: «اندهشـت لأنني أتحدث العربية؟!»، أومأ الحسن بالإيجاب..

ابتسـم القنصل ابتسـامة عريضة كشفت عن أسنانه الرفيعة فبدا كذئبٍ جائعٍ وهو يسترسـل: «مَن عرف لغة قومٍ أمن مكرهم»، ثم أطلق ضحكة

خافتة مردفًا: «أليسـت هذه مقولتكم الأثيرة؟».. ابتسم له الحسن ابتسامة مبتورة وقد بدأ يتحرَّر من قيود رسميات اللقاء وهواجسه المسبقة، وراح يتأمل أذني الرجل المفرطتين في الطول، فلما أطلَّ الاسـتغراب من عيني القنصـل الإنجليـزي، قال له بنبرة مَن يحاول مغالبـة توتره ليُذيب الثلوج بينهما أكثر «أذناك كبيرتان سـيدي القنصل، دليل ذكاءٍ شديدٍ لا شك في ذلك»..

ارتسـمت علامات اسـتنكار ودهشـة على وجه القنصل، وعقد كفيه خلف ظهره مقررًا صدَّ كل محاولات الحسـن الدبلوماسية لإذابة الجليد تمامًا، قائلًا بنبرة مَن يريد أن يسـتعيد مكانة وسـطوة يده العليا على إدارة دفة الحديث: «لو كان الأمر كذلك لكان الحمار أذكى من الحصان»..

قالها ثم أشار له بأن يجلس، وانهمك في تفحُّص قنينات الشراب وهو يطلـق صفيرًا خافتًا من شـفتيه بلحنٍ يجلب التوتر حتى اسـتقر رأيه على واحدةٍ منبعجةٍ من أسـفلها بصـورةٍ ملفتةٍ، كانت ممتلئة لنصفها بشـراب النبيـذ الأحمر، ثم التفت ناحية الحسـن متسـائلًا بعينيـه إن كان يصب له بعضًا منها، فشكره الحسن متعللًا بأن دينه لا يسمح له بشربها..

هزَّ القنصل رأسـه وهو يزمُّ شـفتيه، ثم قال دون أن يلتفت إليه مكتفيًا بفـرد ذراعـه ناحيـة اليسـار، حيـث يقبع طبـق فاكهـة، على جانبيـه يرقد عنقـودان كبيـران مـن العنب: «أنـت تأكل حبَّـات العنب تلـك وتعتبرها حلالًا، وتحرِّم على نفسـك شـراب النبيذ مع أن هذا مـن تلك.. هذا غير منطقي على الإطلاق»..

أتمَّ عبارته، ثم أشار بيده إلى رأسه وكأنه يصف المسلمين بالخبل، انتهز الحسن الفرصة ليُثير أعصابه ويوتره ويسخر منه، فالتقط طرف الخيط بسرعةٍ سائلًا وهو يبتسم في تروٍّ: «سيدي القنصل.. هل أنت متزوج؟»

- نعم.

- هل لديك ابنة من زوجتك؟

أجابه القنصل باندهاشٍ وهو يلتفت ناحيته بجسده كله، رافعًا أحد حاجبيه، مهتمًّا بالحديث وقد غالبه التوتر قليلًا:

- نعم.. لكنها ابنة زوجتي من زوجها السابق.

- حسنًا.. ببساطة شديدة، ووفقًا لمنطقك أيضا، فأنت تستطيع مضاجعة زوجتك في كل وقت، لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك مع ابنتها في أي وقت.. مع أن هذه من تلك!

قالها الحسن وظل يبتسم في برودٍ عاقدًا ذراعيه على صدره وقد شعر بأنه قد نجح في استثارة الرجل بكلماته.. أشاح القنصل بوجهه وهو يرفع يده لأعلى محتجًّا في صمت وقد احمرَّ وجهه بشدة، ولكنه لم يرد..

فرَدَ الحسن ساقيه في تباطؤ متعمدًا، ثم ثناهما فجأة أسفل جسده في رشاقة، ثم تذكر أذن القنصل الكبيرة مرة أخرى فقال:

- بالمناسبة، صِغر الأذنين ليس دليل غباءٍ أو محدودية ذكاء، وإنما دلالة على طيبة القلب وسعة الصدر ورحابته يا سيدي.. هذا ما قصدته فقط..

تأمَّل القنصل جلسة القرفصاء التي عليها الحسن بإعجاب لا يخلو من غيرةٍ، فطالما حاول أن يجلسها ولكنَّ أعصابه كانت تتشنَّج دومًا كلما حاول تقليد الشرقيين في جلستهم، تجاوز القنصل الأمر وابتلعه علقمًا و تبدَّلت قسماته مجيبًا في عصبية لم يفلح في خفض وتيرتها بعد شعوره بأن الحسن بارد كإنجليزي صميم:

- الأمر لا دلالة له على أي شيء، ولا علاقة له بالطيبة أو الذكاء.. أنتم تسرفون كعادتكم في نسج الأساطير والقصص والموروثات الشعبية.. الحمار والبغل عندكم حيوانات بائسة تعيسة تعمل ليل نهار.. بينما الحصان مُرفَّه، مغرور، به الكثير من العُجب من فرط تدليلكم له، وفي النهاية يتساوى الاثنان في الطعام، بل ربما تميزون الحصان أكثر.. أنتم مغرمون بالشكل على حساب المضمون كعادتكم.. تقدِّسون الأقوى والأكبر، وتستخفُّون بالأصغر وتظنونه أضعف..

ثم أردف وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

- مع أنه قد يكون أنفع لكم، ولكن معظمكم عقولهم في أعينهم وفي آذانهم فقط.. تحرككم المشاعر في أغلب الأحيان..

اقترب القنصل منه، ومال ناحيته أكثر خافضًا من صوته، قائلًا بنبرة العارف ببواطن الأمور:

- هل تريد أن تعرف الفارق الجوهري بيننا وبينكم؟

اكتفى الحسن بإيماءة خفيفة من رأسه وهو يزم شفتيه، ليسترسل القنصل بزهوٍ:

- نحن في الغرب نجعل عقلنا مصفاة لكل مشاعرنا.. أما أنتم فمشاعركم هي مصفاة عقلكم..

أطلق ضحكة عالية وكأنه يكافئ نفسه على صحة مقولته.. وقبل أن يعلِّق الحسن على كلامه، استطرد القنصل وهو يصبُّ شرابًا في كأسه من قنينة طويلة رفيعة تلك المرة:

- دعنا من الحديث عن المشاعر والآذان الطويلة والحيوانات، ولنبحث أمر المصريين، أعتقد أنهم أهم قليلًا من الحمير، على الأقل في وقتنا الحالي..

قال عبارته الأخيرة وعيناه تتابعان في تشف تقلُّبات ملامح حسن وتجهمها، ثم تجرَّع كأسه دفعة واحدة مغمضًا عينيه وكأنما ارتاح لإهانته..

بعدما كسا الغضب كل قسمات وجه الحسن، استطاع أن يستعيد رباطة جأشه بسرعة قائلًا:

- على أي حال أنا كنت حريصًا على تذكُّر مأثورات أجدادي عن الحيوان قبل حضوري إليكم، خاصة الحمار؛ كي يكون اللقاء معكم مثمرًا..

استشاط وجه القنصل غضبًا وغلا الدم في نافوخه من تصرفات الحسن الصبيانية وزفر كمن ينفث لهبًا واتسعت حدقتا عينيه ثم تجرع جرعة كبيرة من كأسه قائلا بضجر:

- فلندخـل في صلب الموضوع إذن بعيدًا عـن هذه المعلومات التي لا تفيـد ولا تنفع .. لماذا تتعاون مع رجال الجنرال محمد علي وتحديدًا المُعلـم جرجـس وعمر أفندي مكرم ؟ قل لي ما هـو هدفكم في النهاية؟ فقد أستطيع أن أجعل المسافة إليه أقصر..

قبل أن يجيبه الحسـن عاجلـه القنصل وهو يتحرك ليملأ كأسـه لمرة ثالثة، وقد بدأت الخمر تداعب عقله دون أن يفقد تركيزه:

- المماليـك هم الحكام الشـرعيون لبلادكم، وليس من تعاليم دينك التـي تتمسـك بها حتـى في تحريم شـرب النبيذ أن تخـرج على حاكمك الشرعي.. أليس كذلك؟

أفلتت ضحكة من بين شفتي الحسن وهو يتمتم:

- ما شـاء اللـه! أراكم يا سـيدي القنصل قد تفقهتم فـي اللغة والدين أيضـا، تنقصك عمامـة وقفطانًا وبعدها يمكننـي اصطحابك إلى المولد، وثـق بـأن الجميع هنـاك سـيصدقونك، وربمـا تصبـح وليًّا مـن الأولياء الصالحين، وقد نقيم لك مقامًا، دعنا نختر لك اسمًا يتفق وحديثنا الأول عن الحمـار والحصان، فلنختـر بعض صفاتهما الحميدة، ونسـتقر على أحدها لتكون...

قاطعه القنصل بعصبيةٍ:

- شاطر حسن.. الزم حدودك! أنت تحادث قنصل إنجلترا والمفتش العـام المقيـم فـي الشـرق، أنـا أسـتطيع أن أسـلِّمك للمماليـك لينزعوا

أظافرك حتى يكون لسانك أكثر طلاقة مما أنت عليه الآن، ولكنني أراعي الأعراف والتقاليد الدبلوماسية حتى اللحظة الأخيرة، فلا تنسَ نفسك، أخبرنا بتحرُّكات الجنرال محمد علي وخططه تباعًا، وأنا أعدك بالحماية والأمان منه ومن المماليك أيضًا..

ثم اقترب منه ببطءٍ كثعبانٍ أرقم يزحف وسط حشائش كثيفة في حذرٍ، واضعًا كفه على كتفه:

- ولا أخفيك سرًّا أنني اقترحت اسمك لتولي منصب حاكم القاهرة بدلًا من إبراهيم بك؛ فبعد جريمة شقيقته الشنعاء، لم تعد له شعبية ولا هيبة، وسيصدر فرمان من الوالي بتعيينك فورًا إذا ما تعاونت مع حكَّام البلاد الشرعيين، يا صديقي العزيز..

قالها وهو يربِّت كتفه مرتين.

ابتعد الحسن بخطوةٍ واحدةٍ نحو اليسار تلقائيًّا وهو يقول:

- هؤلاء المماليك الذين تدعمونهم يسكنون مصر جسدًا فقط، لكنهم لا ينتمون إليها روحًا، هؤلاء بالنسبة لنا كأرواح شريرة يجب إخراجها من عقولكم أولًا، ونحن كفيلون بعد ذلك بإخراجها من أجسادنا.. لن يعيشوا معنا في سلامٍ إلا إذا عملوا لصالحنا جميعًا لا لصالحهم وصالحكم فقط يا سيدي القنصل.. ووقتها فقط سنتقبلهم بيننا، وليسرِ عليهم ما يسري علينا..

ثم زفر الحسن في ضيق وهو يكمل حديثه بمرارة قائلًا:

- لماذا تدعمون مماليك أصلهم من العبيد ليتحكموا ويحكموا المصريين أصحاب الأرض وأهل البلد؟! سينقلبون عليكم لو تمكنوا مرة أخرى..

- دعنا من هذه الأمور الفرعية عن العبيد والسادة، ولنعد لموضوعنا، وحاول أن تتفهَّم وجهة نظري، نحن نرى أن بقاء الجنرال محمد علي في مصر على رأس قوة حربية تقاتل المماليك سوف يسبب الفتن، ويستفز البكوات والأمراء وكبار التجار الذين ضاقوا بكم وبه من قبلكم، سلِّمه لنا، أخبرنا بتحركاته مسبقًا، ونحن سنحميك قبل أن تعم الفوضى، وثق أنك بهذا ستؤدي خدمة جليلة لبلدك بحقن دماء المصريين، كل ما نريده منك أن تتعاون معنا لا مع الفرنسيس مثلما تفعلون..

سكت برهة مغمضًا عينيه، ثم قال بنبرةٍ مسرحيةٍ:

- لقد آن لهذا البلد أن يستقر على يدك أيها الشاطر حسن!

لم يجد القنصل أي استجابة لكلماته الطويلة على وجه الحسن، فعاد يقول بحماسٍ أكبر:

- مؤكد أنك ترى حجم الخراب كل يوم.. والجيش العثماني ضعيف، والوالي التركي لا تهمه أمور المصريين، إنما فقط موارد مصر، الجثث تملأ شوارع المحروسة، والأوبئة تنتشر، الفقر يزيد كل يوم، ولم يعد أحد يأمن على حياته وماله..

ثم أردف في النهاية بحسمٍ وكأنه يُصدر أمرًا للحسن:

- هذا الجنرال الذي تظنونه قائدًا حكيمًا سوف يجر البلاد إلى فوضى عارمة، والحرب الأهلية على وشك الاندلاع بسبب تأييدكم ومعاونتكم لـه، ووقتها سـيعود لبلاده مـع جنوده، سـيكون أول الفارين من السـفينة ليتركـكـم تغرقون فـي بحور الدم، ثـق فيما أقوله لك، واعلـم أن بكوات المماليـك هم الأقدر على حكم مصر حاليًا.. لا تدعِ الفرصة تفُتك؛ فهي لا تتكرر مرتين هذه الأيام..

- هؤلاء البكوات يا سـيدي القنصل يجرِّفون المحروسة.. يجرِّدونها مـن كل جميـل فيها.. ينهبونها بجشـعٍ، ثم لا تنـسَ أن الأغلبية الآن تؤيد الجنرال محمد علي؛ فهو الوحيد الذي يسـتمد قوته من أهل مصر لا من الجاثمين عليها بالقوة مثلما يفعل أصدقاؤك المماليك..

قـال الحسـن كلماتـه الأخيـرة وهـو يرفـع إصبعـه في وجـه القنصل محذرًا:

- أرجـوك لا تسـتدعني للقائك مرة ثانية؛ فليـس عندي ما أقوله لك، ولـم يعد يهمني الآن سـماع بقية حديثك أو مَـن الذي دلَّك على طريقي؛ فقـد شـممت رائحته من بين ثنايـا كلامك، وبعد قليل سـأعود إلى داري لأجده في انتظاري..!

رفع القنصل حاجبيه في دهشة، فهبَّ الحسن واقفًا ليُنهي المقابلة من طـرفٍ واحدٍ، لكنـه راح أولًا يهندم ثوبه الأحمـر القاني، ويضبط عمامته السـوداء، ثم عبث بلحيته التي هذبها كثيرًا قبل اللقاء، مقتربًا من القنصل

بخطواتٍ بطيئةٍ، فأجبره على التراجع خطوتين وهو يترنح قليلًا من جرَّاء الشراب، فألقى عليه السلام بصوتٍ خفيضٍ، وعيناه تلمعان ببريقٍ غريبٍ يحمل بين طياته تهديدًا ووعيدًا صامتًا لا يسمعه صاخبًا إلا الخائفون، ثم انصرف في هدوءٍ وكأنه قد تبخَّر من المكان.. وقد أدرك أنه لم يعد الآن آمنًا في المحروسة كلها كما كان.

***

10
على باب زويلة

.. ركض فرس محمد بك الألفي وكأنه يسابق الريح، بعد أن أطلق له العنان وسط الحقول الشاسعة ينهب الأرض نهبًا هاربًا من حصار قوات محمد علي له في مدينة منوف، ومن خلفه اثنان من مماليكه يلاحقانه بالكاد وهو يقفز فوق القنايا الصغيرة بمهارة ويمرق بين أشجار الكافور الكثيفة كشعاع الضوء ويتجاوز صفوف النخيل التي اصطفت في تناسق بديع كحرس شرف بطول شاطئ النيل في لمح البصر، استُنفرت منطقة حدائق بنها كلها وجميع الحقول المؤدية إليها استعدادًا لوصوله لأحد قصور الأمراء بها، وخرجت كتيبة من جنود المماليك لتأمين الطريق واستقباله استقبال الفاتحين، كان الألفي بك قد نجح في فك الحصار بعدما اشترى محصول فدان بالكامل من الفلاحين بمعونة مالية من قنصل إنجلترا، وقام بحرقه لتنشغل قوات محمد علي بالنيران المشتعلة، وتسلَّل متسترًا بألسنة اللهب العالية مع أول خيوط النهار في طريقه إلى قصر السلحدار الذي أعده الإنجليز ليكون مقرًّا مؤقتًا لإقامته، وتولوا هم حراسته من الداخل، فلما بلغه قرب الظهر ودخل حديقته الشاسعة، أحاط به البكوات والأمراء كالغريق الذي يتعلَّق بالقشة، مشوا

جميعًا وراء الألفي بك في أروقة القصر المشيد على فدانين وملحق به إسطبلات ومبانٍ تكفي مئة من الخدم والعبيد والعسكر بعتادهم، كان شاحبًا، منهكًا، فقد الكثير من وزنه فبدا أكبر من عمره كثيرًا، لم يهدر وقته في طعام وترحيب، فاطمأن أولًا على حجم وعتاد القوات التي تؤمِّنه، ثم التقى مندوب القنصل الإنجليزي، الذي أبلغه رسالة شفوية منه نقلها مترجمه المتأخر عنه بخطوة فازداد ثقة وطمأنينة لاحتا على وجهه المرهق، اقترب منه كاتم الأسرار وأسرَّ له ببضع كلمات في أذنه، بعدها أعلن المنادي عن دخول الشخص المقصود، فتجمَّعت الأبصار كلها صوب بوابة البهو الفسيح المجتمعين فيه..

فُتحت الأبواب ليظهر أمامهم كمال الدين سيف الدولة يسير في همَّةٍ ونشاطٍ بخطًى مستقيمة تعرف طريقها بثباتٍ نحو الحاكم المنتظر محمد بك الألفي، كان كمال يرتدي الكثير من الشيلان التي رفعها على كتفيه ففضحت حضوره من القاهرة متخفيًا حتى لا يفقد منصبه بتأييده لمملوك مغضوب عليه من الباب العالي ويرغب الإنجليز في فرضه على أهل المحروسة، فلما مثل بين يديه مقدِّمًا فروض الطاعة والولاء، صافحه الألفي بك مرحبًا بودٍّ بالغٍ، معلنًا على أسماع الجميع بصوتٍ جهوري:

- إذا ما دانت لي تلك المرة، فإن كمال سيف الدولة يستحق أن يكون محتسب المحروسة.. نظير ما قدمه لنا من خدمات عن تحركات فلول غريمنا البرديسي..

ثم التفت ناحيته قائلًا وهو يضع يده على كتفه:

- ووقتها نبارك لك كمال بك سيف الدولة..

تهلّلت أساريره أكثر على وقع اللقب الذي أطرب أذنيه بجرسه المثير، مرَّ بخاطره هاجس سريع بأن ينظر لكفِّه اليسرى، لكن تحت وطأة الزهو قبض يده وهو يبتسم منتشيًا في غرور، ثم سرعان ما اندمج وسط قادة الكتائب وكبار البكوات ليسمعوا من الألفي بك خطته لمواجهة محمد علي بعد أن حفزهم قائلًا:

- تلك المرة سأقطعه إربًا وأعلق كل قطعة من جسده على جميع أبواب القاهرة..

ثم زفر طويلًا مردفًا:

- آن لهذا البلد أن يستقر تلك المرة على أيدينا..!

ارتفعت أصوات تصفيق على استحياء من أركان متفرقة من البهو في عشوائية، وفي نهاية الخطبة الطويلة مال أحدهم على أذن كمال الدين هامسًا:

- يبدو الألفي بك غير واثق من نفسه تلك المرة، خاصة بشأن الاستقرار، لقد كرَّره كثيرًا في حديثه وكأنه أمر بعيد المنال..

رمق كمال الفارس المملوكي بنظرةٍ شاردةٍ ولم يُجب.

على مسافة بعيدة نوعًا ما من هذا المكان، يُقدِّرها المصريون من البسطاء بمسيرة نصف يوم، بداخل دار كبيرة في قلب القاهرة، شُيِّدت على شكل نصف قوس، تطل على ميدان فسيح طُوِّقت جوانبه بأشجار

النخيل العالية، جلس محمد علي فاردًا ساقه اليسرى على أريكة طويلة، مستسلمًا لفحوص الطبيب الفرنسي روبير وهو يضغط بشدة على ركبته اليسرى، بعدها أخرج قنينة صغيرة من صندوق معدني بجواره تفحَّصها بدقةٍ، ثم سكب قليلًا من سائلها على كفيه وراح يدلِّك ركبة الجنرال محمد علي من الخلف، ويمسح ساقه حتى كاحله عدة مرات، ظهرت علامات الارتياح على وجه محمد علي سائلًا طبيبه:

- هل هذا الدواء يعالج عِلَّة القلب بكفاءة؟

بدت أمارات الانزعاج على وجه روبير وتوقَّف عن التدليك قائلًا بدهشةٍ:

- ومَن قال إن قلبك عليل يا جنرال؟!

- أخبرني بذلك ثلاثة أطباء بريطانيين على التوالي، أرسلهم إليَّ مفتشهم العام المقيم في القاهرة منذ فترة لما لاحظ عرجًا بسيطًا في أثناء سيري، وطلبوا مني أن أستريح وأعود إلى بلادي فورًا؛ فقد لا يتحمَّل القلب همَّ المعارك وهموم الحياة السياسية هنا؛ لذا استعنت بك في محاولةٍ أخيرةٍ لمَّا اشتد ألمي بعدما دلني المُعلم جرجس عليك وأشاد بك..

ابتسم روبير، ثم قال في جدية:

- قلبك سليم يا جنرال مثل قلب حصان يركض في البرية من الصباح للغروب، كل ما هنالك أنني وجدت كيسًا من الدهون في حجم النبقة خلف ركبتك، وهو ما يسبب لك ألمًا مستمرًّا وعرجًا بسيطًا في أثناء

السير، ويبدو ممتلئًا بالصديد، ولو كبر سنكون مضطرين لاستئصاله..

فعاجله محمد علي باهتمامٍ وهو يعتدل في جلسته:

- وهل أعراض الكيس المرضية تتشابه وأوجاع القلب العليل؟

أطرق الطبيب برأسه قليلًا، ثم قال مندهشًا:

- لا يا سيدي.. لا علاقة لها بها من قريب أو بعيد..

انزعج الجنرال وهو يستكمل سؤال الطبيب باهتمام:

- ولمـاذا طلبوا مني إذن الراحـة التامة والعودة إلى بلادي خوفًا على حياتي في تقديرك؟

أجابه روبير ببرودٍ متظاهرًا بانشغاله في إنهاء عمله، وقد وجدها فرصة سانحة للخلاص من الأطباء الإنجليز الثلاثة بضربة واحدة:

- يبدو أنهم يريدون إزاحتك لا راحتك يا سيدي الجنرال..

زمَّ محمد علي شـفتيه، وعقد جبهته، وسـادت فترة صمت طويلة لم يشأ روبير أن يقطعها حتى تختمر الهواجس في رأس الجنرال أكثر، أنهى روبيـر عملـه وراح يلملم أدواتـه وقنيناته، ثم ارتدى محمـد علي حذاءه شـاكرًا طبيبـه، مودعًا إياه بحرارة، وتبادل نظـراتٍ ذات مغزى مع المُعلم جرجس وعمر مكرم اللذين ظلَّا مشدوهين من كلام الطبيب روبير بعدما أخبرهمـا مترجم محمد علـي بما دار بينهما، حتى شـقَّ الصمت نهوضه مـرة أخرى فجأة داعيًا إياهما للتنزُّه بصحبته في حديقة الدار، خرجوا من

باب البهو الجانبي، وجلسوا بعد نزهة قصيرة أسفل شجرة كافور وافرة، تململ محمد علي في جلسته بعد فترة وجيزة وقام مرة ثالثة وراح يروح ويجيء عشرات المرات في حديقة داره وسط قواده وجنوده المنتشرين بها على هيئة مجموعات لحراسته خوفًا على حياته بعدما كثرت فلول أعدائه وزادت أعداد المتربصين به..

كان غاضبًا من الأطباء الإنجليز الذين عالجوه خطأً متعمدين، وساخطًا من ثورة أهل مدينة منوف على رجاله وتذمُّرهم من الحصار وحريق المزروعات المخيف الذي أدى إلى هروب الألفي بك، ثم صار قلقًا بعدما لاحت في صفوف جنده بودار تذمُّر واستياء من تتابع القتال وتوالي المعارك مع تأخر الرواتب فبدت سحب تمرد بسيطة تتجمع ببطءٍ، فهداه تفكيره إلى أن يطلب مساعدة مالية عاجلة أخرى من كبار تجار القاهرة بالجمالية والنحاسين والغورية الذين كانوا يساعدونه شهريًا في الخفاء كي يخلصهم من حكم المماليك، خاصة وأن ما أمدَّه به الوالي الجديد خورشيد باشا من معونات مادية قد نفدت، وتحجج له بعدها بضعف الموارد تحت ضغط الإنجليز وتهديدهم بعزله..

زفر بضيقٍ وهو يردد:

– لعن الله كرسي الحكم وما يفعله بأعناق الرجال..

تحدث إليه عمر مكرم كثيرًا وهو يسير بجواره لكنه لم يكن مستمعًا جيدًا إلى أن استوقفه اقتراح نقله له عن السيدة زينب خاتون ببيع النساء لذهبهن وحليهن للمساعدة في سداد رواتب الجند الأرناؤوط، مسح

جبهتـه قليلًا وقد بـدا مهمومًا أكثر، ثـم رفض الاقتراح باقتضاب شـاكرًا مكـرم أفندي عليـه، ثم نقل بصره إلـى المُعلم جرجس علَّـه يعينه برأي، فألفـاه حائرًا وكأن تفكيره لم يهتدِ إلى جديدٍ سـوى طلب مسـاعدة مالية وعسكرية من الفرنسيس كعادته كل مرة..

ظـل محمد علي ينظر إليهما دون تعليق، شـاردًا، ثم توسـطهما قائلًا وهو ينظر بعيدًا كمن يستشرف مستقبله:

- لو استمر الحال هكذا، فلا مفر أمامي إذن

نظرا إليه في دهشة، ثم نطقا في آنٍ واحدٍ:

- لا مفر من ماذا؟!

ظـل يتفـرَّس فـي وجهيهمـا مليًّا، ثـم أجاب بصـوتٍ خفيـضٍ وكأنه لا يرغب في أن يسمعه أحد:

- لا مفـر من العـودة إلى بلادي.. من حيث أتيت! فلن تحتمل قواتي البقاء أكثر من عام آخر.

***

في قلب القلعة القابعة وراء أسـوارها العالية، وفي داخل قاعة صغيرة خلف البرج الجنوبي مباشـرة لا يدخلها إلا العسـس والفرسان التابعون لنائـب المحتسـب كمـال سـيف الدولـة وكبيـر بصاصيـه، جلـس كمال فـي أحد أركانها متواريًا مع اثنين من فرسـانه مسـتغلًّا غياب المحتسـب

لمرضه الشديد، كانوا منشغلين حتى آذانهم في حصر محتويات صندوق آخر من الأكياس الجلدية التي تمتلئ بريالات الفضة والعملات الذهبية، أرسله لهم رجائي أفندي الدفتردار مؤخرًا ليسكتوا عن اختلاساته، التفت كمال فجأة منتبهًا لوجود أحد كبار مساعديه واقفًا أمامه منذ فترة، حاملًا مراسيم كثيرة بيمناه، وأخرى بيسراه، سائلًا إياه بغضب عن فحواها، وبنبرة مَن يريد الخلاص منه:

- هل هناك أمر عاجل؟

أجابه الرجل بأنها خاصة بحالات قبضوا فيها على مواطنين منذ فترة طويلة، ويجب أن تُعرض على القاضي ليحكم فيها..

ارتفع أحد حاجبيه دهشة واستغرابًا:

- كل هذه المراسيم تخص متهمين؟ ما تهمهم؟ ذكرني بها..

وضع الرجل ما كان في يمناه أمامه وهو يستعرضها ببطءٍ وكمال الدين يكتفي بهزٍّ رأسه أمام كل واحدة منها، قال المملوك:

- غش في الموازين لثلاثة عشر تاجرًا، وبيع لحوم بأعلى من تسعيرتها لأربعة جزارين في إمبابة، وامتناع عن صنع أرغفة الخبز لاثنين من الخبَّازين في الجمالية، وهناك أيضًا قبَّاني في الغورية قد...

مطَّ كمال الدين شفتيه مللًا، ثم قاطعه مزيحًا الأوراق كلها بلا مبالاة:

- اعرضها على القاضي جميعًا، ثم أعلن أحكامه على العامة بأبواب القاهـرة، ثم ينـادي بها المنادون في الأسـواق، ويحكي عنهـا رجالنا في المقاهـي؛ لنردعهـم، وقل له يتشـدَّد هذه الأيام في العقوبـة حتى لا يكثر اللصوص في برِّ المحروسة..

أتـمَّ حديثـه وراح يعبـث بكفيـه في الذهب الـذي تكتظ بـه الأكياس المتورمة من فرط حشوها، لكن المملوك ظل واقفًا ولـم ينصرف، لاحت أمـارات الضيـق على وجـه كمال الديـن وهو يرمقـه بنظـرةٍ غاضبةٍ دون أن يسـأله، فقـال الرجل فـي ارتباك وهو يفـرد أمامه مرسـومًا كان يحمله بيسراه:

- هذا ما يخص المنشـدين الثلاثة الذين قبضنا عليهم منذ أيام وكانوا يسبُّون مولانا السلطان أمام أحد المقاهي في الغورية..

ضحك كمال الدين وهو يقرأ شـتائم السـلطان المدونة أمامه، ثم نظر إلى المملوك قائلًا:

- وماذا تنتظر؟ قدِّموهم للمحاكمة فورًا..

سكت الرجل قليلًا، ثم أردف بصوتٍ خفيضٍ:

- ولكنهم أيضًا تقوَّلوا على شخصكم الكريم، ولكنني لم أدون ذلك هنا، فهل أقدمهم للمحاكمة أم أنتظر؟!

انقلب وجه كمال الدين وتعكَّر مزاجه قائلًا بغضب:

- وماذا قال عني هؤلاء الملاعين؟!

سكت الرجل ولم يرد، فعاد كمال يسأله إلا أن الحرج بدا واضحًا على وجه الرجل، فلما زاد إلحاح قائده أشار بعينيه ناحية صندوق النقود الذي أرسله الدفتردار وهو يتمتم:

- كانوا يمرون على المقاهي يلقون الأشعار ويضربون الدفوف ويعزفون بالناي..

ثم تلجلج كثيرًا قبل أن يُردف:

- ويقولون ما معناه إننا لصوص نسرق أموال المحروسة، وإن حاميها حراميها..

كان الرجل مضطرًّا لاستخدام صيغة الجمع في حديثه، فلم يكن يحمل قدرًا من الشجاعة تعينه على الإجابة بصيغة أخرى.. قالها وتراجع إلى الخلف خطوة وكأنه يبتعد عن سحب الغضب التي بدت على وجه كمال الدين وهو ينفث ضيقًا ناظرًا إلى الرجل بحدَّةٍ، ثم بدأ صوته يعلو وتتغير نبرته حتى باتت أشبه بصراخ الجريح:

- أين جلهوم؟!

أغلق كمال سيف الدولة الصندوق بعنفٍ مغادرًا ومن خلفه أربعة من رجاله، حتى دلف إلى سجن العرقانة وعروقه نافرة ويقبض بشدة على طرف ردائه، بدا كريحٍ صرصرٍ ستقتلع كل ما يقابلها حتى لو كان جذرًا عتيدًا.. فُتحت أبواب الزنزانة التي تضم المنشدين الثلاثة، كانوا منكمشين في أحد أركانها يأكلون خبزًا جافًّا اعتراه سواد العفن عند أطرافه وراح

السوس يمرح بين شقيه في أريحية، لم يلحظهم كمال للوهلة الأولى فما إن وقعت عيناه عليهم حتى توقَّفوا عن المضغ وازدادوا التصاقًا ببعضهم من نظراته النارية التي كانت تنبئ عن انتقام وشيكٍ.. اقترب منهم قليلًا ثم انحرف يسارًا بعد أن لمح خطوطًا داكنةً محفورة على جدران الزنزانة بخطٍّ مائلٍ.. وعلى ضوء مشعل كبير برقت عيناه وهو يستشيط غضبًا مرددًا بهمسٍ ما حفروه بأيديهم..

«بلدي يا طير مجروح، بيشدو بصوت مبحوح، بيقاوم اللي حبسوه من الخوف، وعلى طيرانه ملهوف، وبيحلم يرفرف»

التفت ناحيتهم واستدار معه حارسه بالمشعل، كان خياله على الضوء واضحًا لكنه صغير، بينما امتد خيال المنشدين الثلاثة القابعين على الأرض بطول الجدار حتى بلغ نهايته فبدا أكبر وأضخم، صافحت عينا كمال الدين رسومًا أخرى على جدارٍ آخر فراح ناحيتها ليرى حفرًا على هيئة طيور ترفرف بأجنحة كبيرة ومن فوقها نسر ضخم وقد برزت مخالبه ليلتقط إحداها، ورؤوس بقية الطير تلتفت ناحيته بعيون دامعة..

نظر إلى كبير الحراس وهو يضغط بأسنانه على شفته السفلى متوعدًا إياه بعقوبة مغلَّظة لتركه الرجال ينحتون جدران السجن في حرية، ثم أشار إلى أحد المنشدين بأن يقترب منه، فلما مثل بحضرته، وضع يديه على كتفيه وهو يتفرس في عينيه للحظات، والرجل يخفضهما خوفًا وهلعًا، بعدها التفت إلى الرجلين الآخرين المنكمشين اللذين كانا يتفصَّدان عرقًا، وأحدهما ترتعش مفاصله خوفًا، والآخر تصطك أسنانه

من الرهبة.. أفلتت منه ابتسامة تشف وجرى ريقه ولمعت عيناه كعادته مع كل متهمٍ عندما يتلذذ بتعذيبه، ثم علا صوته أكثر من اللازم مناديًا وكأنه يطمئن نفسه:

- جلهوم..

اقترب منه الجلاد وهو منتصب القامة، قابضًا بشدة على سوطه، ففاجأه كمال الدين بنزع سيفه من غمده في سرعة قائلًا بحدةٍ:

- اقطع لسان المُغني فيهم، وآتني بكف مَن نحت الجدران بالأزميل مفصولة عن ذراعه..

ثم ربَّت كتف الرجل الماثل بين يديه بنصل السيف قائلًا:

- أما الثالث الذي أوحى لهما بما فعلاه وحرَّضهما عليه، فضعوه على الخازوق.. لا فائدة من عقاب مَن يستخدم عقله فلن يردعه شيء أبدًا.. ولن يلين ولو قضى عمره محبوسًا.

قالها وظل يتأمل ملامح الرجل التي يعتصرها الفزع من تخيُّل الخازوق وهو يدخل مؤخرته حتى يخترق رأسه، فاتسعت ابتسامته الصفراء أكثر وبرقت عيناه بذات البريق الغريب.. بعد أن أتمَّ أوامره تحرَّك ناحية باب الزنزانة في ذات اللحظة التي دخلها اثنان من البصاصين من تابعيه المقربين وهما يلهثان من جرَّاء ركضهما، فانتبه إليهما وقد سرى القلق في قلبه للحظات من ملامحهما المضطربة، فقضم أحد أظافره واختلس نظرة سريعة لكفِّه اليسرى ثم صرخ فيهما:

- ماذا جرى حتى تأتيا إلى هنا مهرولين؟ انطقا..

- علمنا الآن من العسس أن شخصًا ملثمًا يرتدي عمامة سوداء قد أتى على جواده من ناحية بركة الأزبكية وبصحبته خمسة آخرين يركضون خلفه حتى اخترق موكبهم السوق كله وبلغوا بوابة المتولي، وهناك توقَّف الركب فجأة، وراحوا يطلقون البارود في الهواء ليفرِّقوا المارة، فأثاروا الفزع بينهم، بعدها عاونوا الملثم على تسلُّق كتف أحدهم وقد وقف على جواده الذي انطلق به قرب البرج، ثم صعده الملثم في خفةٍ إلى منتصفه حتى ضرب بسيفه الجثمان المعلق على شباك السبيل قرب باب زويلة، فأسقطه بضربةٍ واحدةٍ على الأرض وسط تهليل المارة والتجار..

نظر إليهما كمال سيف الدولة وهو منزعج قليلًا لكنه حاول التماسك متصنعًا البرود في الحديث:

- لا بأس.. يبدو أنهم مغامرون يريدون لفت الأنظار..

ثم أضاف بعصبيةٍ فقد السيطرة على كبح جماحها:

- علِّقوا الجثمان مرة أخرى، واعرفوا مَن يكون هذا الملثم وأتوا به إلى هنا قبل أن ينتصف الليل، سأستجوبه بنفسي.. واقبضوا على الآخرين واحبسوهم..

فلما همَّ بالانصراف زاد اضطراب البصاصَين وتبادلا النظرات فيما بينهما في خوفٍ وكأن كلًّا منهما يقدِّم الآخر للحديث بدلًا منه.. فعاد

القلق ينقر صدر كمال الدين بعمقٍ تلك المرة فأبطأ قليلًا من خطواته التي كانت على وشك التقدُّم للمغادرة حتى تسمَّر مكانه وزاغت عيناه وتدلَّى فكُّه قليلًا وشعر بأن عقله تيبَّس في تجويف رأسه، عندما نطق أحدهما قائلًا بصوتٍ مرتجفٍ:

- يا مولانا.. لقد كشف الملثم غطاء الرأس وهو ينادي على المارة، وعلم الناس جميعًا أن من تم إعدامها هي المجذوبة حليمة بدلًا من جنَّات هانم شقيقة إبراهيم بك الكبير، والمنادون الآن يطوفون بالمقاهي يروون لروادها ما فعلناه، انكشف المستور يا مولانا..

***

دُفعت ضلفتا باب حجرة الحسن بشدة إثر ركلةٍ من قدم كمال الدين وترنَّحتا حتى كادت إحداهما أن تنفصل، وقف يجول بعينيه في الغرفة ويفتشها بنظراته الثاقبة دون أن يخطو خطوة واحدة بداخلها، ثم همَّ بالانصراف حانقًا لما وجدها خالية، إلا أنه ثبت نظره قليلًا نحو الكوة التي تغوص في تجويف الجدار وتسد فوهتها ملابس مكوَّمة فوق بعضها، فلمعت عيناه واقترب منها ببطءٍ، ثم استلَّ خنجره ودفعه بشدة وسطها فغاصت يده معها ولم يجد خلفها أحدًا كما كان يتوقع.. ظلَّ متسمرًا مكانه يتفرس في وجه العبد صالح الواقف خلفه بلا حراك ينتظر أوامره كالمعتاد، فخاطبه بنبرة يائسة:

- كيف هرب يا صالح؟

- ارتدى زي امرأة يا مولانا، ووضع برقعًا طويلًا سميكًا يخفي وجهه، وخرج من باب الحرملك ومنه إلى المرسى، ولم أستطع منعه يا سيدي.

- مَن كان معه؟

صمت صالح ولم يرد لبرهةٍ، ثم قال بعد تفكير:

- كان أربعة رجال ملثمين لا أعرفهم في انتظاره..

- وأين نورسين؟

- في جناح الحريم يا سيدي وأستطيع أن...

دفعه كمال الدين بغلظةٍ بعدما تبدَّلت ملامحه، وخرج متوجهًا إليها وخطواته تترنَّح بسكرات الشهوة، لم يفلح في الدخول إلى الحرملك بسهولةٍ، فقد كان الأغوات والخصيان قد أغلقوا الباب من الداخل تنفيذًا لأوامر أمه العجوز بسبب تردُّد حارسه زهير كثيرًا بحجة تأمين الجناح، فظلَّ يطرقه بكلتا يديه في غضبٍ، وما إن انفتح الباب ببطءٍ حتى دفعه بشدةٍ فسقط الأغا الذي كان واقفًا خلفه، ركله كمال في بطنه وانهال عليه صفعًا مشهرًا خنجره في وجهه وهو يهزُّه بعنفٍ:

- أين نورسين؟

لم يقوَ الأغا على الكلام من شدة الخوف فاكتفى بإشارة من يده ناحية درج خشبي يوصل إلى حجرات الجواري.. صعده كمال في خطوات سريعة، كانت نورسين الجارية الوحيدة التي تشغل حجرة منفردة بأمر صاحبة الدار، لمح بابها مواربًا تلك المرة، وشاهدها وهي تتأمل النيل من خلف المشربية، فاقتحم عليها خلوتها وأخرجها من شرودها عنوة.. التفتت ناحيته خائفةً، فزعةً، وهي تلصق ظهرها بفتحات المشربية الضيقة،

وهو يقترب منها ببطءٍ كضبعٍ يوشك على الانقضاض في لحظة غدرٍ على غزالٍ شاردٍ، ممسكًا خنجره بيمينه وباسطًا يساره ناحيتها مناديًا إياها بنبرة مراهقٍ هائجٍ لتستسلم له، فأبت، اقترب أكثر وعيناه تنهشان جسدها في شهوة مستعرة، فردت ذراعيها في مواجهته لتبعده عنها، فتسمَّر في مكانه عنيدًا يبتسم في برودٍ قائلًا:

- لا فائدة من المقاومة، أنتِ لي، لن تفلتي مني تلك المرة مثلما فعلتِ منذ أيام.. لقد هرب الحسن وترككِ وحدكِ..

ألقى خنجره، ثم راح يجذبها من ثوبها الأسود المفتوح من جانبي بطنها فسهَّل مهمته، وفشلت مقاومتها له بعد أن صارت شبه عارية تحت وطأة كفيه الخشنتين الكبيرتين اللتين انتزعتا ما طالته من أطراف ردائها فتمزَّق وبات يكشف أكثر مما يستر.. جرى لعابه بين أسنانه واتسعت عيناه وهو يهمُّ بضمِّها إلى صدره.. فجأة لمح خيالًا يتراقص على المشربية وشعر بوخزة في رقبته، فاستدار فزعًا، كان الحسن وراءه لا يفصله عنه سوى نصل حربته المشهرة ناحيته والمثبت أسفل رقبته، قائلًا كلمة واحدة بحسم:

- اتركها..

فتراخت قبضة كمال الدين عنها وترهَّلت كتفاه بعدما استشعر الجدية في نبرة التهديد التي خاطبه بها الحسن، وأطرق وهو يبتسم ابتسامة بلا معنى، وعيناه تبرقان وتتسعان، تنهَّد بصوتٍ عالٍ، ثم نظر إليه قائلًا:

تذكر أنك مَن نقض الوعد وخان الاتفاق، فلا تلومنَّ إلا نفسك تلك المرة، أنا في حِلٍّ من دمك بعد اليوم..

أزاح نصل الحربة بيده بعيدًا وتركهما منصرفًا، بعد أن جذب باب الحجرة خلفه بشدةٍ فأحدث دويًّا مفزعًا..

.. انتفض الحسن من رقدته فجأة فوجد نفسه قرب الجزيرة وقاربه يتأرجح ويتمايل على صفحة النيل، وضع كفيه على وجهه لتلتحما مع عينيه في معركة طاحنة انتهت باحمرارهما من شدة الفرك كعادته..

تلفَّت حوله فلم يجد أحدًا من الصيادين على الجزيرة فجدَّف ناحيتها بهدوءٍ وربط قاربه بالوتد، تلفت حوله مرتين وذهب ناحية وتد آخر برز ثلثاه من باطن الأرض، تفرَّس في موضعه جيدًا ليطمئن على أن الأسلحة والبارود ترقد بسلام أسفله ولم تعبث بها يد غريبة، ثم خلع ملابسه عدا سرواله وقفز في الماء، غاب لثوانٍ ثم دفع جسده بقوةٍ ليشق صفحة النيل برأسه مغمضًا عينيه وهو يشعر بالانتعاش وراح بعدها يسبح ببطءٍ قرب الشاطئ وينظر كل برهة حوله وكأنه يرغب في البقاء عائمًا في النهر بعد أن فقد الأمان على البر.

***

11
المولد

احتفال شعبي مسحور يشع بالفرحة وينطق بالأهازيج، تنقشع الغيوم لتكشف من ورائها أشباحًا لرجالٍ يرقصون، تدور أجسادهم يمينًا ويسارًا على إيقاع امرأة متبرِّجة تغني وتنشد، ومن خلفها عازف ناي وطبّال وعشرات يدقون الدفوف، تموج الأجساد على قرع الطبول وعزف الألحان وضرب الدفوف وكأن الأرض قد انشقت فجأة وفاضت بطوفان من البشر..

سيدات ورجال وأطفال، عجوز أعمى يتكئ على كتفي ابنته بيدٍ، وبالأخرى يدب الأرض بعصاه الغليظة، والصبية الصغيرة تبسط كفها الرقيقة لتتلقّى عطايا الموسرين إذا ما جادوا بها.. يمرق بين الجموع رجل مسرع كالسهم، يرتدي ثيابًا رثّة وتتدلى على صدره عشرات القلائد من الصفيح والنحاس تُشخلل بصوتٍ عالٍ وهو يُطلق البخور من مبخرة فضية بدت لامعة نظيفة أكثر من ردائه لتنبعث نفحات عطرة تمتزج برائحة مولد السيدة زينب، أم العواجز، القادرة على لَمِّ هذا الجمع عن طيب خاطر في آنٍ واحدٍ مؤمنين بقدرتها الخارقة على شفاء مرضى العيون والعواقر..

وسـط دائرة بشـرية متباينة الأعمار تكبر تدريجًـا كالبالون، كان رواد المولـد يصفقون بحـرارة لقرداتي يأمر قرده بنوم العـازب، كانت الأمور تمضـي عاديـة حتى أفلت القرد فجأة من قيـده الحديدي المضفر، لم يره أحد من الرواد وهو يهرب مبتعدًا عن صاحبه، فقط وجدوه يقفز بعشوائية بينهـم، كل شـيء تم في لمح البصـر.. بدا القرداتي متماسـكًا وظل واقفًا مكانـه مكتفيًا بالصياح على قرده الذي كان يطلق صفيرًا عاليًا متقطعًا، ثم ينوح عاليًا.. تفرقت الصفوف التي كانت ملتفَّة على شكل دائرة وصارت كبالـون أُفـرغ من هوائه فجـأة، وراح القرد يتقافز فـوق الأكتاف، ويمرق بين السـيقان، ويلف ويدور في خفة وسـرعة ورشاقة.. علا صراخ بعض النسـوة هلعًـا على أطفالهـن، وتراجع الرجال ركضًا وقد سـقطت بعض عمائمهم من جرَّاء حركتهم المفاجئة بعدما شـعروا بارتباكٍ شديدٍ بعد أن كانوا سـاكنين، فتاهت منهم بعض التفاصيل الدقيقة التي تسـتعصي على العين وتنمحي من الذاكرة على الفور..

فجـأة كما بدأ، هدأ، وعاد القرد إلى صاحبه ممسـكًا بعمامة القرداتي التي كان قد جذبها في بداية غزوته المفاجئة على رواد المولد واحتضنها بحرصٍ شـديدٍ وكأنها كل ما يملك من دنياه، وراح يمطُّ شفتيه الكبيرتين ويقلِّب ملامح وجهه ليبدو تارة حزينًا، وتارة أخرى ضاحكًا في بلاهة..

سادت لحظات صمت لاستيعاب ما حدث، ثم تحرَّك العقل الجمعي إثـر تصفيق مرتين مـن القرداتي لتعلو وتيرة تصفيـق المتجمهرين حوله، ومـع ذلك أصر القرداتـي على تأديب قرده، فأمـره بالرقود وراح يضرب

الأرض عن يساره بخيزرانة سميكة، والقرد يصرخ في مشهد أتقن تمثيله من كثرة أدائه حتى بات الرواد هم مَن يستعطفون الرجل ليرحمه، فنزل على رغبتهم واصطحبه منزويًا وراء خيمة كبيرة تستبدل فيها الغوازي ملابسهن، معلنًا نهاية العرض وإسدال الستار ليحجب بينه وبين جمهور المغفلين، ووقف خلف الخيمة يغترف بكفيه الريالات الفضية التي سرقها القرد من عمائم الرواد في غارته المصطنعة عليهم بعد أن أثار فزعهم، ثم استغلَّ غفلتهم، ومع ذلك كانوا له من المصفقين حتى النهاية!

على مرمى البصر، عشرات الباعة الجائلين ينتشرون كالجراد، ينادون على بضاعتهم بنغم، فالطعام يتصدَّر كل أركان المولد ويلاحق روَّاده أينما ولوا وجوههم، تعلو أصوات البائعين بالنداء على الحمص والفسيخ والحلوى وشراب العرقسوس، على أضواء المشاعل والقناديل الزيتية المتناثرة بعشوائية تتراص عرائس المولد على حوامل خشبية بعضها مصنوع من حلوى، وغالبيتها من ورق أو خشب، وبجوارها يقف بشموخ وهيبة أبوزيد الهلالي راكبًا حصانه الشهير..

في أقصى اليسار، يرتفع صوت المنشد كلما تجمَّع حول شادر الحلوى عدد لا بأس به من المارة ليحكي سيرته، فيجذب الزبائن ويحثهم على الشراء في نهاية الموال وهم يتمايلون معه بأجسادهم منتشين، واقعين تحت تأثير خدر السيرة الهلالية، قناديل الزيت المنتشرة لا تكشف الوجوه بوضوح إلا عند اقترابها من مركز الضوء، تتلاحم في المولد أمواج البشر فيختلط الصالح بالطالح، والزاهد باللص، الراقصة مع المحتشمة..

يتمايل بشدة شحاذ يدق الدف في إيقاع سريع راقص لقرده المسلسل، وعلى مقربة منه قوَّاد يعبث بشاربه، وبيده الأخرى يلف مسبحة كبيرة زرقاء حول أصابعه في رقاعة وهو يفتش في عيون زبائنه عن الشهوة الكامنة خلفها.. على مقربة منه نُصب سيرك شعبي بسيط يلفت الأنظار، مقام على مساحة صغيرة محدودة بعد أن حطَّ الرحال في قلب القاهرة؛ ليستعرض قوة بدنية لثلاثة رجال يتبارون في حمل أثقال منبعجة غريبة الأشكال والأحجام، ثم ينتهي العرض بحمل أولهم للباقين على كتفيه لثوانٍ منتزعًا صيحات الإعجاب..

يشتد زحام كثيف حول رجلين يرتديان أزياءً مزركشة، ملفتة، مبهجة، يوزعان الحلوى بالمجان، كانا من الصوفيين الذين يستغلُّون الموالد لترويج طرائقهم، على مسافة غير بعيدة كان العبد صالح يقبع في سكون جالسًا القرفصاء، تغطِّي رأسه عمامة صفراء صغيرة، وعيناه كعيني صقر مثبتة على رجلٍ متوسط الطول، خمري البشرة، يميل إلى السمار، نحيف البدن وقد أطلق لحية مدببة رفيعة تبعث على الضحك أكثر من الوقار، ويرتدي عمامة خضراء ضخمة فاقع لونها، وثوب فضفاض يتسع لثلاثة رجال آخرين معه، كان الصوفي يتمايل يمنة ويسرة بغير دراية أو خبرة على أنغام الدفوف، ويرفع يديه عاليًا كل برهة مرددًا مع جمع الرجال المتمايلين معه:

يا بو المقام عالي

طه النبي غالي

ضمني يا نبي

حبيبي يا نبي

على الطرف الآخر من مدخل المولد يشق الجموع الحاشدة موكب كبير يبدو غير مُرحَّب به من نظرات القلق والارتياب التي ترمقه من كل حدبٍ وصوبٍ، ويتصدره نائب المحتسب كمال الدين سيف الدولة وحوله وخلفه بصاصين وفرسان، وأمامه بمسافة كافية بعض عساكره يفسحون له الطريق، وهم يهوون بسياطهم في الهواء لتلامس الأرض محدثة صوتًا مدويًا يبعث الرهبة والخوف في النفوس، تجوس عينا كمال الدين في المكان تتفرَّس وتتفحَّص الموجودين بدقة، ورجاله يرفعون عاليًا بأيديهم مصابيح كبيرة يقرِّبونها من الوجوه المندهشة أو تلك المبتسمة له في بلاهة..

كان البصاصون قد أخبروه بأن الرجال الملثمين الذين كشفوا النقاب عن مقتل حليمة المجذوبة غدرًا بدلًا من جنَّات هانم، متواجدون بالمولد فحضر بنفسه على رأس قواته، فهو الوحيد الذي يمكنه التعرف على ملامح أخيه الحسن بعد أن أعلن عن مقتله، فبيَّت النية وعقد العزم على قتله بيده تلك المرة ليمحوه من الوجود إلى الأبد.. كان يشعر بأن أيامه في دار الحكم بالقلعة باتت معدودة بعد أن كُشفت الخديعة وثار العامة ضده، ولولا انتشار المماليك واستعانته بكتيبة من الجيش العثماني لما تمكن من فرض سيطرته على أقسام مصر الثمانية مرة أخرى حتى هدأت الجموع الغاضبة، ولكانت الفوضى العارمة قد اقتلعت كل شيء في

طريقهـا كالإعصـار.. ولكنه ظل موقنًا بأنه الهدوء الذي يسـبق العاصفة، قبضوا على كل من سوَّلت له نفسه الكلام في هذا الموضوع، وأمر كمال الدين بقطع ألسـنتهم وألقيت جثـث مَن لـم يتحملوا التعذيب في صحراء الريدانية لتنهشها الذئاب.

ظـنَّ لوهلـة أنه قد حقـق ردعًا، ولكن ظـل هاجس غريـب ينقر عقله كطائـرٍ نهم، صبورٍ، يبحث عن ديـدان مختبئة بين ثنايا صخور وعرة؛ بأن المصريين سـيثورون عليه فجأة في وقت محدد طالما أن الحسـن ما زال هاربًا ولا يُعرف عن تدبيره شيء بعد أن فقد البصاصون خيط تتبعه عندما أعلن كمال الدين كذبًا أنه لقي مصرعه على يديه، وقدَّم لهم رأس وساف دليلًا فصدَّقوه..

ترجَّـل الركـب مخترقًـا المولـد بطوله ببـطءٍ شـديدٍ، وكمـال الدين لا يتوانى لحظة عن التفرُّس في الوجوه، فبدا كأم فقدت عقلها بعد أن تاه وليدها الوحيد في المولد، فهيأت له الظنون أن كل رجل يشـبه الحسـن، فـراح يقتـرب من هذا في فضـولٍ مريبٍ، وينـزع عمامة الآخـر في غلظةٍ وترقُّبٍ، ويدقق في ملامح ثالث بريبة وشك.. لمح على مقربة منه رجلًا ثلاثينيًـا واقفًـا على ناصية زنقة شـبه مظلمـة، له ملامح منفرة تشـبه الفأر بأنفه المعقوف ووجنتيه البارزتين، وقد شـلح جلبابه حتى منتصف بطنه، وقضـم على ذيله بأسـنانه محتضنًـا بذراعـه صبيًّا صغيرًا يفـرك ويحاول الفـكاك منـه بلا جـدوى، وقد كتم فمـه بكفـه، والصغير يُطلـق تأوهات مكتومة كل برهة..

أشار كمال الدين بعصبية لعساكره ناحيتهما ليهرول اثنان منهما على الفور وينهالا عليهما جلدًا مبرحًا فيتكوم الرجل فوق الصبي من هول المفاجأة، والسياط تلهب ظهريهما بلا رحمة أو تفرقة بين جانٍ ومجني عليه، تجمَّع بعض رواد المولد، وسرعان ما تزايد العدد تباعًا يتفرجون ويضحكون على الرجل الذي راح يلملم ملابسه ويخفي عورته، ينفعل أحدهم فجأة فيخلع مركوبه ويقذف به الرجل الشاذ، بينما الصبي الصغير يتأمل الناس من رقدته بوجهٍ باكٍ ودموعه تنهمر في صمتٍ ألمًا ومهانة.. مضى الموكب كمركب تائهٍ يشق صفحة البحر العاصف بغير هدى، وقد فقد اتجاهاته.

على يمينه كانت خيمة كبيرة بيضاء بهت لونها من الغبار، قد نصبت وتتصاعد من فتحة دخولها أبخرة الحشيش بكثافة، وتتعالى منها ضحكات الرجال وقرقعة الجوزة بلا حياء.. تنبه وأبطأ من مشيته وهمَّ بالإشارة لعساكره باقتحامها، إلا أن كبير بصاصيه همس في أذنه ببضع كلمات فهم منها أن الحشاشين القابعين فيها من البكوات، فغضَّ الطرف واستحثَّ ركبه على المضي قدمًا باتجاه غرب المولد وكأنه لم يرها..

اقترب موكب كمال سيف الدولة بعدها من بعض الصوفيين الراقصين المندمجين، وقد علت طبقة صوت منشدهم أكثر وأكثر لما زاد المتجمعون حولهم.. هنا التقت عينا كمال بعيني الحسن وهو يدور ويرقص في لحظة شعر معها الاثنان بأن الزمن قد توقف فيها تمامًا، فظلَّا ينظران إلى بعضهما البعض كفارسين يستعدان لنزال مرتقب..

شـعر كمال ببرودة غريبة تسري في جسـده، وقوة خفية تثنيه عن قتل أخيـه، تراقصـت صورتـه أمامه واهتزَّت بشـدة حتى بدت غير واضحة، تمايل الحسـن ببطءٍ وتراجع خطوات محسـوبة للخلف بينما راح كمال الديـن يشـرئب بعنقه ليتابعه بعد أن شـعر بثقل قدميه، فلـم يبرح مكانه.. ظل الحسن يتمايل كدرويش ذابت روحه عشقًا ليربكه أكثر، بينما ضلوع كمال الدين تموج بداخله قلقًا وتكاد تمزق لحم صدره غضبًا.. لم يدرك البصاصـون وبقية رجالـه الواقفين حوله ما الذي اسـتوقف قائدهم، ولم يعد بوسـعهم أن يشـقوا طريقًا آخر وسـط الزحام المحيط بدائرة الرقص والمنشد والعازفين..

رمق الحسـن العبـد صالح بنظرةٍ عابـرةٍ ذات مغزى، والـذي كان قد هبَّ واقفًا مصافحًا المسـاعد يعقوب الذي حضر لإيواء الحسـن في بيته وفقًـا لاتفاقه مع المُعلم جرجس، فلما وقعـت عيناهما على كمال الدين ورجالـه تواريا بعيدًا، وصالح يدعو بألا يصاب الحسـن بسـوءٍ وهو يتلو آية الكرسـي على عجل، بينما يعقوب يرشم الصليب على رأسه وصدره مرتين..

فـي لحظـات خاطفـة، كان الحسـن قـد تراجـع للصـف الثالـث من الراقصين، بينما تسـمَّر كمال في مكانه مجبرًا، لم يقوَ على اختراق السـد البشـري الذي تراص أمامه، وقد زادت كثافة الحشود وكأنهم على اتفاق ضمنـي لحماية أخيه من بطشـه.. ظل على أطراف أصابعه مشـرئبًّا بعنقه يتابع الحسـن وهو يتوارى خلف الجموع البشـرية التـي اصطفَّت خلف الراقصيـن أيضًا، حتى بدأ يتبخَّر من أمام عينيه كسـحابة دخان، فأفاق من

غفوته متنبهًا صارخًا بصوته الأجش: «اقبضوا عليه»..

ارتبك رجاله للحظات فلم يتبينوا مقصده تحديدًا، وظلوا ساكنين حتى أشار إليهم بيده صوب الصف الأخير من الراقصين، فاندفع عسكر المماليك ككلاب مسعورةٍ، لكن الطوق البشري السميك لم يسمح لهم باختراقه في يسر كعادتهم، فتعطَّلوا لبرهة من الوقت كانت كافية ليكتشف كمال الدين ورجاله عند وصولهم خلف المخيم القابع وراء الراقصين أن الحسن قد هرب وابتلعه الظلام الدامس، تاركًا خلفه ثوبًا أخضر فضفاضًا وعمامة من ذات اللون..

وضع كمال الدين يديه حول خصره في ضيق شديد، وعيناه تنظران بدقة محاولًا اختراق ظلمة الليل الحالكة لعله يتعودها، فيلمح شبح أخيه من بعيد، لكن لم يصافح نظره إلا العتمة، فلم يرَ شيئًا..

زفر في ضيق وكأنه ينفث لهبًا من شدة غيظه، ومن خلفه ظل المنشد متابعًا ما يحدث بنظرات ماكرة مختلسة خوفًا من العسكر، وصوته يعلو في عنادٍ بنبرةٍ شامتةٍ:

يا بو المقام عالي

طه النبي غالي

اعميهم يا نبي

انجدني يا نبي

***

12
جدار الرغبة

فُتحت أبواب قاعة فسيحة تعجُّ بالأرائك والحشيات، تتوسط جدرانها نوافذ عريضة عالية، ومشربيات كبيرة، تتناثر في أركانها صوانٍ فضية بأحجام مختلفة تتراص عليها أكواب وقنينات شراب ماء الورد وأباريق القهوة.. أغوات وخصيان وجوارٍ وعبيد يروحون ويجيئون في تكاسل يقطعون القاعة عدة مرات ذهابًا وإيابًا، ثم ينحرفون يسارًا في نهايتها؛ ليختفوا فجأة خلف عمود ذي قطر كبير كجذع شجرة عتيدة، فيبدون وكأنهم نفذوا من خلال الجدران عبر باب سرِّي مثل الذي يستخدمه كمال الدين للولوج إلى قبوه.. مسحة خفيفة من وجومٍ لا تكاد تُرى التصقت بالوجوه بعد غياب صانع البسمة العبد وساف للأبد، كانوا يحملون مناشف بأحجام متعددة وسراويل لامعة ملونة كبيرة وقباقيب خشبية.. يدخلون بها إلى حجرة الحمَّام بدار سيف الدولة.. كانت غرفة صغيرة نسبيًّا مقارنة ببقية حجرات الدار.. مبنية كلها من الحجر الذي يميل إلى الحمرة، يتوسطها حوض كبير بيضاوي، يكاد يبتلعها إلا قليلًا، حيث ترك ممرًّا صغيرًا لأدوات تدفئة المياه يسمح بالكاد لمرور شخصٍ واحدٍ..

استرخت وردشان زوجة كمال سيف الدولة شبه عارية داخل المغطس، تاركة كتفيها وذراعيها المكتظتين بالشحوم لإحدى جواريها تعمل فيهما أصابعها الطويلة بقوة حتى تكاد تغوص في لحمها السمين، بينما راحت تتسلى بتحريك قدميها تحت الماء، فتدفعهما بقوة مستمتعة، وتغترف بعضًا منه بكفيها لتمسح ما بين ثدييها وفخذيها وأسفل إبطيها برفقٍ، وعيناها تشيان بعُجب كبيرٍ ببياضها الشاهق ونعومة ملمسها، وكل برهة تنهر جاريتها السمراء الممشوقة القوام إذا ما آلمتها في أثناء تدليك ذراعيها أو أعلى رقبتها..

في مواجهة المغطس تمامًا، كان جدار رقيق - على عكس الجُدر الثلاثة الأخرى - يفصل بين غرفتي الخزين والحمَّام المتلاصقتين، تطل من أعلاه فتحتان صغيرتان تسمحان بالكاد بمرور إصبع واحدة من خلال كل منهما.. وقفت جارية أخرى قمحية البشرة، نحيلة، ينساب شعرها حتى ردفيها، تمسك بقطعةٍ طويلةٍ من اللِّيف، وباليد الأخرى تقبض على حجر أسود منبعج، محبَّب، خشن الملمس من أحد جانبيه في انتظار إشارة من سيدتها وردشان لتنظيف جسدها وفرك كعبيها وتنعيمهما..

خلف الجدار الرقيق، كان شبح رجل يتحرك بخفة قطٍّ متسللًا، أدار مقبض غرفة الخزين برفقٍ حتى لا يُحدث الباب صريرًا مزعجًا، دخل كمال سيف الدولة وهو يتحسَّس طريقه وسط أجولة القمح والدقيق وسُباطات البلح ومكاييل الوزن المتناثرة في عشوائية، ظل يسير على أطراف أصابعه، ثم انحنى ليزحزح جوالين كبيرين، ووضع أحدهما فوق الآخر، ثم اعتلاهما لاهثًا من فرط بدانته.. ضبط وجهه بدقة أمام

الثقبين المتجاورين وقد أغلق إحدى عينيه بشدة وراح ينهش بالأخرى المشدوهة جسد الجاريتين ويتأمل تفاصيل وثنايا كل منهما وهما تتلويان أمامه عاريتين تمامًا إلا من سروالٍ رقيقٍ شفافٍ يكشف أكثر مما يستر فيثير رغبته ويؤججها، كانت إحداهن تتكئ على ركبتيها، وتميل بمؤخرتها إلى اليسار قليلًا، تنظف كعبي وردشان، والثانية يتمايل نهداها كثمارٍ نضجت وحان قطافها، وهي تحرك قطعة الليف على ظهر سيدتها يمنة ويسرة في دلالٍ وحنوٍّ..

ظل محملقًا فيهما بعينين مفنجلتين تطل منهما الشهوة بشراهةٍ فجّة، وهو يجزُّ على شفته السفلى بشدة حتى جرحها، بينما أظافره تنبش في الحائط أمامه وكأنها تجرفه من شدة انفعاله، وأعصاب يده مشدودة كوتر على وشك التهتُّك، وكأنه سيقبض على جزءٍ من الجدار بحجم قبضته لو استطاع.. توترت أعصابه أكثر عندما طاف بمخيلته هاجس كئيب، حين استدعى الجاريتين تباعًا إلى فراشه فلم يفلح في كل مرة وكأنه يُصاب بصدمة إذا ما تلاقت عيناه بعيني جاريته وقت الجماع، فيتحوَّل إلى أغا من أغوات الدار لا يحرِّك ساكنًا، أغمض عينيه بشدة ولعن في سرِّه العطار الذي جرَّب كل وصفاته فلم تفلح واحدة في تحريكه خطوة واحدة نحو الشهوة..

تلألأت حبة عرق على جبهته، سرعان ما تبعتها حبَّات أخرى دافئة انزلقت من منتصف رأسه فتدحرجت بين خصلات شعره حتى تساقطت ببطءٍ على جبينه، وبدأت تأوهاته تعلو وأصوات أنفاسه المتلاحقة ترتفع وقد تقوَّس ظهره قليلًا مثل قطٍّ متأهب للعراك، في حين كانت الجارية

التي في مواجهته منهمكة في عملها، وجسدها يرتجُّ مع حركاتها، وليونة جسمها تثيره أكثر وهو يتصورها في مواضع مختلفة بمخيلته..

وبينما كانت وردشان مغمضة العينين، غارقة في استرخائها، فإنها مع تبديل ساقيها لتنظيف الكعب الآخر رمقت المكان بنصف عين كسولة، ثم تجهَّـم وجهها عندما مرَّ الخاطر بذاكرتها كالمعتاد، ولمحت أحد الثقبين ينغلـق وينفتح، فهبَّت من رقدتها بصورةٍ مباغتةٍ وقد تنبهت كل حواسـها واستنفرت قواها حتى أزاحت كثيرًا من الماء خـارج المغطس فأفزعت الجاريتين، جذبت الحجر الأسـود من يـد إحداهن بعصبية وقذفته ناحية إحدى الفتحتين وهي تطلق سيلًا من السباب بلا توقُّف..

تراجـع كمـال الدين لا إراديًا وهـو يبصق على الحائط فـي اتجاهها، وجلـس قليلًا على الجوالين ليلتقط أنفاسـه حتى هدأ ومسـح عرقه بكفِّه الأخـرى النظيفـة، وغادر كما جـاء، ولكن تلك المـرة كان زائغ العينين، مكفهر الوجه، مطرق الرأس قليلًا..

***

علا صوت دقات منتظمة لعصاها وهي تنقر الأرضية الخشبية للطابق الثانـي، معلنة عن قدوم الأم العجوز.. اقتربت ببطءٍ من المشـربية القبلية التي تطلُّ على حديقةٍ صغيرةٍ لأشـجار البرتقـال واللارنج خلف الدار.. التفتـت إليها نورسـين، ثـم هرعت تعاونها حتى أجلسـتها علـى أريكتها البيضـاء الوثيـرة العريضـة، التي تفضلها دومًـا، وقد بدا عليها الاشـتياق للحديـث عـن خلجـات نفسـها ونوازعهـا العاطفيـة، منتزعـة لقطـات

عشـوائية من ذاكرتها البطيئة عن ماضيها الجميل.. خلعت عنها نورسـين نعليها ووضعت قدميها المتورمتين على وسـادة منتفخة، وراحت تدلِّك أصابعها برفقٍ ولين..

ربَّتت الأم رأسها في حنوٍّ قائلة:

- أشكرك..

- أنا جاريتك يا سيدتي، لا حاجة لأن تشكريني..

- لم أشعر يومًا أنك جارية، تبدين مختلفة عن الأخريات..

أطرقت نورسين خجلًا فأردفت العجوز بنفس النبرة الحانية:

- صدقينـي لـو قلت لك إنني أشـعر بأنـكِ في منزلة ابنتـي، ولا أبالغ إذا مـا قلـت إنني كنت أفتقد وجـودكِ وكأنكِ غائبة عنـي منذ زمن بعيد.. تمنيت أن تكون لي ابنة، ولكن الله قسم لي ولدين مختلفين تمامًا في كل شيء.. أحدهما يُثلج صدري والآخر يوغره ويضرب جنبات قلبي بشدة حتى يوجعه..

قالتها وتنهَّدت بعمقٍ..

رفعـت نورسـين عينيها الواسـعتين المشـرقتين وهي تقـول بصوتها الدافئ:

- وأنا أيضًا يا سيدتي لم أشعر بأي غربة في هذه الدار، ولولا معاملتك الكريمة وحنوّ مولاي الحسن لما تحمَّلت البقاء يومًا واحدًا..

صمتت فجأة بعد أن شعرت بالخجل في أن تتحدث عن الحسن أكثر من ذلك..

أبعدت الأم كفي نورسين عن قدميها واحتضنتهما بيديها قائلة:

- لقد طلبت من الحسن أن يعتقكِ، ووافق، اعتبري نفسكِ حرَّة منذ اليوم، وقلت له أيضًا أنني أرحب بكِ إذا ما أردتِ أن تعيشي معنا هنا، ولكنه مختفٍ، لا بد أنه قد سافر كعادته، أنا لم أعد أعرف شيئًا عن أحواله منذ فترة وقلقة عليه، والوحيد الذي كان يطمئنني هو العبد وساف..

ثم أطرقت وقد اكتسى وجهها بلمحة حزن خفيفة قائلة:

- لقد أخبرني كمال الدين أن وساف قد هرب بعد أن سرق مالًا من الدار، ولم يشأ كمال الدين أن يعاقبه إكرامًا لخاطري، ولكنه أقسم بألَّا يعود للعمل لدينا مكتفيًا بطرده..

سكتت مرة أخرى، ثم برقت عيناها الضيقتان والشك يطلُّ منهما مزاحمًا تجاعيد وجهها:

- لكنني لم أعد أصدقه في كل ما يقوله، فلم يسرقنا أحد منذ سنوات بعيدة، وأعتقنا كثيرين وأحسنَّا معاملة الجميع، فما بالك وأنا مَن ربَّيت وساف منذ أن كان طفلًا صغيرًا في عمر أبنائي.. لا يمكن أن يسرق، ولا أن يتركنا ويختفي هكذا..

ترقرقت الدموع في عيني نورسين ولم تجبها.. امتدت يد الأم المرتعشة ووضعت أناملها على ذقن نورسين لترفع وجهها الحزين

ناحيتهـا، فلمـا رأته باكيًا انزعجت، وقبل أن تسـألها عمَّـا يحزنها أجابتها بنبرةٍ حزينةٍ بعد أن تلفتت بعيون قلقة حولها:

- يا سـيدتي، مولاي الحسـن هرب خوفًا من بطش أخيه وعقاربه من المماليك، ولكنه في أمان حتى الآن، لا تقلقي..

ثم همست:

- صالح يعرف مكانه ويطمئنني عليه..

انفجرت نورسـين بعد حديثها في بكاء شـديد كان يضيق به صدرها فخـرج كالفيضان، ثم دفنت رأسـها في حِجر السـيدة العجوز التي مالت أكثـر بصدرهـا عليها في رفق وهي تضـع كفًّا على بطنهـا والأخرى على قلبهـا، ثـم انسـابت مـن عينيها ببـطءٍ هي الأخـرى دموع كانت حبيسـة، ولكنها قليلة وكأنها آتية من بئر عميقة جفَّت مع مرور الزمن..

انتبهت نورسـين فجـأة وكأن مناديًا خفيًّا يناديها، ثم تبسَّـمت وراقت قسـماتها حتـى أشـرقت، ومثلما تتهـادى الـروح الجزلة علـى أرجوحة العشق والغرام، هدهد وجدانها صفير جميل منغَّم يشبه صوت الكروان، وتسـلَّل إلى أذنيها برفق دون اسـتئذان، فرحبت به باشـتياقٍ، وانسـحبت كقطـةٍ وديعةٍ من بين ذراعي الأم العجوز؛ لتقترب من المشـربية وتلتصق بها كأنها تريد أن تخترقها بجسـدها، بعـد أن عبرت من خلالها بوجدانها لتهبط بين يديه، راحت روحها ترفرف وتضرب بجناحي الشوق والرغبة علـى جانبي ضلوعها فتورَّدت وجنتاها بشـدة وهي تلمح الحسـن يشـير لها بيده ملوحًا، مرتديًا زيًّا أشـبه بالمتصوفـة، ويعبث بلحيته المدببة التي

أطلقها على سجيتها مؤخرًا، ظل مبتسمًا لها، يغطِّي رأسه شال من الحرير الأخضر، تركه ينسـدل على جانبي وجهه ليغطي ملامحه، لكنه لم يُخفِ مشاعره..

هبطـت مسـرعة وهي تهمس باسـمه.. يتحـوَّل بكل حواسـه ناحيتها ليولي وجهه إلى قبلة غرامها، كان يذهب إليها ومعها كالسـائر وهو نائم، مخدر العقل، متقد العاطفة.. مستمتعًا بما يخبئه له القدر كل مرة.

- إلى أين سنذهب؟

قالتهـا بصوتهـا الشـجي الـذي تطرب لـه كل حواسِّـه كلما سـمعه، فجذبهـا مـن كفها الرقيقة برفـق، تعانقت أناملهما في شـوق ولهفة ليُذيبا بحرارة مشـاعرهما لوعـة البُعد المؤقت، وينطلقا وهمـا يعدوان كطفلين يبعـدان بأيديهما أغصان شـجر اللارنج المتدلية بثمارهـا تظلِّلهما، حتى بلغا المرسـى عبر الحديقة ليسـتقلَّا قاربه الخشـبي، ويهيم هو في عيونها الواسـعة وهي تخفض جفنيها خجلًا لينسـدلا برفقٍ يحرسـهما حاجباها الكثيفـان كالأهلَّة فيثيـرا خياله ويلهبا مشـاعره لتدبَّ في جسـده النحيل الحماسـة أكثـر، ويجـدِّف بقوة حتـى الشـاطئ ليطارحها الغـرام في ليلة مقمرة بجزيرته التي ينعزل فيها معها عن دنياه كلما التقيا مصادفة.. لكنها دومًا مبهرة.

راح صدره يعلو ويهبط وهو يجدِّف ببطء في طريق العودة، والابتسامة تقـارب أذنيه من وسـعها في فرحة، وعينـاه تعانقان وجههـا الصبوح في غرام.. أطرقت نورسـين خجلًا وهي تبتسـم في حبور، ثم رفعت رأسـها

ببطءٍ تتأمل وجه الحسن وعينيه السوداوين وهما تبرقان، وروحه منتشية بالأمل، وهو يتغزَّل في جمالها:

- نورسين.. أنتِ امرأة تشرق الشمس على ثغركِ عندما تضحكين، وتتسرَّب من بين أناملكِ رائحة الياسمين إذا ما صافحت راحتيكِ، ويسطع القمر فوق رأسكِ كلما ذابت النجوم عشقًا في جمال محيَّاكِ..

ترك المجدافين يغوصان في صفحة النهر الرائقة مستلقيًا على ظهره بطول القارب، ساندًا رأسه برفق على ركبتيها، سابحًا في ملكوتها وهي تعبث بأناملها الرقيقة في خصلات شعره الفاحم، فتتخلَّلها برفقٍ فيذوب عشقًا ويغمض عينيه، وراحت نورسين تداعب مخيلته بأحلام الغرام بصوتها الهامس الرقيق المنغم، وطائر الكروان يحلِّق في مكانٍ مجهولٍ قريبٍ منهما، ولكنهما يسمعان تسبيحه لصاحب الملك فيطمئن فؤادهما..

***

نهض الحسن من نومه وهو يفرك عينيه بشدة كالمعتاد، ثم افترش الأرض أمام منضدة خشبية متهالكة ومنخفضة للغاية، غُطِّي سطحها بقطعةٍ من قماش أبيض متسخٍ ببقع متجاورة مع ثقوبه المتناثرة بعشوائية وكأنها لوحة سيريالية كئيبة.. جلس أمامه المساعد يعقوب بوجهه المبتسم المشرق دائمًا، وعينيه الخضراوين اللتين تلمعان قائلًا بودٍّ بالغٍ:

- تفضَّل، مد يدك..

ثم أردف ضاحكًا:

- بسم الله..

لـم يكن الحسـن في حاجـةٍ لمن يضايفـه أو يحثه على تنـاول طعام؛ فقـد كان يتضـوَّر جوعًـا ولـم يـذُق طعـم الأكل والنوم منذ يـومٍ ونصف اليـوم، عندمـا غافل حرَّاسـه وهرب من دار أخيـه مسـتعينًا بالعبد صالح وملابس نورسـين، فخـرج متخفيًا في ثيابها، واضعًا اليشـمك السـميك مثلمـا فعل وقت إصابته.. راحت لقيمـات الجبن الأبيض المغموس في زيت الزيتون وقطع الطماطم التي تتكئ على فصوص الثوم تتراص فوق بعضها البعض بمعدته، وهو يدفعها دفعًا بكفِّه، ويلتهم في أثنائها بيضتين مسـلوقتين، ورغيفًا من الخبز.. رغم انشـغاله في الطعـام بتلذُّذٍ كان يبدو حزينًا، مهمومًا لمقتل حليمة غدرًا، ومن قبلها العبد وساف.. شعر بألمٍ لا يزال يتجرَّع مرارته، ولم تفارق صورتاهما مخيلته أبدًا.. وصف مشـاعره للمعلم جرجس ويعقوب بكلماتٍ قليلة:

- أخـي كمـال الديـن غرس كفه فـي صـدري وانتزع ثلثـي قلبي، ثم تركني أنزف ببطءٍ..

توقفـت إحـدى اللقيمـات في حلقـه، فتحشـرج، وانتفخـت أوداجه، وجحظـت عيناه قليلًا وهو يسـعل.. هبَّ يعقوب علـى الفور وهو يضرب علـى ظهـره ويمد يده إليه بقُلَّة الماء.. تجرَّع الحسـن جرعة كبيرة منها، ثم مسح فمه بظهر كفِّه وتزحزح إلى الوراء زاحفًا حتى استند إلى وسادةٍ كبيرةٍ ضخمةٍ، لها ملمس مخملي ناعم، وظل يحملق في وجه يعقوب شاردًا..

- ألن تكمل طعامك؟

هزَّ الحسن رأسه نافيًا، ثم أجابه بصوتٍ خفيضٍ:

- هل تظن أنهم سيفتشون عني هنا أيضًا؟

اعتدل يعقوب في جلسته، وتوقف عن الطعام قائلًا بجدية:

- أحسب ذلك، فقد ذهبوا بالأمس إلى دار المُعلم جرجس وهدَّدوه، وعلمت اليوم أن أخاك كمال الدين ترك بعض البصاصين بالقرب من داره لمراقبته.. سيتتبعونك في كل مكان يحتمل أن تذهب إليه..

نظر الحسن عبر النافذة الصغيرة البعيدة، كانت السماء تبدو صافية، لمح طائرًا يحلِّق عاليًا، فنهض واقفًا في تكاسلٍ واقترب.. بَدَا له الطائر من الجوارح، صقر أو ربما نسر، لم يستطع التحديد، كان يدور في دوائر معكوسة ولا ييأس من أن يعيدها كل برهة.. ظل يتأمله سارحًا حتى انتبه له عندما وجده يُضيق من قطر دائرته رويدًا رويدًا، ويقلِّل من سرعة طيرانه، ثم راح يخفض من ارتفاعه تدريجًا.. دار الطائر الجارح دورتين، ثم فرد جناحيه وثبتهما تمامًا..

توقفت الرفرفة وبدا الصقر متصلبًا في قلب السماء، ولم تمضِ لحظات حتى كان يهوي منقضًّا على فريسته المستقرة في الحقل القريب من الدار، وهي تظن أنها آمنة وسط المزروعات الكثيفة..

ابتعد الحسن عن النافذة وقد عقد ذراعيه على صدره مبتسمًا في هدوء الواثق، المطمئن، ثم التفت إلى المساعد يعقوب قائلًا:

- لا تقلق، فما زال الوقت كافيًا.. إنهم حاليًا يرفرفون..!

***

13
الزفاف

«انحرف موكب محتسب القاهرة قبل مدخل القلعة الرئيسي، وسلك مدقًّا رمليًّا صاعدًا ناحية البرج الغربي، توقف دق طبول الطبلخاناه المصاحبين له بإشارة من يده، وهدَّأت الخيل من سرعتها حتى دخلوا مقر الحكم في سكون في الربع الأخير من الليل وكأنهم لصوص، انفصل أربعة فرسان عن الركب المتوجِّه إلى قاعة المحتسب، وانحرفوا يسارًا، ثم أطلقوا لخيولهم العنان حتى بوابة سجن العرقانة، فتحت البوابات الحديدية الضخمة محدثة صريرًا مخيفًا تردَّد صداه في جنبات الدهليز المؤدي إلى زنزانة صغيرة ضيقة، تجبر الداخل إليها على الانحناء قليلًا، دفع حارسها الباب بقدميه، وعيناه مثبتتان لأعلى دون أن يتخلَّى عن صرامة وجهه، كان كمال سيف الدولة يقبع متكومًا في أحد أركانها بلحية تعلوها غبرة، وشعر أشعث، وعمامة بالية متسخة ترقد على مقربة منه، مثخنًا بالجراح من شدة التعذيب، وقد برقت عيناه في فزع مَن يرى مَلَك الموت يقترب منه ببطءٍ قبل أن يقبض روحه، انتزعه جنديان من رقدته وهو يقاومهما، وكأنهما يقتلعان شجرة عتيدة من جذورها، حاول اختلاس نظرة إلى خطوط كفِّه اليسرى فظلَّت منقبضة، تيبست أصابعه،

فلما حاول فردها أمسكه الجنديان منهما وثنياها مرة أخرى بقوةٍ وغلظة، ظل متسمرًا في مكانه لا تقوى قدماه على السير فسحبوه عنوة، راح يجرهما خلفه وقد خارت قواه تمامًا..

«أنت أظهرت سوء النية، لم تراعِ ضميرك، ولم تحفظ أمانة، خُنت العهد فانتشر الفساد في البلاد على يديك، وحقَّ عليك العقاب، وحانت الآن لحظة القصاص...

لم يصدِّق كمال الدين أذنيه وهو يستمع لما يقوله المحتسب، وظل ماثلًا بين يديه في خنوعٍ وخوفٍ كفرخ يمام صغير سقط في عش النسور، راح يتأمل الواقفين حوله بدهشةٍ ممزوجةٍ بالخوف، وأوصاله ترتعد بعدما فقد السيطرة على نفسه حتى بات يتمنى الانهيار ليتخلَّص من كابوسه.. ابتسم كبير البصاصين في تشف، وراح القاضي عثمان ركن الدين يجزُّ على أسنانه متعجلًا مشهد النهاية في غلٍّ يتوهَّج على نار الانتقام، أما مساعده الأقرب زهير، فقد كان يقف متراخيًا في لا مبالاة، وهو يرتدي خاتمه وقلادته الذهبيين، وبجواره وردشان تتأبَّط ذراعه بدلالٍ في بجاحة، عشرات من المهمَّشين المجهولين تبدو ملامحهم غير واضحة يقفون بعيدًا ويرفعون أيديهم لأعلى، وقد اخترقت أذنيه عبارات متقطعة لدعائهم عليه.. هزَّ رأسه بشدةٍ وتحسَّس مقدمة صدره، حاول أن يتماسك، وبدأ يُلملم شتات نفسه استعدادًا للإجابة عن السؤال التقليدي عمَّا إذا كان يرغب في درء التهمة عن نفسه..

فجـأة، شـعر وكأن أحدهم قـد هوى على رأسـه بمطرقـةٍ، فقد صاح المحتسب في نبرة تشي ببدء التنفيذ:

- جلهوم...

صرخ كمال متوسـلًا راجيًا، وعيناه تتنقلان في سـرعة البرق بين وجه المحتسـب الصـارم، ونظـرات جلهوم البـاردة، وهـو يتقدَّم نحـوه ببطءٍ كعقربٍ ضخمة، تتظاهر بالسـير في طريقها، ثم تغرس سمومها فجأة في جسد ضحية استلقت آمنة..

اسـتلَّ جلهوم سـيفه من غمده، ووقف على يسـار كمـال الدين الذي اعتصره اليأس حتى طحنه وفتَّته كما تدور الرحى فتسوي الحبوب كحبَّات الرمـال الناعمـة، أطرق برأسـه ندمًـا، رفع جلهوم السـيف مائـلًا، ورجع خطـوة إلى الوراء، وفي ذات اللحظة، لمع النصل تحت شـعاع الشـمس المتسـرِّب من بيـن ثنايا النافـذة ذات الثقوب الزجاجيـة الصغيرة المثلثة، لمحـه كمال الدين بالكاد في ومضة خاطفة، بعدها طار رأسـه بعيدًا حتى اسـتقرَّ قرب قدمي المحتسـب، كانت عيناه مفتوحتيـن، ذاهلتين، مثبتتين لأعلـى، وكأن جفنيه قد انقبضا على مشـهد السـيف وهو يهوي كالسـيل باترًا رأسـه، تأمل المحتسـب الرأس قليلًا في قرفٍ، ثـم ركله بقدمه بقوةٍ ليرتطم بالجدار..

انتفـض كمال الدين في سـريره مفزوعًا وهو يمسـك بمؤخرة رأسـه متألمًا، والعرق يتفصَّد من كل جسـده بلا انقطاع، حتى شعر لوهلة أنه قد بال في فراشـه من قتامة الكابوس وشـدة بلل جسمه، لم يقوَ على الحراك

لفتـرة، مرَّت عليه الدقائق بطيئة وهـو يتذكر تفاصيل الحلم ويعيدها على ذاكرته بالتفصيل، وكأنه يتلذَّذ بتعذيب نفسه، ثم تمتم:

- كل ذلك بسبب أفعال الحسن الملعون، لكنني الآن أعرف الوسيلة التي ستجعله يظهر من جديد ويرضخ لي رغمًا عنه..

تدلَّت قدماه من يسار سريره النحاسي الضخم، بعد أن أزاح الناموسية البيضاء المنفوشة ذات الخيوط الحريرية المطرَّزة على هيئة طيور بضربة كفٍّ واحدةٍ.. شعر بأن ساقيه لا تقويان على حمله فظلَّ يحملق فيهما في شرودٍ، ويضغط عليهما كأنه يحفزهما ناظرًا لقدميه المفلطحتين الحافيتين علـى الدرج الخشـبي الصغيـر المثبت بجانـب سـريره، وكل موضع في جسـمه يؤلمه بشـدة، حتى تحامل على نفسه ونزل، رمقته وردشان بنظرةٍ متفحصـةٍ مسـتغربةٍ، لكنها لـم تُعره اهتمامًا كبيرًا، وأشـاحت بوجهها عنه منشغلة بترتيب أدوات زينتها.. ظلَّ ينظر إليها ساكنًا كمَن يستمدُّ الطمأنينة من مشـهدٍ طبيعي في داره، وكأن الكابوس لا يـزال ملتصقًا بمخيلته، ودَّ لو سألها عن هواجسه في علاقتها بزهير حارسه الأقرب، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، ثم دفع باب حجرته مناديًا على العبد صالح:

- استدعِ الفارس زهير الآن.. فليحضر فورًا من القلعة للقائي هنا في الدار..

أطلَّت الدهشة من وجه صالح قائلًا:

- ولكن الفارس زهير هو الذي يتولى قيادة حراسـة دارك يا سـيدي، وهـو شـبه مقيم معنا منذ فتـرةٍ.. بل إنه الآن علـى رأس البرج الذي يضم جناحك!

قالها وهو يشير إلى أعلى بإصبعه..

بارتيـاب ظـلَّ كمال الدين ينظـر إليه كمَن لا يصدِّق، ثـم عقد ذراعيه على مقدمة صدره وبدا شاردًا بطيء التفكير، قضم أظافره، ثم تأمَّل راحة كفـه، وراح ينظر إلى خطوطها بدقة حتى هدأ تمامًا، ثم التفت إلى صالح سائلًا بنبرةٍ خفيضةٍ وكأنه لا ينتظر إجابة ولا يرغب في سماعها:

- منذ متى وهو يقيم معنا؟ ومَن كلَّفه بذلك؟! ماذا يفعل تحديدًا؟!

- مولانا المحتسب هو الذي كلَّفه يا سيدي حسبما أخبرنا زهير، وهو معنا منذ فترةٍ لكنها ليست بالبعيدة، وقد نشر رجاله بالأقواس على سطح الدار وملحقاته، وأيضًا...

بَتَـر كمال الدين حواره مع صالح بجملـةٍ واحدةٍ، وولَّاه ظهره متجهًا إلى جناح أخيه الهارب قائلًا:

- أحضروا لي زهير إلى هناك..

ثم التفت فجأة وبنبرة محذرة:

- بمفرده يا صالح.

***

لـم يصبر الحسـن كثيـرًا على المسـاعد يعقوب حتى يلتقط أنفاسـه، وظل يستحثه على الكلام إلى أن قال له:

- أخبرنـي المعلم جرجس بأن كمال الدين أطلق عشـرات العسـس والبصاصين خلفك في كل مكان يحتمل وجودك فيه، وأمر رجاله بحرق

أي دار أو حانوت يشتبه في اختبائك فيه، حتى حانوتك فتشوه وأحرقوه، وهـذا ما يفسـر سـر حرائـق وكالات ودكاكين الغوريـة والباطنيـة الأيام الماضية.. الأمر مختلف تلك المرة؛ فهم يريدون قتلك..

سكت يعقوب برهة ليلتقط أنفاسه، والحسن يثبِّت عينيه في لهفة على وجهه منتظرًا بقية الحديث..

- كمـال الدين يسـتخدم مرتزقة أيضًا ويغريهـم بالذهب ليُحضروا له رأسك، ولا أمل لك في النجاة إلا إذا هربت من مصر، لكن...

قاطعه الحسن بحدةٍ غاضبًا قائلًا:

- أهـرب إلى أين؟! لو هربت سـيُقال إنني جبان، أنا سأسـلم نفسـي وكفـى اللـه المؤمنيـن شـرَّ القتـال، والله هـذا أهـون عليَّ مـن الهرب.. ولا يهمني حرق دكاني؛ فالمخطوطات في مكان آمن.

قالها وهو يتأمل حربة صيد العقارب في شرود..

هزَّ يعقوب رأسه وتجرَّع بعض الماء من قُلَّة قريبة، وقال بنبرة يائسة:

- يبدو أن ذاكرتك قد شاخت؛ فالقائد محمد علي اقترح عليك كشف المؤامـرة أمـام الوالـي، وفضح جرائم أخيـك نائب محتسـب المماليك وإخبـاره بأنك ما زلـت حيًّا، ولكنك تراجعت حتـى لا يُقتل كمال الدين بسببك.. حتى المخطوطات رفضت تسليمها لرجال محمد علي حسبما طلب منك.

وضع الحسن رأسه بين راحتيه جالسًا القرفصاء وسط الغرفة الضيقة، بينما كان يعقوب ينظر من خلف المشربية متواريًا، يراقب الطريق خوفًا من أن يكون العسس قد تتبَّعوا أثره بعد خروجه من دار المُعلم جرجس، رغم أنه اجتهد في تضليلهم، فلما اطمأن التفت إلى صاحبه قائلًا:

- على أي حالٍ المحتسب ينتوي الخلاص من كمال سيف الدولة قريبًا بعد أن علت أسهمه وارتفع نجمه وبات قاب قوسين أو أدنى من منصب المحتسب نفسه، تذكر أن تربية الأفعى لا تحمي من لدغاتها، وأنت مخطئ في تسامحك مع أخيك..

هزَّ الحسن يديه يمنة ويسرة رافضًا مجرد الحديث في أمر كشف مؤامرة كمال الدين، ثم قال فجأة بنبرة متفائلة:

- ولكن كيف سيتعرَّف البصاصون عليَّ الآن وقد أخبرهم كمال الدين بأنه قتلني؟

ضحك يعقوب قائلًا:

- المماليك كلهم يدركون أنك في عداد الأموات منذ أن رأوا رأس وساف، لكن كمال الدين أقنعهم بأن الفارس الملثم بوشاح أخضر هو أحد أقرب رجالك الخطرين، وأنه يعرفه، فأعطى أوصافك للبصاصين والعسس والمرتزقة، فصرتما الآن شخصًا واحدًا، الشاطر حسن قد قُتل، والبحث الآن عن الملثم الأخضر لقتله..

قالها يعقوب وهو يضحك..

زمَّ الحسن جبهته وظهر الضيق جليًّا على وجهه وهو يتذكر وساف المسكين الذي طار رأسه بدلًا منه، اقترب منه يعقوب وهو يربِّت كتفه قائلًا بنبرة غامضة تستفز العقل وتحرِّضه على التفكير:

- لا تحزن، فلا يزال أمامنا مخرج وحيد.. اتفقت عليه مع المُعلم جرجس.

رفع الحسن رأسه في يأسٍ وعيناه تنظران إلى يعقوب بلا مبالاة وهو يقول بصوتٍ مكتومٍ:

- وما هو؟

أطرق يعقوب خجلًا لوهلة، ثم أطلَّت ابتسامة على وجهه المشرق قائلًا في حماسة:

- الزواج...

***

تسلَّلت نظرات كمال الدين في قلق من خلف نوافذ حجرة أخيه الكثيرة المكشوفة على كل المخارج والمداخل، لاحظ انتشار رجال مسلحين يطوفون في خطوات منتظمة لا تنقصهم الهمة والجدية.. سرت بجسده رجفة، ولوهلة شعر بأنهم يتحفظون عليه في داره وليسوا يحرسونه فحسب، تنهَّد بعمقٍ وهو يتوارى، ونظر إلى الأفق البعيد لعلَّه يلمح ما يصادف قبولًا لهواجسه من انتظار الموت على يد مجهول.. زفر بضيقٍ وهو يتحسَّس قلادته الذهبية، وقبض عليها بشدة، لم يشعر أبدًا

بالطمأنينة، دائمًا يراوده الإحساس بأنه مهدَّد في حياته، يأسره الخوف، ثم يطلق سراحه ليقع في براثن القلق، وما إن ينجح في الإفلات من خيوطها المتشعبة حتى يصطاده التوتر فيضربه في مقتل؛ ليظل يرفرف بلا تحليق كالطير المذبوح، فيصيبه الدوار، ولكنه لم يطلق صيحة البجعة الأخيرة بعد، كاد ينظر إلى كفِّه كعادته، لكنه قبضه وأغمض عينيه مقطبًا جبينه، مسدلًا سُحب غضب مكبوتٍ على جفنيه، مستندًا بكفه على الجدار، بينما يقبض بالأخرى على خشب المشربية، وقد امتلأ بالضجر حتى فاض سأمًا من نفسه..

طرق باب الحجرة طرقتين، فتهلَّل وجه كمال الدين لبرهةٍ عندما وقعت عيناه على زهير وهو يدخل عليه بجناح أخيه الحسن، لكن سرعان ما اربدَّ وجهه عندما لاحظ تبدُّل حاله، دارت الهواجس دوران الرحى في رأسه، كان زهير يبدو في هيئة مسترخية نوعًا ما، توحي قسماته وثيابه بأنه صاحب دار، سيدها، وليس مجرد قائم على حراستها وحماية ربيبها، فأدار وجهه ناحية النافذة العالية وهو يجزُّ على أسنانه محاولًا طرد الظنون الملحة من ذهنه، وصورة وردشان تتراقص أمامه، فلم يلحظ، بسبب توتره وجود ابنه ناجي الذي تكوَّم بداخل الكوَّة متسترًا وراء كوم من الثياب، بعد أن خشي مواجهة أبيه وعقابه لتردُّده على جناح عمِّه الهارب حتى بعد غيابه.. فانكمش الفتى يُنصت برهافةٍ..

خرج صوت كمال مترددًا وهو يتعمَّد عدم النظر إلى عيني زهير

- مَن الذي كلَّفك بتولي حراسة الدار والإقامة فيها؟ ولماذا لم تخبرني قبلها؟

أجابه زهير بثقة:

- مولانـا المحتسـب بنفسـه، لمَّا علم أنـك تخاف علـى حياتك من المصرييـن بعـد أن كشـف الملثم وجـه المجذوبة حليمـة، وأنك رفعت مظلمة بالحماية لمولانا السلطان، وقد كنت أنوي إخبارك ولكن...

قاطعه كمال متظاهرًا بلا مبالاة:

- وهل الدار مؤمَّنة جيدًا الآن؟

ضحك زهير ضحكة مبتسرة وهو يجيبه بذات الثقة، وإن علت نبرتها أكثر:

- لا شـك في ذلك، عشـرة من رجالنا ينتشـرون بالأقواس والسـهام فـوق السـطح، ومثلهم وأكثـر كالجراد بالبنـادق والطبنجات والسـيوف في مداخـل ومخارج الدار، حتى الحديقة الخلفية ومرسـى النهر نبسـط سـيطرتنا عليهما تمامًا.. لا تقلق، فمَن يقترب سـيكون في عداد الأموات قبل أن يخطو أولى خطواته داخل حرم الدار..

- حسـنًا، اسـمعني جيدًا يا زهير، أنت الوحيـد الآن محل ثقتي، وأنا أريدك في أمرين كلاهما أهم من الآخر، والاثنان لا يقبلان التأجيل..

- أنا رهن إشارتك وطوع أمرك يا سيدي..

ارتاحت قسمات كمال الدين وهدأ خفقان قلبه على وقع نبرة الخنوع الباديـة من كلمات زهيـر، فالتفت نحوه وهو يضع كفيـه على كتفيه قائلًا بحماس:

- ماذا لو لقي مولاك المحتسب مصرعه بسهمٍ طائشٍ في أثناء عودته إلى داره بعد المغرب؟!

أجابه زهير متفكرًا بعد فترة وجيزة، عابثًا بلحيته وابتسامة ماكرة تلوح من بين شفتيه:

- ستصبح أنت يا سيدي مولانا محتسب القاهرة، لا شك عندي في ذلك، فمؤامرات المحروسة هذه الأيام تسمح بأن يُطوى الحادث سريعًا ويصبح في طي النسيان..

ضغط كمال على مخارج ألفاظه بحرصٍ وهو يقترب منه أكثر:

- ويجب أن تتأكد أيضًا أنك وقتها ستكون النائب الأول للمحتسب.. فلن أجد خيرًا منك ليتولى منصبي القديم..

لم يُجبه زهير، إنما ظل محتفظًا بملامح جامدة على وجهه وكأنه يضع قناعًا من جبس، وبدا كمَن لا يعنيه المنصب من قريب أو بعيد، ثم أردف بعد برهة بنبرة واثقة:

- وما الأمر الثاني يا مولانا المحتسب؟

اتسعت ابتسامة كمال سيف الدولة على وقع الكلمة الأخيرة بأذنيه فطوَّق كتفي زهير بذراعه مصطحبًا إياه إلى خارج الغرفة وهو يقول بصوتٍ هادئ، مطمئنٍ، وابتسامة خبيثة تتصدَّر نصف وجهه، يتردد صداها في نظرات عينيه:

- الأمر الثاني مختلف كثيرًا، فهو يحتاج إلى رجل قوي في فحولتك.. وأنا لا أثق أيضًا في أحد غيرك كي يلبي لي رغبتي..

أطلَّت دهشة ممزوجة بالاستنكار من عيني زهير، وبدا عليه الارتباك واضحًا وقد توقف لا إراديًا عن السير، ثم ابتعد قليلًا عن كمال الدين وكأنه ينأى بجسده..

أطلق كمال ضحكة عالية، بترها فجأة وقد لمعت عيناه محتفظًا بابتسامة لزجة مردفًا:

أريدك أن تفعلها الآن يا زهير وفي هذه الدار أيضًا..!

***

مثلما ترتد موجة البحر المكسورة قرب الشاطئ وكأنها كانت تناوشه، راحت خيوط الشمس تنحسر ببطءٍ عن جناح الحريم، معلنة استسلامها لبوادر ضي القمر في ليلة سيتوسط فيها السماء بدرًا مكتملًا.. كان الطابق الثاني في دار المُعلم جرجس الجوهري يموج بالحركة منذ الصباح استعدادًا لمراسم الزواج، بعد أن صار حديث الكثيرين من أهل القاهرة، فالعروس ليست كأي فتاة.. اليوم ستتزوج نورسين، التي كانت جالسة في ركن قصي يغطيها الخجل، وهي تستمع إلى نصائح السيدات الأكبر سنًّا عن الزواج ومعاملة الزوج، وملامحها لا تخلو من بقايا اندهاش طفولي، لكنها منتبهة لكل كلمة تُلقى على مسامعها لتحفرها على جدران وعيها بعمق:

«كوني له أرضًا يكن لكِ سماءً»

«لا تدعيه يشم منك إلَّا أطيب ريح»

«لا تُفشي له سرًّا أبدًا»

فاضت ملامح وجهها بالرهبة والوجل، واعتدلت في جلستها قرب المشربية الواسعة ذات الفتحات الضيقة المتشابكة، ابتسمت في خجل عندما وقعت عيناها على زوجة جرجس الجُوهري وهي ترش أرضية الدار بالماء من إبريق ذهبي صغير غريب الشكل؛ لتطرد الأرواح الشريرة المختبئة تحت الغبار، متمتمة بكلمات غير مسموعة، لكن ملامحها الجادة توحي بأنها تُعزِّم عليها.. تسرَّبت ببطءٍ متناغم رائحة الخبيز من فوهة الفرن الكبير لتخترق الدار من كل مشربياتها وشُرفاتها، وراحت السيدة السمينة التي يترجرج شحم ذراعيها كلما رُصَّت ألواح صاج ممتلئة بالبسكويت والكعك، تلقم النار من فوهة الفرن السفلى بقطع صغيرة متساوية من الحطب..

كانت عيون الجميع تفيض بالغبطة والسرور.. تتقدَّم كل فينة وأخرى فتاة لتقدِّم هدية للعروس، واحدة تحمل كيسًا من الحنَّاء، وثانية تناول نورسين الشموع، وثالثة تهاديها بقماشٍ يكفي لثلاثة أثواب من الحرير.. على مقربة منها فتيات صغيرات يتهامسن بصوتٍ مسموعٍ، يحفِّظن بعضهن أغاني سينشدن بها طوال الليلة المنتظرة.. ضحكت نورسين على استحياء وهي تُطرق برأسها من الخجل عندما التقطت أذناها مقطعًا يقول:

«يا ابو جلَّابية مزهرة   إرمح وطِير في المَنضَرة»

على مبعدة من مجلس نورسين، كانت هناك أخريات يتبارين في ملء صناديق من الخشب والعاج بجهاز العروس من ملابس وأوانٍ جديدة للطعام والشراب.. نهضت نورسين من جلستها وهي تلملم طرف ثوبها برقة بالغة، أعطتهم ظهرها وعبثت في صندوق ضخم، ثم فاجأت الحاضرات بنثر ملابسها القديمة فوق رؤوسهن، فراحت كل فتاة تشبُّ وتقفز في جزل لتسارع بالإمساك بقطعة من ملابسها لتقبض عليها بقوة وتحتضنها برفقٍ وهي تضم ذراعيها لصدرها بسعادة بالغة، فقطعة الملابس الآن صارت ملكًا لها لتصبح ذكرى غالية من عروس جميلة..

ساد الصمت فجأة، وتعلَّقت الأعين ناحية بوابة الحرملك مع دخول ست البرين، الماشطة السودانية، مهيبة الردفين، ذات البشرة الأبنوسية اللامعة، تمشي مائلة إلى الأمام قليلًا شبه منكفئة ومتمايلة في مشيتها كبندول الساعة من فرط بدانتها وكبر سنها.. امرأة عجوز لكنها خبيرة.. ألقت السلام على الموجودات في برود مستغلة هيبتها التي ساعدتها على أن يفسحن لها مكانًا واسعًا بينهن، لكنها اختلت بالعروس خلف ستارٍ سميك شدَّت وتره فتاتان عفيتان من الإماء..

اجتزأت الماشطة قطعة كبيرة من كتلة حلوى بيضاوية معمولة يدويًّا بعد غليها مخلوطة بالعسل الأبيض، و راحت تلوكها بأصابعها وهي تتفرَّس في ساقي نورسين بعين مدربة، فلما بدا قوام الحلوى لينًا قليلًا في يدها مرَّرته على ساقيها لتجلي جسم نورسين من الزغب

الناعم والشعيرات الخشنة غير عابئة بتأوهاتها الحقيقية أو دلالها الأنثوي الأخاذ، حتى كلَّت يداها، ثم بدأت تدلِّك جسدها بماء الزهر المخلوط بزيت اللوز المُر والمِسك، وتركتها حتى تهدأ وراحت تثرثر مع الأخريات الجالسات خلف الستار، وتحتسي مشروبها الذي كان قد برد في كوبه منذ مجيئها..

لم يمضِ وقت طويل إلَّا وكان جسد نورسين يشمر عن نصاعته وبريقه وتوهجه، فأزاحت ست البرين الستار السميك برفق، فلملت بقاياه الأمتان.. علت الآهات وراحت عبارات التسبيح والإعجاب تتسابق على الخروج من أفواه النساء اللاتي جحظت عيونهن إعجابًا بما أبدعته ست البرين.. التفت نورسين برقبتها الطويلة المزينة بعقد من اللؤلؤ ناحية النافذة العريضة، وظلت شاردة بعينين حزينتين، بعد أن تغلب واقعها على أحلامها كلها، فتبخَّرت من الشرفة، ولسان حالها يناجيه بشوق ولوعة تخلَّيا عن كبريائهما بمنتهى الرضا:

- أين أنت يا شاطر حسن..؟!

أسفل جناح الحريم بدار المُعلم جرجس استيقظ الحسن بعدما أمضى ليلته بنصف عين فقط؛ فقد حرمه عقله من الاستغراق في نوم عميق، ووقف له كالديدبان كلما أسدل جفونه ينغزه بهاجسٍ مختلف، فيفتحهما وهو يزفر يأسًا..

لم يهنأ كثيرًا بفرك عينيه، وانتبه لصوت طبول منتظمة تقرع في صخب مختلطة بأصوات كثيرة متداخلة يخترقها نعير النوق والبعير، وصهيل خيول بكبرياء، فتبدو كأنها قد ملَّت من وقفتها وسط دواب تقل عنها سرعة وكفاءة وربما أصالة أيضًا.. تهليل الأطفال العشوائي، وزغاريد النساء امتزجا ليُعلنا بلا مواربة عن قرب ساعة الزفاف، أما العربات الخشبية التي تجرها البغال، وظهور الجمال التي رُصَّت عليها ألواح خشبية، وحشيات قطنية، وثياب ملونة، فكانت تزف البشرى بأن موكب العروس على وشك التحرك..

ظل الحسن يجول ببصره عبر فتحات المشربية الضيقة بين تفاصيل المشهد الصاخب أمامه بعينين مشدوهتين، لا يصدق ما يراه، يحاول أن يلتقط منها ما يقنعه حتى أعيته الحيلة، فرك عينيه مرتين واستند بكفيه على الجدار، ثم تسربت ابتسامة خفيفة بلهاء من بين شفتيه بعدما عجز عقله عن استيعاب الموقف، خاصة وأن الزغاريد المنطلقة كل وهلة وأخرى تشتت تركيزه وتفتت انتباهه..

- هيا أيتها العروس الكسول، فعريسكِ في انتظاركِ على أحرِّ من الجمر..

قالها المُعلم جرجس للحسن ضاحكًا بنبرة مَن يحمل البشارة، وجسده السمين يرتجُّ بشدة، وخلفه يعقوب يرتدي جلبابًا أبيض ناصعًا،

وعمامة كبيرة من نفس اللون، ووجنتيه تحمرّان من شدة الخجل، كان عائدًا لتوّه من ناحية النيل بعدما حمله أصدقاؤه على أكتفاهم وشاركوا جميعًا في رشّه بالماء وتدليك كتفيه والهمس في أذنيه بالنصائح المكشوفة عن الليلة الأولى..

غرق الحسن في ذهوله وظل يُحملق فيهما في وجوم باحثًا بعينين مندهشتين عن تلك العروس المنشودة، فلم تقع عيناه على أي فتاة، ألصق ظهره بالحائط وأغمض عينيه قليلًا وكأنه يعلن استسلامه، فلم يعد هناك مفر آخر من إبداء القبول..!

***

14
باب السِّر

تلفَّت كمال الدين خلفه أكثر من مرة وهو يتحسَّس جدران الدهليز الطويل المفضي إلى رواق كبير تتوسطه نافورة ماء صغيرة حتى عبره في خفة، ثم انحرف يمينًا ووقف يلتقط أنفاسه لبرهة وهو يميل بجذعه ليتأكد من أن العبيد والخدم لم يلحظوه، تحسس تجويف أحد الحوائط بكفيه، فلما شعر بانبعاج بسيطٍ دفعه بقوة فانفتح باب السِّر للداخل، هبط الدرج الحجري الحلزوني بحرص شديدٍ حتى أتمه فدلف قبوًا مكتومًا، وعلى ضوء قنديل صغير وقف يتأمل الغرفة الخانقة..

عشرات الصناديق المتراصة بأحجام مختلفة، وأجولة منتفخة مائلة على جوانبها، منبعجة من أسفلها، تحوي عملات ذهبية وفضية، وقلائد مرصعة بالألماس، وخواتم، وعلب تبغ ذهبية بأحجام متفاوتة نقشت عليها رسوم دقيقة بديعة ملونة.. ثلاثة شمعدانات من الفضة الخالصة، واثنتان مطعَّمتان بالزمرد متراصة جميعًا في شموخ، أقمشة فاخرة وسيوف وخناجر ذهبية وطبنجات طُليت مقابضها بالذهب..

قادته قدماه حتى منتصف الغرفة، التي تقع أسفل جناح أخيه الحسن تمامًا، كانت عيناه متحجرتان تنظران في وجوم إلى مقتنياته التي جمعها

من عطايا الرشــوة التي قبلها أو طلبها على مدار سنوات قليلة وكأنها غير راضيــة عمَّا اقترفته يداه.. ابتلع ريقه بصعوبة وهو يشـعر بمرارة في حلقه الجاف، أحسَّ لوهلـة أن جدران الغرفة تنقبض وتقترب منه ببطء، وضع القنديـل جانبًا بعد أن انطفأت شـعلته فجأة، وبدأ يشـعر باختناق خفيف، فـرك عينيه بشـدة ليتعوَّد الظلام، لكنْ ظلَّ الشـعور ملازمًا لـه، رفع عينيه فـرأى السـقف وكأنه يـكاد يهبط عليه ببـطء، بدأت حبَّـات العرق تتلألأ اسـتعدادًا للتدحـرج علـى جبهتـه، جزَّ على فكيـه، ثم أغمـض عينيه مرة أخـرى وقد ضايقته العتمـة قليلًا لكنه ما لبث أن تعودها، شـعر بانقباض طفيف في قلبه فصار جزعًا..

«ماذا ستفعل بكل هذه الثروة يا كمال الدين؟ سيرثك ناجي المتعلق بأخيك أكثر منك، وسـتتمتع بها زوجتك وردشـان المتسـلطة المسيطرة، وتخشـى أن تُطلِّقها أو تقتلها لسـلطان ونفوذ أخيها في بلاط الوالي، رغم أنـك فكـرت مرارًا فـي الخلاص منـه، لكنك جبنـت في النهايـة مع أنك تشـك في علاقتها بحارسـك زهيـر.. أليس شـقيقها هو الـذي عيَّنك في منصبك؟ ألـم يكن هو الذي أنقذ رقبتك من سـيف جلهوم عندما اندلعت ثـورة القاهرة؟ مَن غيـره يُعتبر ملاكك الحارس داخـل أروقة القلعة حتى لا يصيبك سهم طائش أو تبتلع لقمة مسمومة قد تُدسُّ لك في غفلة منك في أثناء تناول طعامك؟ دعك من كل ما سبق، ولكن ماذا لو اكتشفوا أمر هذا القبو؟ سيقتلونك لا شك..

- لا لـن يقتلونـي، أنـا أطعمت كل فـم، فتـوارت الوجـوه عني، لم تلمحني العيون عمدًا، فأنا أتقاسم معها كل العطايا..

- **كلها يا كمال؟!**

- **لا.. ليس كذلك بالضبط، ولكنهم لا يعلمون أو تغافلوا عني قانعين بما غنموا، لن يمسسني أحد بسوء»..**

تهاوى ببطءٍ على ركبتيه مطرقًا وقد خيِّل إليه أنه يسمع ضحكة ساخرة ظل صداها يتردد بقوة.. لمعت عيناه وهو يحدِّق في صندوق ضخم أمامه ما يحويه من ذهب يمكن أن يطعم منطقة إمبابة كلها لمدة ثلاثة شهور حتى يصابوا بالتخمة، مدَّ كفه وقبض على بعض العملات، وأطلَّت ابتسامة شاحبة من بين شفتيه وهو يتفحصها، ثم تركها تتسرَّب برفق من بين كفيه..

«عمري يتسرَّب مني مثلكم، حسنًا، سأكتفي بما جمعت، وكلها أيام قليلة وأكون محتسب مصر المحروسة ولديَّ ما يكفيني من المال، سأشتري عشر جوارٍ شركسيات.. لا، بل عشرين.. لا لا، سيكونون ثلاثمئة جارية، سأُبدِّل كل يوم واحدة في فراشي، وسألتهم من صنوف الطعام كل ما لذَّ وطاب، لا بد أن هذا الطبيب الجهول الذي حرَّم عليَّ اللحم حتى لا تتورم قدمي يخدعني، يريد هلاكي وإذلالي بحرماني من ملذاتي، لا شك أن ولاءه الأول للمحتسب وكبير البصاصين، لا بد أنه مدسوس عليَّ هو الآخر، سأقطع رقاب الجميع في المستقبل القريب، وأولهم زوجتي الخائنة وردشان»

زفر في ضيقٍ ولمعت دمعة رقيقة في عينه كأنها آتية من أعماق نقية لم تتلوَّث بعد، لكنها سرعان ما جفت ووُئدت في مهدها، تقلَّبت ملامحه

وتبدَّلت على أكثر من حال فتموَّجت وجنتاه حتى شعر بأنه يكاد يُجن، فركل المصباح المنطفئ بقدمه في غضب..

«لا بد وأن أتخلَّص من شقيقها أولًا، ثم أقتلها هي بعد ذلك»..

هزَّ رأسه بشدة نافيًا، وقد شعر ببرودة خفيفة تسري في بدنه..

«لا لن أقتلها، سأجعلها أولًا تراني أبدِّل الجواري في فراشي مثلما يتبدَّل الليل بالنهار كل يوم، فتموت كمدًا»..

ابتسم ابتسامة واسعة وعيناه تلمعان أكثر، شعر فجأة بالزهو والنشوة.. بسط كفه اليسرى وهو يتفرَّس في خطوطها حتى رآها بصعوبة بسبب العتمة، ثم خُيِّل إليه أن وجه أخيه الحسن الرومي يطل عليه من كفه، ويبتسم له في ثقة المنتصر، فزمَّ جبهته، وعبس وجهه، وقبض كفه، وراحت شفتاه المتدليتان ترددان غيظًا بهمس:

- لن تنال مني أبدًا، سأعيش رغمًا عنك، و سأعيش طويلًا أيضًا.

بصعوبة تحامل على نفسه و غادر القبو وهو يترنح بعد أن شعر بأن أفكاره باتت كلهبٍ يحرق شمعة رأسه بدأبٍ، خرج من تجويف الجدار مثل الجان بعد أن تنصَّت لبرهة حتى يتأكد أن أحدًا لا يراه، مضى بخطوات واثقة، منتظمة، وهو يحتضن صندوقًا عاجيًّا متوسطًا بيديه، حتى دخل إلى غرفة فسيحة تطل على الحديقة وقد افترش زهير الأرض في منتصفها تمامًا أمام صينية فضية عامرة بقطع اللحم الراقدة على تلٍّ كبيرٍ من الأرز المختلط بالصنوبر واللوز، بينما تستقر على حوافها أفراخ

الحمام المحشـوة بالزبيب، كان قد التهم ثلاثة منها، وراحت كفه الكبيرة تعبـث بتـلٍّ الأرز، وتغتـرف من اللحم قـدر ما تمتلئ، بينمـا جلس كمال الديـن يتأمله بعينين قلقتين، وعقل يحمل الكثير من الهواجس والظنون، لـم يكـن مطمئنًّـا لإجابـة زهيـر المتسـرعة المغلفـة بالتزلُّـف والخنوع، وموافقته على قتل المحتسب بسهم طائش..

«من أين اسـتمدَّ هذه الجرأة المفاجئـة، كيف لكلـب خانع مثله أن يمتلـك قلب أسـدٍ فـي ليلة وضحاها؟ هـل يدبر لي مكيـدة عظيمة بدهاء للدرجـة التـي يبـدو معهـا سـاذجًا تمامًا فأسـتبعد سـوء الظن بـه؟ أم أنه يراوغني كقاتل بدم بارد؟ من أين لصاحب جسـدٍ كأجسام البغال بأحلامٍ غير تلك التي تراود العصافير؟ سـيكون رأسك أول رأس يُعلَّق على باب زويلة يا زهير عندما أتولى الحسـبة، وسـيمرق سهمك الطائش في جسد المحتسـب ليسـتقر بعدها في فـؤادك، ولن تهنأ أبـدًا بمذلتي، لن أخفض رأسي لأحدٍ بعد اليوم.. كفى»..

اقترب كمال سيف الدولة منه، ودار حول الصينية ليراه زهير بوضوح وهو يحمل الصندوق العاجي، ثم جلس أمامه مشيرًا له بيده أن يستمر في طعامه، وراح هو يعبث ببرودٍ شـديدٍ بمزلاج الصندوق ليفتحه ببطءٍ أشد وهو يثبِّت عينيه على عيني زهير اللتين لم ترجفا للحظة، وإن جحظتا في لهفـة عارمة لمَّا وقعتا على الصندوق فتخيَّل محتواه من مظهره الفخيم.. التقط كمال الدين كيسًا متوسطًا من الذهب وأفرغ عملاته بجوار الصحن الذي يأكل فيه زهير..

تدافعت قطع النقود الذهبية وراء بعضها البعض، كل منها تحدث صوتًا له وقع مختلف يضرب بقوة عقل زهير فيرجِّح كفة قتل المحتسب، فلم يعد يرى سوى بريق، ولم تسمع أذناه إلا رنينًا، فراح يلوك الطعام في فمه بسرعة؛ ليقول بنبرةٍ بدت متحشرجة نوعًا ما:

- الولاء لا يُشترى يا مولانا المحتسب، أنا رجلك وحارسك منذ سنوات..

أفلتت نصف ابتسامة صفراء من كمال الدين وهو يقذف بقية محتويات الصندوق أمامه، ثم كسا الامتعاض وجهه، وهبَّ واقفًا فوقف زهير معه.. فاقترب منه ببطءٍ قائلًا:

- كل شيء يُشترى بالذهب يا زهير، وإلا ما كنت أنت هنا تحرسني دون علمي..

ارتبك زهير قليلًا، وحاول تبرير موقفه بأن المحتسب أمره بحراسة الدار ليكون عينه عليه، لكنه لا يزال يخلص له، باءت المحاولات بالفشل، ولم يفلح أمام الملامح الصلدة لوجه نائب المحتسب في إقناعه بصدق نواياه، صفَّق كمال الدين مرتين فمثل العبد صالح بين يديه، أمره أن يساعد زهير على غسل يديه، ثم قال بلهجة عسكرية آمرة:

- اغتسل الآن يا زهير وتعطَّر لتبدأ مهمتك الثانية..!

***

كل شـيء تـم إعـداده بدقة حتـى تحرك الموكـب ببطءٍ وكأنه سـفينـة ضخمـة تتهادى علـى صفحة البحر في دلال، تعليمـات المُعلم جرجس الجوهـري كانت صارمة وحاسـمة، فـلا بد وأن يعلم سـكان القاهرة بأن نورسين سـتُزف اليوم إلى عريسها.. حفل زواج حقيقي.. أكثر من عشرة جِمال تسـير في صفين متوازيين محملـة جميعًا بصناديق ضخمة مملوءة بالثيـاب، وقد زُينـت رقابها بحبال حمراء فاقعة كالدمـاء الذكية ومضفرة بعُقـد غليظـة، وفي المنتصف خلف وأمام العربة الخشـبية التي تسـتقلها العروس عشـرات الخيول المطهَّمة بسروجٍ ملونةٍ، مفعمةٍ بالبهجة تحيط برفـق وعناية بعربة العروسـين التي يجرها بغل كبير ضخم يكتسـي برداء أخضر لامع، لا تظهر منه إلا عيناه، يقود العربة عربجي خمسـيني ضخم البنيـان، ذو شـارب لامـع مبروم، يرتـدي جلبابًـا نظيفًا، وطاقيـة صوفية سـوداء، وبجـواره يجلس غلام يـكاد يطير فرحًـا من السـعادة، ويحاول كل فينـة وأخرى أن يجذب اللجام من العربجي؛ ليعلن عن موهبة مبكرة في القيادة، لـم يكن سـوى ناجي، أما العروس التي جلسـت خلفه مباشرة بجـوار المسـاعد يعقـوب، فلم يكن سـوى الحسـن الرومـي متخفيًا في ثوب أبيض فضفاض مشـابه لزي نورسين، وقد غطَّى رأسه ووجهه تمامًا بطرحة سـوداء شفافة عند عينيه فقط تكاد تُرى بصعوبة، ظل ساكنًا يتأمل الوجـوه حولـه بخبرة رجـل محنَّك صقلتـه التجارب وكثـرة المؤامرات والمغامرات، تحسَّـس مقدمة بطنه ليُطمئن نفسه بالطبنجة التي سلَّمها له المُعلم جرجس قبل بدء مراسم الزفة..

ابتسم له المساعد يعقوب ابتسامة ماكرة وهو يمسك بيده متقمصًا دور العريس الهائم شغفًا بعروسه، فراح الحسن يبعدها في ضيق وهو يلعنه في سره وينهره بعينيه، ويعقوب يُعيد الكرَّة كل وهلة هامسًا وهو يكتم ضحكته:

- لكي نَحبُك عليهم الأمر يا زوجتي العزيزة..

يقولها وتفلت منه الضحكات متقطعة، بينما الحسن يكتم غيظه ويجزُّ على أسنانه، ومن خلفهما جلست بعض النسوة يزغردن ويصفقن، إلا واحدة ظلَّت شاردة هائمة في ملكوت آخر تتخيل نفسها مكان يعقوب، وتتمنى لو أن الحسن كان هو عريسها الحقيقي تلك الليلة، وكل برهة يلتفت هو إليها بعينين يغمرهما الشوق واللوعة؛ ليختلس نظرة لعيني نورسين الحائرتين، فتناجيه بهما: «سأنتظرك.. لا بد وأن هذا اليوم سيأتي»..

اخترق الموكب شارع البركة، ثم انعطف يسارًا في طريقه إلى ميدان الرميلة، ومنه إلى الروضة، في منتصف الطريق كانت قوات الألفي بك، التي أحكمت حصار القاهرة تمامًا، وأوشكت على فرض سيطرتها على الجيزة، قد أقامت نقاط تفتيش شديدة الصرامة حتى تقطع السبل بين جنود محمد علي ووصول أي إمدادات إليهم، وتحول دون تجمُّعهم بكثافة في مكانٍ واحدٍ ليسهل القضاء على كل مجموعة منهم على حدة..

قبل أن يبلغ الركب مقياس النيل استوقفه فارس ضخم الجثة من المماليك، وأحاط رجاله بالخيول والجِمال شاهرين أسلحتهم بعد أن سدُّوا الطريق بمتاريس من جذوع النخيل الضامرة.. وضع الحسن يده على بطنه وهو يتحسَّس الطبنجة بأعصاب مشدودةٍ، بينما تجهَّم وجه يعقوب وقد علا صوته مخاطبًا الفارس المملوكي في غضب:

- ماذا تريد منا؟ لدينا تصريح بالمرور حتى الجيزة.. اليوم حفل زفافي فلا تفسد فرحتنا..

- مبارك زفافك، ولكن مثلما أعطاك مولانا نائب المحتسب كمال الدين تصريح المرور، فقد أمرنا بتفتيش المتاع وكشف...

لم يكمل المملوك عبارته، والتفت إلى رجاله آمرًا بفتح كل الصناديق، فراح العبيد ينزلونها من فوق ظهور الدواب وهم يتأففون، مضى الفارس يتفرَّس في وجه العروس وصحبتها على العربة الخشبية، ثم ينقل بصره إلى مرسوم المرور الصادر من ديوان نائب المحتسب بالسماح لموكب الزفاف بالمرور وقت العصر حتى المغرب، ومن الأزبكية إلى الجيزة، والعودة صباح اليوم التالي، ممهورًا بتوقيع كمال الدين سيف الدولة، ومع كل نظرة شك من الفارس، كان الحسن يقبض بشدة على طبنجته وقد تنبهت كل حواسه، وبدا مستعدًّا لنزالٍ وشيك..

دار الفارس المملوك حول العربة الخشبية دورتين، ثم رمق الحسن وبقية النسوة بنظرة شك طالت حتى احترقت أعصاب الجميع، بعدها نادى على رجاله قائلًا بصوتٍ جهوري:

- بعـد الانتهـاء مـن تفتيش المتاع، اكشـفوا وجـوه كل النســاء، وإذا وجدتم بينهن رجلًا متخفيًا، فاقتلوه على الفور..!

***

كان أحـد العبيـد يفـك أربطـة صنـدوق ضخـم ليُنزله من فـوق ظهر الجمل، التقت عيناه بعيني يعقوب فالتقط الإشارة في صمتٍ، وبعد برهة تـرك الصنـدوق ينفلت من بين يديـه لينزلق من على ظهر الدابة، فيسـقط بشـدة منفتحًا على مصراعيه، وقد خرجت الثياب و«الهلاهيل» التي كان جرجس ورجاله قد حشـوها فيه لتطل برأسـها منه، في نفس اللحظة كان العبـد صالـح المختبئ منـذ البداية أسـفل العربة الخشـبية متكومًا داخل شـبكة من الدوبـار مثبتة بعناية بيـن العجلتين الخلفيتين قـد تدحرج منها بخفة، وراح يجري بعشـوائية تجاه قـوات المماليك، فأحدث ارتباكًا في صفوفهم جذب انتباههـم، حتى قبضوا عليه، كانت تلك اللحظات كافية لتتزحزح نورسـين من مكانها في نهاية العربة بعدما كشفت معظم النسوة الجالسـات بجوارهـا وجوههن لعسـكر المماليك؛ لتحلَّ محل الحسـن وتجلس بجوار المسـاعد يعقـوب المضطرب أشـد الاضطراب، حدث هرج ومرج شـديدين وتشـتتت قـوات المماليـك بين تفتيـش محتويات الصنـدوق والقبض على صالح، فلما اسـتقرَّ الأمر نسـبيًّا اقترب الفارس المملوكي من مقدمة العربة الخشـبية، وأمر يعقوب بكشف وجه عروسه باعتبارهـا الوحيدة الباقية، فتظاهر بالامتعاض بعد ما احتجَّ قليلًا وحاول الرفـض، ثـم أزاح البُرقـع فـي تكاسـل، فلما وقعـت عينا الفـارس على

جمالهـا الفتان سـكن لوهلـة وكأنه فارق زمانـه من فرط أنوثتهـا الطاغية وعينيهـا الرائقتين كالنبع الصافي رغم مسـحة الحزن التي تكسـو وجهها برفـق، إلا أنهـا ذهبـت بعقلـه لمسـافة بعيـدة، أفـاق الفـارس المملوكي علـى صـوت جلبة آتية من خلفه، كان صالح قد اشـتبك مـع أحد الجنود مـرة أخرى، فـراح زملاء الجنـدي يضربونـه بكعوب بنادقهـم ويركلونه بأقدامهـم، فخشـي أن يتعقَّد الموقف أكثـر فنهرهم ليتركـوه، قفز صالح إلى مكانه أسـفل العربة لينطلق الموكب ويرفع يعقوب يده اليسرى عاليًا لترتفع الزغاريد وتـدق الطبول من جديد، وراح الموكب يبتعد عن نقطة التفتيش، ووضع قائدها الفارس المملوكي يديه حول خصره متعجبًا من أمر السـيدة المتشـكِّكة الحائرة المريبة ذات الجسد الضئيل، التي تجلس في نهاية العربة الخشبية، والتي راحت تبادله النظرات المريبة على فترات متقطعة منذ أن سـمح لموكب الزفاف بالمرور حتى غاب عن نظره تمامًا في طريقه إلى جسر الروضة الخشبي..

كان الحسن قد توتر تمامًا ولم يهدأ حتى وصل موكب زفافه إلى مرفأ صغير شـرق الجيزة، وقد بدت السـفينة الراسـية في انتظاره كطائر ضخم سـيحمله إلى بلاد غريبة مثل التي كانت أمه تروي له أسـاطير وحواديت عنها وهو صغير، انتابته رجفة وهو يهبط من العربة الخشبية ويسير بجوار يعقـوب، وبدا كأنه قد انفصـل عمَّن حوله، والذين راحوا يدقون الدفوف ويقرعـون الطبول بشـدة، وارتفـت الزغاريد حتى طالت عنان السـماء.. لكنه ظل خارج المشهد بوجدانه..

كل مَن يعرف حقيقة العروس كان يتظاهر بمظاهر الفرح رغم ما يعتمر قلبه من قلقٍ على الحسن، الذي وقف هو ويعقوب يتلقيان التهاني على زواجهما، بينما كان المُعلم جرجس قد وصل قبلهما بقليلٍ ليرتب صعود الحسن بمفرده إلى السفينة التي ستقله إلى مديرية أسيوط، ليختبئ بها مؤقتًا حتى تهدأ الأمور، وإن كان ظاهرها يوحي بعدم قرب عودته مرة أخرى..

كان الرجال فقط يهنئون يعقوب ويحيون العروس بإيماءة من رؤوسهم، في حين ظلَّت النساء واقفات على مبعدة، مكتفيات بإطلاق الزغاريد بلا انقطاع، التفت الحسن بجذعه ناحيتها فشعرت بقلبها ينبض بشدة.. اقترب خطوة فاقتربت، لم يقوَ على المقاومة أكثر من ذلك فاتسعت خطوته ناحيتها.. ولم تدرِ بنفسها إلا وهي بين ذراعيه، احتضنها بقوة وهو يهمس لها بغرامه، مطمئنًا إياها:

- سأعود..

- سأنتظرك..

ارتبك يعقوب للحظات عندما طال عناقهما وقد زاده تجهم وجه المُعلم جرجس ارتباكًا، بينما راحت بقية النسوة تلهب كفوفهن بالتصفيق على أنغام الدفوف والطبول التي لم تتوقف ظنًّا منهن أن نورسين هي شقيقة العروس، وتلك هي دموع الفرح الممزوجة بلوعة الفراق..

ربَّت الحسن كتفي نورسين، والتفت ناحية يعقوب يوصيه بها حتى عودته كي لا يؤذيها كمال الدين مرة أخرى..

علت صفارة السفينة مدوية، معلنة عن بدء تحرُّكها، وابتعدت تدريجًا عن المرسى، ووقف الجميع يلوِّحون بأيديهم إلى لا شيء، بينما خلع الحسن ثياب العروس بمجرد أن تحركت السفينة، وارتدى جلبابًا أخضر داكنًا، ووضع عمامته السوداء الصغيرة، وتوارى قابعًا في أحد أركانها حسبما أشار له النوتي ريِّس المركب، خلف عشرات الماشية والدواب من الجاموس والأبقار المسافرة إلى الجنوب لذبحها، وقد اعترى ملامحها قلق على مصيرها، ولم يكن الحسن في حالٍ أفضل منها كثيرًا، فلم تكن الحيرة تنقص عقله، ولم تغب الدهشة عن وجهه طوال الرحلة أبدًا.

***

15
زهير

استلقى كمال الدين على ظهره في فراشه وقد كشف صدره فبان شعره الكثيف موحيًا بفحولة عظيمة، نادى على العبد صالح ودون أن ينظر إليه قال:

- استدعِ الجارية نورسين إلى هنا..

تلكَّأ صالح قليلًا وهو يتفرَّس في مظهره بدهشة وقلق، فنهره بشدة مهددًا إياه بقتله لو تراخى مرة ثانية في تنفيذ أوامره.. فلما دخلت عليه حجرته مرتبكة قلقة بخطواتٍ مترددةٍ، ابتسم لها في مجون، وهي ساكنة مكانها، تاركة مسافة كافية للهرب إذا ما نهض من فراشه، تفرس فيها وهو يبتسم بلزوجةٍ، ثم نهض من رقدته ببطءٍ ولملم عباءته وغادر الحجرة من بابها الجانبي الصغير محكمًا غلقها من الخارج، ارتبكت نورسين قليلًا إثر خروجه المفاجئ ولم تفهم تصرفاته المريبة، استدارت ناحية الباب الآخر التي دخلت منه لتغادر، فوجدت زهير خلفها مباشرة وهو يبتسم كذئب جائعٍ على وشك افتراس شاةٍ ضالةٍ عن القطيع، أُسقط في يدها وراحت تتراجع ناحية المشربية الكبيرة في نهاية الحجرة، وهو يتقدَّم

نحوها بخطوات بطيئة، وابتسامة صفراء باهتة تتسع على شفتيه، مستمتعًا بمراسم مهمته الثانية.. اغتصابها قبل قتلها..

راح زهير يشمِّر عن أكمامه ويشرع في نزع حزام ثوبه العريض ليخلع سرواله عنه، فاتسعت عيناها خوفًا وفزعًا، وازدادت التصاقًا بالجدار، شعرت بأنفاسه الساخنة وملمس كفيه الخشنتين تعبثان بذراعيها وخصرها في عشوائية، التقطت أنفاسها المتحشرجة وهي تخاطبه لاهثة، راجية:

- سأعطيك خنجرًا من الذهب الخالص يمتلكه الحسن.. ألا تريده؟

تراخت قبضة زهير بعد أن شتَّت الذهب عقله قليلًا ففقد تركيزه وارتبكت خطواته وبدت مترددة نوعًا ما..

كانت عينا نورسين تبرقان، وشفتاها ترتجفان وهي تتمنى أن ينتهي هذا الكابوس، وعقلها يعمل بسرعة كي تتمكن من إحضار خنجر الحسن من حجرته، وتطعنه به أو تنهي حياتها بطعنة نافذة في بطنها، ظلت مشتتة لفترة وتبلَّد تفكيرها ولم تُبدِ أي بادرة نحو إظهار الخنجر الذهبي، أو نية لإحضاره، وتسمَّرت في مكانها وعيناها مشدوهتان، عاد عقل زهير يتحكم في نصفه الأسفل من جسده ويحثه على إتمام مهمته، فاحتضنها بشدة وهو يضمها لصدره ويمزِّق ثوبها من الخلف، انفتح باب الحجرة برفق ومرق منه شبح صغير، وعلى بعد خطوات قليلة من زهير، كان الغلام الصغير ناجي يحبس أنفاسه متسللًا على أطراف أصابعه بمنتهى

الخفة وهو يقبض بقوة على حربة عمِّه المدببة التي يصطاد بها العقارب.. وعند مسافة نصف المتر التي علَّمها له الحسن، وقف ومال للخلف قليلًا بجذعه، ثم بكل ما أوتي من عزمٍ غرز سن الحربة في جانب بطن زهير مرتين متتاليتين لينتفض الرجل الضخم صارخًا من هول المفاجأة وشدة الضربة الثانية، لتخف سيطرته على جسد نورسين، فتنفلت من بين ذراعيه وتتركه يتهاوى متألما كجبلٍ تصدَّع وتشقَّق من منتصفه.. وراح يتحسس جراحه في هلع..

جذبت نورسين الغلام ناجي من يده وفرَّا هاربين من الحجرة؛ ليجدا صالح في انتظارهما بعد أن أدخل ناجي إليها؛ ليعينهما على الاختباء في جناح الحريم، ثم هرول إلى سيده كمال سيف الدولة الذي كان يحتسي القهوة في غرفة بعيدة؛ ليبلغه بإصابة زهير متصنعًا الفزع والدهشة.. لم يصدِّق كمال الدين أذنيه وهرول إلى حجرته، وظل ينظر إلى صالح وزهير بغضب وقد عقد لسانه عن الكلام لا يدري ماذا يفعل به ومعه، بينما راح العبد صالح ينزع الحربة ويطيِّب جراحه، وزهير يتأوَّه من شدة الألم..

تراجع كمال خطوة واسعة للخلف، وعقله يومض بسرعة وعيناه تتفرسان في زهير بتلذُّذ الصياد بفريسته، وهو يتلوَّى أمامه كسمكةٍ عصيةٍ سقطت في شباكه أخيرًا وتتقافز حائرة تريد العودة للماء بأي ثمن، وتنتظر تلك اللحظة الفارقة التي يعطيها صائدها قُبلة الحياة مرة أخرى، عض كمال الدين شفته السفلى وراحت ملامح التشفي تشقُّ طريقها إلى

قسـمات وجهـه بثقة، وذهنه لا يكـف عن الدوران بأفكار شـتَّى متلاحقة كأمـواج بحرٍ هـادرٍ، مرَّت الدقائق ثقيلة، بطيئـة كالدهر، حتى صاح فجأة مناديًا أفراد الحراسـة الذين يتولَّون حمايـة داره وحفظ حياته، فلما مثلوا بين يديه نظر إلى زهير والغدر يطل من عينيه قائلًا بحسم لكبيرهم:

- أبلغوا المحتسـب أن زهير حاول قتلي بعد سرقة داري التي أؤتمن عليهـا، ولـولا يقظـة ابني الصغيـر، وهذا العبد الشـجاع لكنـت في عداد الأمـوات الآن، ولمـا فتشـناه وجدنا معه علبـة من العاج كنت سـأهديها لمولانا المحتسب بمناسبة شفائه من مرضه..

صمت وهلـة ليتأمل دهشـتهم وانزعاجهم، فلما لمـح تأهبهم لطاعة أوامره، أردف بحسم:

- سأرفع الأمر إلى القاضي، هيَّا اذهبوا به وكونوا شهودًا عليه.

أتـمَّ جملتـه الأخيـرة وألقـى بالعلبـة العاجيـة إلـى رجالـه ليقدموها للمحتسـب بعدما أخرجها من طيات ملابس زهيـر وكأنه يلقمهم بحجرٍ يحـول بينهـم وبيـن أي أسـئلة قـد ترد علـى مخيلتهـم عن خيانة فارسـه المقـرب، الـذي كان يبـدو كمَن يرى مَلَـك الموت أمامه فجـأة وقد جاء ليقبـض روحـه على مهل، فاتسـعت عيناه مـن الفزع، فبعـد أن كان قاب قوسـين أو أدنى من منصب نائب المحتسـب، أوشك رأسه على أن يطير قبـل أن ينتهـي اليوم.. ظـل ينظر إلى كمال الدين في رجـاء وهو لا يقوى على الجدال من جرَّاء جراحه..

حمله الفرسان كجوال قمح فاسدٍ في طريقه للحرق حتى لا تأكل منه الدواب سهوًا، وهو مستسلم تمامًا مكتفيًا بإشارة نفي بكلتا يديه في يأسٍ، حتى غاب عن بصر كمال الدين الذي أغمض عينيه بشدة مستلقيًا على فراشه مرة أخرى، شاردًا في خطواته القادمة التي لا تزال متعثرة.. تقلَّب كثيرًا في سريره مختلسًا نظرة فاحصة لخطوط كفه اليسرى، فلما اطمأن لوجودها أغمض عينيه ببطءٍ تلك المرة، حتى راح في سُباتٍ عميق.

***

أُغلقت أبواب القلعة ورُفعت الجسور على الفور بعدما عبر موكب نائب المحتسب كمال سيف الدولة، وما إن استقرَّ في قاعته حتى استدعى كبير بصاصيه ومسئول العسس للقائه، فلما مثلا بحضرته وبَّخهما أشد التوبيخ للتأخر في إشهار أوامره التي يصدرها تباعًا، أجاباه على استحياء بأن المحتسب بات يطلب العرض عليه أولًا قبل الإشهار، تقلَّب وجهه ثم امتعض قائلًا بنبرة مَن ينتظر إجابة محددة بشغف:

- ماذا عن زهير.. هل تم إعدامه؟!

- ليس بعد يا سيدي، لقد نقله المحتسب من سجن العرقانة إلى مكانٍ غير معلوم عندما انتصف ليل أمس، ولم نعرف عنه شيئًا بعد، وهناك أقاويل غير مؤكدة أنه استصدر له عفوًا مؤقتًا من القاضي عثمان ركن الدين، ولكننا لم نتيقَّن من هذه الأنباء..

عاد كمال الدين لشروده وتفرَّس في كفه لفترة طويلة وكأنه يبحث فيها عما يطمئنه، فلم تعد الخطوط المتعرجة كافية وحدها لبثِّ الطمأنينة

في قلبه، لاحظ كبير البصاصين وجومه فراح يعرض عليه تقارير أصحاب الخمّارات وما أبلغ به العسس عن السكارى وثرثراتهم الليلية ضد السلطان والمحتسب والملتزم وعشقهم لنساء متزوجات لعلّه يسليه بها أو يثير فضوله قليلًا، فلما لم يجد لديه قبولًا أو حماسة لما يقول، استعرض تقريرًا آخر عن أصحاب الوكالات، ومضى يسهب في سرده عمَّن اشترى من التجار، ونوعية البضائع المعروضة، وأسعارها، وأين يخبئونها لرفع الأسعار تباعًا، ومَن مِن الموسرين اشتراها، وكم دفع فيها، ثم انتقل بخفة إلى حديث آخر ظنَّ أنه أكثر تشويقًا عن غرباء المقاهي العمومية، ومن أين أتوا، خاصة يهود المغرب، وكيف يستأجرون وكالات بأكملها ليقيموا فيها، مردفًا بابتسامة موحية:

- كما أنهم يديرون بعضها للدعارة سرًّا، وقد عرفنا الغوازي اللاتي يعملن لدى هؤلاء، كما رصد رجالنا شعراء ومنشدين يحرِّفون الكلام ليسخروا من البكوات، وقد...

أشار كمال الدين له بكفه كي يصمت، كان لا يسمع شيئًا مما يُتلى على مسامعه، وإن سمع بعضه لا يعي مضمونه، فقد انشغل فكره باختفاء أخيه وتهديد المحتسب لحياته وانحيازه البالغ لزهير، وسيطر عليه شعور بأن نهايته قد اقتربت، ققفز إلى ذهنه سؤال روتيني، فألقاه عليهما بلا مبالاة وكأنه يعلم الإجابة مسبقًا:

- ألم تجدا أي أثر للرجل الملثم الذي أدليت لكما بأوصافه؟

- لقد هرب إلى الصعيد يا سيدي..

رفع كمال الدين عيناه في دهشة وقد وقعت الإجابة على رأسه كالصاعقة، وظل يحملق في كبير البصاصين ليحثه على مواصلة الكلام بالمزيد من الأخبار..

- تأكدنا اليوم فقط عندما وصلنا البريد بالحمام الزاجل، أن المُعلم جرجس والمساعد يعقوب قد نجحا في تهريبه رغم الحصار بعد أن اندسَّ في موكب زواج يعقوب الذي منحته تصريحًا بالمرور حتى غادر على متن سفينة صغيرة إلى الجنوب، ربما تكون وجهته مدينة المنيا أو يختار أسيوط لتصبح محطته المقبلة، لا نعرف بالتحديد، ولكننا أبلغنا رجالنا هناك لينتظروه في المدينتين ويقتلوه إذا ما ظفروا به..

- كلا.. أريده حيًّا.. أرسلا رسولًا الآن إلى المنيا على وجه السرعة وأبلغاه بأوامري، أريد أن أقطع أنا رأسه بيدي تلك..

قالها صارخًا بانفعالٍ وهو يقبض كفه بشدة ويجز بفكيه، ثم التفت إلى كبير البصاصين وهو يردف بحسم:

- سأسلمك مئة كيس من الريالات، وزِّعها على رجالنا ليُشعلوا الفوضى في المحروسة وهم ملثمون، ثم أطلق المنادين بعدها في كل مكان يشيعون أنهم رجال الشاطر حسن، أما المُعلم جرجس ومساعده يعقوب فاتركا أمرهما لي سأتولاه بنفسي، هيا اغربا عن وجهي.

خرج الرجلان وأحدهما يضرب كفًّا بأخرى قائلًا لزميله بهمسٍ حرص على خفض وتيرته قدر ما يستطيع:

- لماذا لم تخبره بأن السيف سبق العذل؟ كيف سيلحق رسولنا بالسفينة قبل أن تبلغ مدينة المنيا؟! حتى الحمام الزاجل لن يفلح في ذلك، والله لو ركب رجلنا على جناحي صقر لا يستريح، فلن يدركها قبلها أبدًا!

***

استيقظ الحسن من رقدته معتل المزاج، لم يكن يستغرق في النوم أبدًا على مدار سبعة أيام على متن السفينة المتجهة به إلى مديرية أسيوط في أقصى الجنوب، يتأرجح كل ليلة بين الوجوم والكآبة غارقًا في الصمت، كان يتحرك بحرية في مساحة محدودة لا تزيد على مترين، تحيط به الدواب من كل الجوانب كسياج حيواني لم يستطع أن يتخطاه أبدًا، كي لا يختلط ببني جنسه، وكأن الماشية تحميه من شرور البشر وفضولهم، لديه ما يكفيه من طعام وشراب، بينما نوتي السفينة قد أخذ من المُعلم جرجس ما يزيد على حاجته من الريالات ليغض الطرف عنه وسط الماشية، وكأن الدواب قد زادت واحدة..

فجأة شقَّ الصمت صياحُ أحد النوتية وهو يتسلَّق حبال الساري الطويلة برشاقةٍ يحسد عليها:

- المنيا.. مدينة المنيا على يمينكم..

اشرأبت عنق الحسن ببطءٍ ليلمح بيوتًا طينية من طابق أو اثنين على الأكثر، تتناثر في عشوائية على شاطئ النهر العريض، وأشجار النخيل تمتد إلى ما لا نهاية على مرمى البصر وكأنها لن تنفد أبدًا، على مسافة

غيـر بعيـدة كانت سـفينة أخرى أصغـر حجمًا، لكنها أكثر سـرعة، تشـق النيـل، وتسـابق الزمـن لتلتقـي مـع القدر فـي موعـد مجهـول لكليهما، ولكن تشـي مقدماته بأن نهايته لـم تحسـم بعد، على مقدمة تلك السـفينة التي ترتفع مع زيادة السـرعة كان يقف شـاب يافع، أبيض البشرة، مفتول الذراعين، موفور الصحة، يرتدي جلبابًا داكنًا مزركشًا عند مقدمة صدره، ويحمل صُرَّة سـوداء كبيرة بيمناه، يلفح الهواء وجهه ويتطاير طرف شاله الكشـميري المائـل للحمرة مرفرفـا فيضرب أعلى جلبابـه كفرخٍ مربوطٍ إلـى كتفيه، يُغمض الفتى عينيه ويملأ رئتيـه بالهواء، ويتذكر لقاءه الأخير بالمعلـم جرجس الجوهري منذ أربعة أيام، وهو يشـدُّ على يده ويشـحذ همَّته ويزوده بأكياس جلدية من أنصاف الريالات الفضية، قائلًا له بصوته الرخيم:

- سـتحتاجها تباعًـا وحتمًـا، فمَن سـتقابلهم في رحلتـك لا يخطف أبصارهـم إلا بريق المال، ولن يلين عنق الرجـال أمامك إلا بعدما تعمي عيونهم بالريالات وأنصافها حتى يسد رنينها في جيوبهم آذانهم..

يغمـض الشـاب عينيه أكثر وهو يكاد يلهث فـي مكانه، وصدره يرتجُّ ببـطءٍ متذكرًا كيف امتطـى بعدها صهوة جواده، وأطلق لـه العنان لينهب الطريـق نهبًـا بعد الغـروب، وقبل بـزوغ النهار بقليـل كان قد بلـغ مدينة العياط على أطراف الجيزة ليستقل سفينة شراعية بتدبير من القس مكاري أسـقف جنوب الصعيـد، وها هو يقترب مـن بلوغ غايته، تمتمت شـفتاه يطلب شفاعة العدرا ليلتقي الحسن قبل أن تدرك سفينته مدينة المنيا..

استجاب الرب لصلوات الشاب يوسف الفقير، وتماست السفينتان، فنادى ريِّسها على نوتي الثانية ليقفز بعدها يوسف إلى متنها حاملًا صرَّته بيدٍ، ويدس في كفِّ النوتي بالأخرى كيسًا من الريالات؛ لتعلو عبارات الترحيب وتغطي على هواجس التماس المفاجئ؛ لتتراخى بعدها سفينته حتى تمرق السفينة التي تقل الحسن وعلى ظهرها يوسف الفقير، وكأنها تنسلخ عنها مثلما تتحرَّر الروح من الجسد العليل؛ لتحلِّق في سماوات رحبة من الطمأنينة والسكينة..

لم يكد يوسف يخطو أولى خطواته على سطح السفينة حتى ناداه النوتي مرة أخرى وقد أطل من عينيه الجشع في وقاحة، وهو يطلب كيسًا آخر من الفضة، وكأن شيئًا لم يكن، قائلًا بنبرة مغلَّفةٍ بتهديدٍ صريحٍ:

- العمر واحد والرب واحد، وأنا أريد أن أترك لعيالي ما يكفيهم إذا ما طارت رقبتي بسبب صاحبك الذي جئت لحمايته..

استنكر يوسف نبرة الحديث، خاصة أن يعقوب وجرجس أغدقا على النوتي بالمال عندما استقل الحسن السفينة من الجيزة، لكنه مع تذكُّر كلمات المُعلم جرجس عن المال الذي سيفتح له الأبواب المغلقة وطمع مَن سيقابلهم في رحلته، مدَّ يده بكيسٍ آخر على مضض وقدَّمه له، إلا أن النوتي كان قد أعماه الطمع لما رأى الصرَّة ممتلئة بأكياس أخرى ترقد على جوانبها متخمة بالفضة، فراح يمد عينيه بداخلها ويطلب المزيد، نهره يوسف بغضب، لكن النوتي لم يلن ولم تفت عزيمته وإصراره،

فوعده يوسف بالمزيد إذا ما وصلا للشاطئ بسلام آمنين أملًا في إسكاته، هنا لمعت عينا النوتي، ثم هزَّ رأسه بعد تفكيرٍ قليلٍ قائلًا:

- لا بأس، سأصبر عليك حتى نصل للبر، لكنك لن تغادر السفينة بصرَّة الفضة هذه.. ستتركها كلها لنا، ولا جدال فيما أقول وإلا سلَّمناك وصاحبك للمماليك..

قبل أن يعقِّب يوسف بأي كلمة أشار له النوتي في غلظةٍ بيده ناحية مؤخرة السفينة، حيث يقبع الحسن الرومي، قائلًا بنبرة مَن يُنهي الحديث:

- صاحبك وسط تلك البهائم.. هيا اذهب إليه ولا تضيع وقتي ووقتك.

اقترب يوسف من الحسن الجالس القرفصاء يمضغ طعامه وسط الدواب التي كانت بدورها تجتر بعض الفول المدشوش وتلوكه في تلذذٍ، مستمتعة بشمس الصعيد الدافئة، غير عابئة بنُذُر العاصفة التي ستهبُّ بعد قليلٍ من ناحية الشاطئ، وقف أمامه مباشرة حتى حجب عنه ضوء الشمس ليرى وجهه بوضوحٍ قائلًا:

- أنا يوسف الفقير من تلاميذ المُعلم جرجس..

قالها وأطلَّت الابتسامة من وجهه المشرق في بشاشةٍ إلا أن الحسن راح يرمقه بعينين قلقتين، وقد أبطأ من مضغ طعامه، تفرَّس فيه قليلًا فطمأنته نظافة ملبسه وحُسن هندامه وصدق ملامحه، لكن روح المغامر

بداخله ظلَّت عصيَّة على الانسياق وراء مشاعره، فرجحت كفة عقله، وتحسس طبنجته ببطءٍ وهو يتذكر حديث المساعد يعقوب له بأن مرافقه في رحلة هروبه في الصعيد الذي سيصعد للقائه على سطح السفينة سيكون اسمه يوسف الفقير، لكن العلامة المتفق عليها أن يرتدي شالًا أخضر من الحرير على ظهره صليب ذهبي صغير، فلما لم يجده الحسن توجَّس خيفة من الفتى..

اتسعت ابتسامة يوسف أكثر وكأنه يقرأ أفكار الحسن، ثم فكَّ صُرَّته مخرجًا الشال الأخضر منها، وفرده أمامه بعد أن قلبه ليرى بوضوح الصليب الذهبي الصغير أمام عينيه؛ لترتاح قسماته ويطمئن قلبه ويهدأ عقله..

- خشيت أن أرتديه وأنا في طريقي إليك؛ فقد تكون هناك وشاية وتصل أخباري إلى العسس والبصاصين فلا أدركك أبدًا.. خاصة أننا نشتري بعضهم بالمال، ومَن يُشترى يسهل عليه البيع، فلا أمان لهم..

نهض الحسن واحتضنه في ودٍّ كأنما كان يفتقد وجوده بشدة.. ربَّت يوسف كتفه، ثم قال وقد اكتست نبرته بجدية بالغة:

- كمال الدين أرسل خلفك مرتزقة ليقتلوك، وسوف يستوقفون كل المراكب هنا في المنيا؛ لذا لا بد أن نُجري تعديلًا طفيفًا على خطة هروبك..

- كيف؟

سأل الحسن متوجسًا وهو يرمي بصره صوب الشاطئ الذي بات قريبًا للغاية، وقد لفت انتباهه رجال كثيرون مسلَّحون يتأهبون لاستقلال قارب كبير..

قطع يوسف تركيزه قائلًا:

- لا تشغل بالك بالتفاصيل الآن، كل ما عليك أن ترتدي زي الحريم مرة أخرى وتُسدل اليشمك على وجهك وتتصرف كامرأة خجول..

عبث يوسف بصُرَّته مخرجًا طبنجة ذات فوهة قصيرة قدَّمها للحسن، فبادره وهو يضغط على جانبه:

- معي واحدة وبارود يكفي لمعركة يوم كامل..

فوضعها يوسف في مقدمة بطنه، ثم أخرج عباءة كبيرة لفَّها على كتفيه وأحكم ربطتها عند وسطه ليداري سلاحه.. انتبها إلى أن السفينة قد توقفت على مسافة مئة متر من الشاطئ، وبدأ القارب الكبير الممتلئ برجال يرتدون ملابس متشابهة، وعمائم سوداء صغيرة، يقترب ببطءٍ من سفينتهم..

التفت الحسن خلفه فلمح النوتي الذي كان يهدِّده بالوشاية يقف على لوحٍ خشبي عريضٍ يحفظ توازنه بالكاد، وقد وضع له ريِّس السفينة حجرًا ضخمًا بنهاية اللوح من طرفه الآخر ليظل مستقيمًا فلا يهبط تحت ثقل وزن النوتي، والذي كان يلملم الشراع بعد أن مدَّ سُلمًا من حبالٍ غليظةٍ ناحية الماء، بحيث يتدلى على جانب السفينة؛ ليصعد

منـه الرجال المسـلحون بالبنادق، فلما ارتقوا سـطحها وقف كبيرهم في منتصف السـفينة آمرًا ريِّسـها بجمع الرجال في جانب والنساء في جانب آخر، وطلب من رجاله تفتيش السـفينة والمسـافرين تفتيشًا دقيقًا.. كانت لهجتـه الغليظة وصوته الجهـوري وعيناه اللتان تطقان بالشـرر مقدمات تنبئ بوضوح عن بدء مراسم ذبح الحسن إذا ما ظفروا به.

تبادل يوسـف الفقير نظراتٍ ذات مغزى مع عيني الحسـن الحائرتين خلف البرقع السميك وهو يشير برأسه ناحية النوتي، فهزَّ الحسن رأسه له بالإيجاب وابتسـامته الماكرة تكاد تفضـح رجولته من وراء نقابه، راحت أصابعهمـا تفك عقدة حبـال الدواب في هـدوء، وعيناهمـا مثبتتان على الرجال المسلحين وهم ينتشرون كالجراد على ظهر السفينة، أطلقا سراح الدواب كلها وراحوا يدفعونها دفعًا لتنطلق هائمة وهي تخور وتنعر محدثة جلبة وفوضى بهرولتها العشـوائية، في ثوانٍ خاطفةٍ كان الحسن ويوسف يقتربان من اللوح الخشـبي من ناحيـة الحجر الضخم الذي يحفظ توازن النوتـي، وفي لحظة توافـق بعد تبادل نظرة صامتة كإشـارة أخيرة، دفعت كفوفهمـا الحجـر من على اللوح فاختـل توازن النوتي المنشـغل بلملمة الأشـرعة ليسقط في الماء فجأة، ويصيح يوسـف بصوتٍ عالٍ وهو يشير نحوه لافتًا الأنظار بشدة:

- أدركوا الملثم..

كان ما حدث كافيًا لينطلق أربعة رجال مسـلحين صوب الناحية التي هـوي منها النوتي إلى النهر ليشـدوا زناد بنادقهـم ويمطرونه بالرصاص؛

لتطفـو جثته بعد قليلٍ وحولها بركـة داكنة وتتدافع نوافير الدم الطازج من ثقـوب متناثرة ببطنه وصـدره ورقبته.. تجمهـر ركاب المركب كلهم في تلـك الناحية، وقد راعتهم المفاجأة وأخذتهم الواقعة والتصقت الدواب بالناحيـة الأخـرى فزعـة خائفة، وكأنهـا تحتمـي ببعضها البعـض، وبدا الـركاب بإطلالتهم على الماء كمَن يُلقون نظـرة وداعٍ أخيرةٍ على جثمان النوتي..

عـلا صراخ النسـوة تقليـدًا أعمى لصرخـة الحسـن ليحفزهن، وراح ريِّس السـفينة يعنِّف العسـس على مقتل أحد رجاله بغير ذنب، واشـتبك وبقيـة النوتية معهم في عراكٍ لتـدور رحى صراع غير متكافئ بينهم، لكن سـرعان مـا ارتدع البحارة وراحـوا يلزمون أماكنهم بعد أن طُرح ريِّسـهم أرضًـا وتناوبوا على ضربـه بكعوب بنادقهم على مؤخرة رأسـه ووجهه، حتى سـكن جسـده وتورَّم وجهه وراح ينزف ببطءٍ مـن أجزاء متفرقة من دماغه..

لم يلحظ أحد وسـط هـذا الصخب الرجلين اللذيـن هبطا من أقصى يسـار مقدمـة السـفينة، وانزلاقا بهدوء إلـى صفحة الماء ليسـبحا تحتها، ويوسف يرفع يده قليلًا بالصُّرة كي لا تبتل قدر المستطاع، لم يخرجا من الماء إلا مرة واحدة بنصف رأس ليلتقطا أنفاسهما بعمقٍ حتى بلغا الضفة الأخرى من النهر بعيدًا عن المرسى، هرولا وسط حقول القصب الكثيفة ليختبئـا بداخلها ويتجرَّدا من معظم ملابسـهما حتى تجـف، وقبعا وهما يلهثان يراقبان السـفينة التي اسـتحال سـطحها إلى فوضـى عارمة اختلط

فيها الدواب بالبشر في مشهد عبثي، وقد جُن جنون العسس والمرتزقة من رجال كمال سيف الدولة وهم ينزعون براقع النسوة ويدفعون رجالهم الغاضبين بعنف في صدورهم..

نظرا لبعضهما ثم ضحكا في سخرية وهما يتأملان طبنجاتهما وقد تحولت إلى قطع صمَّاء خرساء من الحديد بعد أن أفسدتها مياه النيل، تنفسا الصعداء بعمقٍ وهما لا يصدِّقان أنهما قد أفلتا من الموت الذي كان يحلِّق فوق رأسيهما منذ قليلٍ ولا يزال يحوم كالغربان على بعد أمتار منهما في عرض النهر مع أصواتِ البارود التي راح العسس يطلقونها بعشوائية غضبًا وحنقًا.

***

16
معركة الفرصة الأخيرة

مثلما يمرق شعاع الضوء وسط عتمة الليل فيشقها ويُضفي عليها رونقًا خاصًّا يبدو مبهرًا لوهلة، اخترق محمد بك الألفي صفوف قواته التي عسكرت قرب الجيزة خلف جزيرة الذهب، وبرشاقة شديدة انزلق من على ظهر جواده، وقد التفَّ حوله فرسانه بزي الحرب، وبدا من هيئتهم أنهم قد استعدوا لها جيدًا، أطلَّت الوحشية من عيونهم، واستعرت نيران الانتقام في صدورهم.. عشرات الخيام الكبيرة نُصبت في المكان، وآلاف الخيول ومئات البغال حولها وبالقرب منها.. سيوف تبرق على ضي القمر قبل أن تستقر في غمدها، بنادق تملأ بالبارود، ورماة يشدون أوتار أقواسهم وعروق أذرعتهم النافرة تعلن عن عزيمة قوية للفتك بأعدائهم..

العيون كلها مصوَّبة ناحية الألفي بك وهو يسير بثقةٍ كبيرةٍ، وخيلاء واضحةٍ شحذت همتهم القتالية وجعلتهم يستنشقون رائحة النصر ويُعبِّئون صدورهم بها فيزدادون ثقة.. اجتاز الفارس المملوكي الصفوف، وعن يمينه ويساره مناجيق كبيرة خلفها جنود تُعدُّ كرات اللهب وكتل الحجارة لقذفها نحو قوات محمد علي، على مقربة ترقد مدفعية خفيفة

على عجلات خشـبية رفيعة تتأهب لاتخاذ مواقعهـا، يحييهم الألفي بك ملوحًا بقبضتين مضمومتين ونظرات الفخر بقواته وعتادها تقفز من عينيه لتستقر في وجدانهم فتزيدهم نشـاطًا وهمة.. اعتلى الرجـل بقفزتين تبَّة صغيرة أُعـدت خصيصًا، وقف صامتًا لبرهة حتى تسـكن الهمهمات من حوله، ثم علا صوته الجهوري:

- اليـوم معركـة الفرصـة الأخيـرة.. حياتنـا أو هلاكنـا للأبـد.. نحن حكمنـا هذا البلد سـنوات طويلة وسـنظل، فلنا فيه أكثر مـن أهله والغلبة دائمًـا للأقـوى، تذكروا أنكم الأسـياد، أنتـم أصحـاب الأرض، أنتم من عمرهـا وبناها، فلا تتركوها لمرتزقـة جاءوا من بلاد بعيدة لينزعوكم منها مثلما تُقلع النبتة من غرسها..

عـلا تصفيق الجنود فاستحسـنه لوهلة، ثم بسـط كفه فـي مواجهتهم ليُكمل بثقة أكبر:

- عندمـا يأخذ الهجوم مجـراه لا تتوقفوا أبدًا عن إطـلاق النيران في أي ساعة من ساعات الليل والنهار، لديكم ذخيرة تكفي لإحراق القاهرة أربعة أيام بلياليها إن أردتم..

ثم أردف وقد أخذته الحماسة تمامًا:

- إن التخلـي عـن الهجوم في أي وقت سـيؤدي إلى تهدئة مخاوفهم وتقوية عزائمهم.. تقدموا كالأسود.. أريد أن تفترسوهم تلك المرة..

دوَّت أصـوات التصفيق بشـدة، كمـا ارتفع الصيـاح بصيحة الحرب حتى التهبت الكفوف وشُقَّت الحناجر لدقائق بدت طويلة، بعدها غطت

الطبـول المدوية المزدوجـة على كل صوت وهي تعلـو تدريجًا باقتراب الجِمـال التي تحملها على ظهورها.. أكثر من ثلاثمئة جَمل وناقة حصل عليهـا الألفـي بـك بمعونة ماليـة من قنصـل إنجلترا لتصاحـب قواته في غارتـه المنتظرة على الأرناؤوط التي يراهن عليها الإنجليز.. فالألفي هو ورقة اللعب الأخيرة على مائدة حكم المحروسـة الآن، كما كان القنصل الإنجليزي يردِّد في كل برقياته إلى لندن..

انتظمت المشية العسكرية لقوات المشاة وهم يدقون الأرض بكعوب أحذيتهـم ذات الرقبـة العالية ويقرعون الطبول بشـدة لإلقـاء الرعب في قلـوب أعدائهـم كعادتهـم فـي كل معاركهـم، لكـن تلـك المـرة بأعداد مضاعفـة ثلاث مرات لإنهاك الـروح المعنوية لخصومهـم الأرناؤوط.. بات الصوت كالرعد الذي يشقُّ عنان السماء.. اخترق الصفوف المتكتلة بصعوبـة كمال الدين سـيف الدولـة صحبة أربعة من حراسـه يحيطون به حتـى يكادوا أن يلتصقوا بجسـده كثوبـه.. اقترب من الألفي بك هامسًـا فـي أذنـه بأنه كلَّـف بعـض المرتزقة التابعين لـه بحرق بيـوت المصريين والأرنـاؤوط، ومحاولة اغتصاب نسـائهم، وأن رجائـي أفندي الدفتردار ضاعف الجزية بعدما أقنع خورشيد باشا بضعف الموراد المالية.. مؤكدًا أن كتائـب الجيـش العثماني تُحكم قبضتها على أقسـام القاهـرة الثمانية بكل حسم وشدة.

استحسن الألفي الحديث وهو يهز رأسه فأردف كمال الدين.

- ومَن لا يدفع نُعلِّق رأسه على أبواب القاهرة.. النصر لنا بإذن الله.. آن لهذا البلد أن يستقر على أيديكم..

ربَّت البك كتفه مرتين بشدة محفزًا، وراح يتفقد الرماة، بينما انسحب كمـال الديـن مع رجاله بعيدًا عـن أرض المعركة المنتظـرة قبل أن تبدأ.. كان حملـة الأقواس يملئون جعبتهم بأقواسـهم، فراح الألفي يسـاعدهم بنفسـه.. ويراجع عددها معهم، ويشـد أوتار بعضها بيده ليختبرها.. كلها كانت مصنوعة من ريش النسـور لتذهب إلى أبعد مسـافة ممكنة.. تخرج من شفتي القائد كلمات مشجعة كل برهة لعساكره:

- أريد أن تخترق سهامكم صدورهم.. اعملوا على تقويض الخنادق وردمها بأسرع وقت ممكن، لدينا أطنان من الأتربة محملة على العربات الخشـبية في المؤخرة.. اضربوا المناجيق الكبيرة أولًا بمقلاعنا.. فتتوها قطعًا صغيرة لتتفتت عزيمتهم معها.. إذا كانوا أسودًا كما يدَّعون فاعلموا أنهم أسود جريحة الآن.. هيا.. فتلك فرصتنا الأخيرة.. اقتنصوها.

خرج رسـول والي مصر خورشيد باشا من خيمة محمد علي تاركًا إياه غارقًا في شـرودٍ أشـبه بالغيوم الثقيلة التي لا تحمـل تفاؤلًا أبدًا، فقد رفـض الباشـا دفع أجـور جنـوده الأرناؤوط متعلـلًا بضعـف الإيرادات وكثـرة القلاقـل والاضطرابات من مرتزقة كمال الديـن الذين ادَّعوا أنهم رجال الشاطر حسن ليقلبوا العامة عليه وعلى قائده محمد علي.. فحرقوا ونهبوا كل ما طالته أيديهم، توترت العلاقة بين الباشـا والجنرال أكثر بعد أن انقطعـت الزيارات المتبادلة منذ فترة بالقلعـة، حين طالبه محمد علي بصلفٍ شـديدٍ بإعداد كشـف عن موارد المحروسـة من بداية تولِّيه حكم

مصر مستغلًّا نفوذه الذي كبر، ومساعدة قنصل فرنسا ودعمه له، وأمل المصريين فيه ليُخلِّصهم من شرور المماليك وتعجرف الأتراك..

كان الغرور قد تمكَّن من محمد علي وأسكرته نشوة السلطة، حتى القادة العسكريون وكبار رجال الدولة كانوا يزورونه في معسكره مخالفين أمر الوالي ممَّا ضاعف من تعاليه وثقته بنفسه، لكن بعد أن أحكم الألفي حصاره، تغيَّر الحال وتبدَّل اتجاه الريح وبات أشبه بتقلُّب الطقس في الصحراء، وصارت نذر الرياح الخماسينية على وشك الهبوب، فاحتمى الجميع خلف قوات المماليك بقيادة الألفي، وتركوا محمد علي يواجه العاصفة بمفرده، فشعر بأن الباب العالي سيخذله كالعادة.. ألقى نظرة طويلة من باب خيمته على قوَّاده وقوَّاته وهو يزفر بضيق وقد ازداد وجهه تجهمًا بدت آثاره واضحة وهو يزمُّ جبهته ناهضًا ببطءٍ متوجهًا إليهم ليشحذ هممهم ويقوِّي عزائمهم، بينما هو يكاد يهوي يأسًا وإحباطًا..

«عندما أتيت إلى مصر، ظننت أن أهلها لا يختلفون كثيرًا عن البربر غير أنهم طيبون، وباستثناء الكتبة لم يكن بها أكثر من مئتي شخص يعرفون القراءة والكتابة، والبقية لا يستخدمون عقولهم، وإنما تحركهم غرائزهم إلا قليلًا منهم، لكنني مع مرور الوقت وجدتهم محبين للحياة، مطيعين، ودودين، يستحقون المساعدة، وأمنيتي قبل أن أموت تكوين مجلس شورى من الرجال الأمناء الذين يصلحون لحكم المحروسة بعيدًا عن سيطرة المماليك والباب العالي، فالأتراك متكبِّرون، جهلاء، وسيؤدي جهلهم إلى إغراق البلاد في الفوضى، والمماليك لا أمان لهم

ولا عهـد، ولـو تمكنـوا منَّا سـيعلِّقون رؤوسـنا على كل باب مـن أبواب القاهرة.. والجميع لا همَّ لهم سـوى نهب المحروسة، أنتم وحدكم أملي الأخيـر لتكونـوا نواةً لجيشٍ قوي يحمي هذا البلـد المليء بالخيرات، أنا لا يهمني الانتصار في معركة حربية بقدر ما أسعى لكسر عزيمة المماليك فـلا يفكرون فـي المقاومة ثانيـة، أريدهـا أن تكون المعركـة الأخيرة بيننا وبينهـم، اعلمـوا جيدًا أن الحيـاة رحلة قصيرة، والمحـارب رحلته تكون أقصـر أحيانًا، ولكـن في نهايتها سـنبلغ الهدف الذي اخترنـا أن نحيا من أجلـه، فلا تيأسـوا أبـدًا، فكمـا بدأنا بعزيمـة سـنبلغ غايتنا بـذات الهمة، ولا تخشوهم فليس كل ما يُحدث رنينًا عاليًا يكون بالضرورة ذهبًا»

تحشرج صوت محمد علي قليلًا واغرورقت عيناه بدموعٍ ظلَّت تتلألأ بكبريـاء وتحبس نفسـها بمقلتيه كي لا تنهمر، ثم ابتلـع ريقه بصعوبة بعد أن ختم كلمته لجيشـه الصغير وهو يجول بعينيه الغائرتين، الحائرتين بين وجوه فرسانه وجنوده؛ ليقرأ جاهدًا ما يدور بأفكارهم.. لكنهم لم يعودوا كما كانوا كتابًا مفتوحًا أمامه.. صار هناك حاجز شفَّاف أُسدل بينه وبينهم فبات يحجب الرؤية ويعيق الفهم، نال الإرهاق منهم وضاقوا ذرعًا بالكرِّ والفرِّ والحرب بلا طائل في بلاد غريبة بعيدة، أنهكهم الحصار وإن كانوا لـم ينتبهوا بعد لجسـامته وشـدته، فقـد كان المماليك يتركـون لهم ثغرة لينفُـذوا منها حتى يصطادوهم فيها بسـهولة، لكن محمد علي تنبَّه لها في المرة الثانية، وتوقعها وتجنبها، فطالما نفَّذها في معاركه ضد الفرنسـيس في رشيد والإسكندرية..

نهض من جلسته.وسار وسط قواته وقد استقامت مشيته بعد أن زالت أوجاع ساقه اليسرى.. توقف عند قائد الرماة مطالبًا إياه بأن يكون شد أوتار القوس حتى أذن الجندي وليس إلى عينه مثلما كانوا يفعلون؛ لكي تكون النتائج فعالة من الرمية الأولى..

وضع يديه على كتف قائده في مودة قائلًا:

- لن نحتاج إلى سهمين لقتل كل مملوك، سنضرب تلك المرة من مسافة مئة متر فقط، سنقترب منهم، سنخيفهم، سنلقي الرعب في قلوبهم بجسارتنا، والمقلاع من ورائكم يحمي ظهوركم..

ثم رفع إصبعه عاليًا:

- كل سهم في جعبتكم سيقتل مملوكًا واحدًا..

عاد يلتفت إلى قائده لسؤاله عن عدد الأسهم في كل جعبة يحملها جنوده..

صاح القائد:

- ستون سهمًا..

ثم أشار لأحد الجنود ليتقدَّم، فاقترب الجندي وهو يحمل جعبته على ظهره، ووقف منتصبًا أمام محمد علي مؤديًا التحية العسكرية.. ابتسم الجنرال، ثم عَدل وضع الجعبة بحيث تكون فوهتها مائلة إلى الأمام أكثر لتُسهِّل من سرعة إعداد السهام وإطلاقها..

على مقربة كانت مجموعة من الجند الأرناؤوط منشغلة بترتيب السهام المصنعة من الحديد المُسخن لدرجة الإحمرار، والتي يتم إطفاؤها بالماء المالح لتكون حافتها أكثر حدَّة.. اقترب منهم محمد علي وفتح الصناديق معهم وراح يعاونهم كواحدٍ منهم، ثم وزن بكفِّه سهمًا ذا رأسٍ مربعٍ، وتحسس نهايته، وناوله للاظوغلي قائد قواته قائلًا:

- ابدءوا بهذه؛ فهي الأفضل لاختراق دروع المماليك..

اطمأن على وصول بقية صناديق السهام ذات الريشات الثلاث بعيدة المدى من الإسكندرية، والتي صنعها له بعض الفرنسيس الذين تخلَّفوا عن الحملة، في ورشة صغيرة بمنطقة أبي قير، وأمدُّوه بها في قافلة دبلوماسية عبرت الحصار على أنها تحمل متاع القنصل الفرنسي الجديد.. بدأت الثقة تتسرَّب إلى جنوده تباعًا وهو يدور بينهم، فلما تيقَّن منها أمسك بطرف خيطها بقوةٍ متشبثًا، وعلا صوته بحماس محفزًا إياهم:

- اقتربوا منهم بدروعكم، لا تخافوا أبدًا، سأكون معكم في الصفوف الأولى.. لن تفلح سهام ريش النسر التي يستخدمها المماليك في كسر عزيمة صقور الأرناؤوط..

رفع جنوده سهامهم إلى أعلى وهم يهتفون له.. بحث الجنرال بعينيه عن قائد مدفعيته، فلما وقع بصره عليه، وكان قصيرًا متواريًا خلف قائد المشاة الضخم، خاطبه بصوتٍ عالٍ ليُسمع الجميع من حوله:

- اضربوا المناجيق الكبيرة وفتتوها قبل تركيبها، فهم دومًا يؤخِّرون استخدامها للثلث الأخير من المعركة، سنهجم من جانب واحد تلك المرة بسبب الحصار، وبقية القوات تحمينا من الخلف.. أما السفن فاضربوها عندما تبدأ في التحرك، لا تنتظروا حتى تقترب من البر.. إنها فرصتنا الأخيرة، ألا تقتنصونها؟!

انسحب بعدها مطمئنًا للإجابة التي لم يقلها جنوده، لكنه واثق من أنهم سيفعلونها بعد أن لاحت في أعينهم وعلى قسمات وجوههم، عاد لخيمته طالبًا جمع قادة قواته جميعًا ليراجع معهم خطة تطوير الهجوم، وفي طريقه جذب نائبه من رسغه برفقٍ قائلًا بصوتٍ خفيضٍ:

- هل توصل الفلكي الفرنسي إلى نتائج إيجابية فيما أخبرنا به منذ يومين؟

- ليس بعد يا سيدي، ولكنه عاكف على أدواته الهندسية ما بين الإسطرلاب والمنظار منذ الصباح في خيمته، يخرج أحيانًا ليستطلع ويعود مرة أخرى ليراجع حساباته، وعشرات الأوراق مبعثرة في خيمته.

هزَّ رأسه ثم عاد يسأل بنبرةٍ يشوبها الإحباط:

- وهل وصلتنا إمدادات جرجس الجوهري من السلاح والبارود؟

أطرق الرجل قليلًا وأجابه في يأسٍ زاد من إحباطه:

- للأسف انقطعت أخباره عنَّا منذ هروب الشاطر حسن للصعيد، وبعد الحصار لم نستطع التوصل إليه ولكننا أرسلنا رسولًا إلى دار مساعده يعقوب ولم يعد بعد..

سكت الرجل برهة ثم سأل محمد علي باهتمام:

- هل ستوافق على مشروع القناة التي يريد الفرنسيس حفرها ناحية السويس؟

قبل أن يجيبه القائد استدرج قائلًا:

- لقد سألني الفلكي الفرنسي أكثر من مرة وطلب مني مفاتحتك في الأمر، وهم يقولون إن التجارة سوف...

قاطعه محمد علي بصوت رخيم وكأنه يستشرف مستقبله:

- لا، لن أفعلها، سأسلمهم رقبتي بسهولة لو وافقتهم على هذه الفكرة..

ثم برقت عيناه ببريق غريب وهو يسترسل:

- لو حفروها سيدفوننا فيها للأبد ولن يخرجوا من مصر أبدًا..

قال عبارته الأخيرة ثم أشاح بوجهه بعيدًا وهو يتطلَّع إلى السماء وكأنما يطلب معونة الرب في هذه المحنة، فلمح القمر بدرًا منيرًا يتوسطها في ثقة ويرسل خيوطه الفضية لتضيء وجهه المكفهر، لكنه لم يهنأ كثيرًا بالراحة، فسرعان ما عبرت سحابة ضخمة حجبت ضوءه ثم أبطأت من حركتها وكأنها تعاند القائد ورجاله.. فالتفت إليهم قائلًا وهو يتنهد بضجر:

- أضيئوا بعض المشاعل و اجلسوا حولي..

ثم أمسك بعصاه الطويلة وراح يرسم خطوطه على الرمال، وسرعان ما اندمج.

***

17
السوق

قرب الظهيرة بلغ يوسف الفقير والحسن الرومي السوق راكبين على ظهر بغلة اشتراها بضعف ثمنها من فلاح بحقل قريب من شاطئ النيل، ذابا تمامًا وسط الزحام، عشرات الجِمال التي يسحبها عبيد لعرضها للبيع، أوان نحاسية تمتلئ بأطعمة نصف مطهوة، بعضها يحوي رأس عجل، وأخرى تحوي أمعاءه، وثالثة تغطس فيها قطع لحم مختلفة الأحجام بعضها ملتوٍ على نفسه ويسبح على حساء أحمر داكن ذي رائحة نفاذة، طيور تقبع فوق أقفاص مفتوحة من أعلى مصنَّعة من جريد النخل ومربوطة من سيقانها، تنقر في الهواء نقرتين وتميل برقبتها يمنة ويسرة في دهشة من تزاحم روَّاد السوق حولها ثم تلتقط بعض الحبوب من إناء فخاري أمامها في سرعة وكأنها تخشى أن يصيبها ضرر إن غفلت قليلًا..

يلفت انتباههما رجل ضخم يرتدي قفطانًا أزرق وشالًا أخضر وعمامة حمراء صغيرة، وله كرش عظيم، ينادي على بضاعته فيقتربان منه ليكتشفا أنه يعرض إماءً وجواري مجلوبات من السودان، يستعرض

رشاقتهن وملمس أجسادهن الناعم وأنوثتهن الطاغية، واصفًا عرقهن أثناء المباشرة بالمسك ليُغري الناس بالشراء، وراح يستفيض بلسان شاعر فصيح يحرص على السجع في كل عباراته مبالغًا في مزاياهن وطراوة أبدانهن، وكيف لا تترهل أرداف وأثداء جواريه حتى مع تقدمهن في العمر، على مقربة من خيمة الجواري أقيمت بوابة من الصاج، رفيعة، عالية، لها فتحة واحدة صغيرة تسمح بالكاد لمرور حمار منها ليلزم مكانه على عتبتها بعد أن يجتازها بجسمه حتى ذيله؛ لينادي المكاري على بضاعته، فيذكر محاسن حماره ويستعرض فوائده وعمره الصغير وخصاله الطيبة وقوة تحمله..

دار الحسن خلف البوابة الصاج وقد أخذه الفضول ليجد وراءها عشرات الحمير والخيول مختلفة الأشكال تنتظر دورها، بعضها أكبر حجمًا وأفضل حالًا بكثير من الحمار المعروض للبيع أمام البوابة، انتابته الدهشة قبل أن يهمس له يوسف الفقير وهو يضحك:

- لو عرضوا الحمير كلها في وقت واحد لن يباع سوى ثلاثة أو أربعة منها فقط، لكنهم بهذه الوسيلة يضمنون بيع الهزيل والمريض والكسول أولًا للخلاص منها، هذا هو نظام الدور المتبع يا عزيزي..

يضحك الحسن معقبًا:

- مثل الأقدمية في تولي الوظائف لدى العثمانيين والأتراك.. فالحمار من أولاد السلطان الذي وُلد أولًا هو مَن يصبح عليه الدور ليحكمنا، وقد يكون هناك جواد من سلاسة أخرى أفضل، لكن هذا الحمار أقدم..

ثم هتف بأسى:

- لعن الله الأقدمية فلم تورثنا إلا الحمير..!

مرًّا بعدها بنخَّاسٍ يبيع العبيد من الرجال مربوطين إلى جوار بعضهم بسلاسل كبيرة من الحديد المضفر عند أقدامهم الحافية المشققة كي لا يهربوا، ورغم البؤس الذي يغمر وجوههم، إلا أنهم قد بدوا بصحة جيدة، امتعض وجه الحسن قليلًا ووقف متسمرًا مكانه يتابع النخاس وهو يعرض بضاعته بفخرٍ، فلما لمح الرجل اهتمامه بدا وكأنه يخاطبه وحده، وراح يبدِّل في عيوب ونواقص عبيده ليحولها إلى مزايا، اقترب يوسف الفقير من الحسن هامسًا في أذنه:

- لا تصدق كل ما يقوله النخاس.. فالذي تراهم هنا هم من فضلات البكوات الذين لم يشترِهِم أحد، فالعيون الكبيرة عادة ما يكون صاحبها كسولًا وبليدًا، والوجوه التي يقل فيها اللحم تشي بغلظة الطباع، والجبهات الضيقة علامة غباء شديد وعناد كالحمار..

ابتسم له الحسن نصف ابتسامة استنكار، ومضى معه مكتفيًا بما رآه وما سمعه.. اخترقا الجانب الغربي من السوق مشيًا على الأقدام في تكاسل، وتناولا طعامهما بمقهى قريب، وشربا الكثير من القهوة لينتبها أكثر، ثم غاب عنه يوسف لفترة ليعود إليه بصحبة رجل مهيب الطلعة، وقور الملامح، خفيض الصوت، له نظرات ثاقبة تخترق الوجدان فلا يملك المرء أمامها إلا قول الحقيقة..

جلس الرجل وهو يتفحَّص وجه الحسن ولا يتكلم، قدَّمه يوسف الفقير له على أنه قَس من كنيسة مديرية المنيا، تململ الحسن في جلسته ونظر إلى يوسف متسائلًا بعينيه عن الخطوة القادمة فطمأنه قائلًا:

- سننتظر حتى بعد العصر بقليل ثم نتحرك ليسترنا الليل عند وصولنا.. فالمكان الذي سنذهب إليه لا بد وأن ندخله قبل حلول الظلام.. وإلا قتلونا!

- أين؟

قالها الحسن بقلق..

تحدَّث القس المهيب لأول مرة سابقًا يوسف وهو يقول:

- عزبة أبو دياب..

علت الدهشة وجه الحسن قليلًا على وقع كلمة العزبة فأردف الرجل.

- سليم أبو دياب واحد من الشُّطَّار ويعيش على أطراف المدينة مع رجاله من المطاريد قرب الصحراء في اتجاه مديرية أسيوط، وهو المكان الوحيد الآمن في المحروسة كلها تلك الأيام، فلا أحد يجرؤ على مجرد الاقتراب من العزبة..

قال عبارته ثم تلفَّت حوله و مدَّ يده ناحية الحسن قائلًا:

- أعطني كفك يا ولدي..

تفرَّس الرجل في كف الحسن وراح يقول له كلامًا كثيرًا حتى قطعه يوسف الفقير عندما نهض فجأة هاتفًا:

- ها هو الريِّس رضوان قد حضر أخيرًا..

مضى الركب المكون من أربعة أشخاص قبل الغروب يسابق قرص الشمس الذي بدأ يتأهَّب للزوال بعد أن دكن لونه أكثر وأكثر وكأنه يحثهم على الإسراع في السير قبل أن تبتلعهم دروب الصحراء تحت وطأة الظلام..

ساروا طابورًا، أولهم كان رضوان دليل الركب ومورد الطعام وقرب الماء لعزبة أبو دياب، وشقيق أشهر سارقي الماشية في صعيد المحروسة، والذي اعتزل السرقة من المدينة وعاش مع المطاريد في العزبة منذ أن رصدت حكومة المماليك ألف ريال لمن يأتي برأسه بسبب مئات البهائم التي سرقها فآواه أبو دياب وصار من رجاله المقربين وأصبح رضوان دليلًا في الصحراء من فرط ما خدم أخاه، وصارت تلك مهنته التي يتكسَّب منها، وثانيهما كان القس المهيب، رسولهم إلى سليم أبو دياب زعيم المطاريد والآمر الناهي في تلك البقعة النائية من أرض المحروسة، وثالثهما يوسف الفقير الذي أنقضت الأحمال ظهره بعدما قرر أن يتولى حملها باعتباره أصغرهم سنًّا، ورابعهم هو الحسن الرومي الذي كان يتعقَّب قرص الشمس في توتر وانفعال مكتومين بعدما علم من الدليل رضوان بضرورة الوصول إلى العزبة قبل أن يُسدل الليل أستاره، وإلا اضطروا للمبيت وسط كثبان الرمال الناعمة المترامية ولكن

في يقظة خوفًا من الذئاب التي زادها قفر المكان وحشية على شراستها وغدرها..

قطعوا مسافة كبيرة بمحاذاة النيل حتى افترقوا عنه متجهين إلى قلب الصحراء، كان رضوان يحمل قربتين من الماء على ظهره بينما يقبض القس بيده على سلة مُلئت بالخبز الجاف والقليل من الطعام، في حين اضطلع يوسف الفقير بحمل الأمتعة التي سيحتاجها الحسن خاصة المحبرة وأدوات الكتابة والبطاطين الخشنة المصنوعة من صوف الغنم، قطع الركب في سيره ساعة ونيف من الزمن حتى غابت عن أعينهم مشاهد الوادي الأخضر وبيوته الطينية الصغيرة، ثم راحوا يصعدون جبلًا أجرد في درب ضيق يكفي بالكاد نفرًا واحدًا يكاد يتوارب في مشيته وحصاه يزل تحت أقدامهم.. عن يسارهم وادٍ سحيق كئيب المنظر يزداد عمقًا كلما ارتقوا وقد انتصبت صخوره الصماء المدببة منذرة كل مَن يسقط عليها بموتة لا رحمة فيها أبدًا..

بلغوا أخيرًا قمة الجبل وجلسوا يتلمَّسون بعضًا من راحة مفتقدة.. ألقى الحسن نظرة بعيدة إلى الوادي القابع خلفه وقد انكشفت الصحراء على مرمى بصره بوضوح، فلمح من بعيد شريان النهر يلمع بشدة كشريط فضي على ضوء شعاع الشمس الأخير وهو ينساب مهيبًا بين الجبلين، وأمامهم على مسيرة دقائق قليلة بدت عزبة سليم أبو دياب متنمِّرة بقبابها الصغيرة وبيوتها الحجرية العشوائية وسط الصحراء وكأنها تلوذ عن مكانها بهيئتها المعمارية الموحشة المخيفة فلا يشتهي أي عابر سبيل الاقتراب منها..

قطع الصمتَ صوتُ القس المهيب مخاطبًا الحسن:

- هنا ستقيم..

قالها وهو يشير بيده ناحية القباب المنتشرة على مرمى البصر.. بدءوا رحلة الهبوط متجنبين السير على الرمال حتى لا تترك أثرًا لأقدامهم وراءهم تدل على اتجاههم، ثم عبروا مدقًّا صغيرًا ضيقًا سائرين بحذرٍ فوق الحصى والصخور الصغيرة فقط.. لم يكن المدق سوى مجرى من مجاري السيول القديمة التي جفت بعدما أحرقتها الشمس الحامية على مرِّ السنين.. تلفَّت الحسن حوله وهو يشرئب بعنقه في دهشة، كانت تحيط بهم قمم جرداء كستها الشمس حمرة، وسفوح كوالح تعلوها صفرة، وصخور صمَّاء سوداء متناثرة، وقفار واسعة على مرمى البصر لا نهاية لها..

لا حياة ظاهرة في الأفق سوى طيور سوداء تنعق من بعيد كل فترة، سرعان ما اختفت عندما توارى قرص الشمس البرتقالي وقد توهَّج قدر ما استطاع وقدَّر له خالقه وكأنه في النزع الأخير، فساد الظلام فجأة وكأنهم هبطوا إلى باطن الأرض في هوة سحيقة معتمة دونما سابق إنذار..

انتاب الحسن وحده دون غيره شعور عارم بالوحشة زاده وطأة عواء الذئاب المتقطِّع من حوله وكأنهم يرحبون به أو يهددونه، لم يعد يدري، قفزت إلى رأسه كلمات القس المهيب التي كان يقولها له على المقهى عندما بسط كفه أمامه ليقرأه:

- لا تخشَ شيئًا يا ولدي، فالذئب نفسه قد ترك الوادي واختار الصحراء عندما صار أقرب الناس إليه ألد أعدائه، وأنت عاديت مماليك المحروسة، فكلهم لك عدو الآن، وهم اليوم أصحاب الوادي، فاتبع جَرة الذئب فهي ملاذك الوحيد.

***

.. بدت صفحة النهر رائقة لا تشي بأي تقلبات.. السكون يلف المكان برفق وكأنه يحتضنه في مودة.. لا صوت يسمع سوى حفيف أشجار الكافور العالية على ضفتي النيل قرب إمبابة.. يشق مياه النيل مركب متوسط، على متنه يقف المُعلم جرجس متوترًا يرقب الجزيرة الصغيرة بعيني صقر جائع، ومن خلفه يقف المساعد وثلاثة آخرون من رجاله.. اقترب النوتي من الجزيرة فأمره يعقوب أن يحافظ على سرعته ويدور حولها دورة كاملة كي يطمئن قلبه بأن لا أحد يراقبهم من بعيد.. لم يكد النوتي يرفع ذراعه عن الشراع حتى انشقَّ الماء عن ثلاثة مراكب ضخمة، واحدة من الخلف، والثانية من الأمام، والثالثة من ناحية إمبابة، قادمة من جزيرة الورَّاق مكتسبة سرعتها مع التيار العالي، بدت المراكب الثلاثة وهي تقترب من مركب المُعلم جرجس كتماسيح ضخمة أطلَّت برأسها فجأة وحاصرت فريستها الضعيفة، وباتت على وشك التهامها.. دوَّت أصوات البارود من بنادق المماليك وهم يلوِّحون بأيديهم لنوتي المركب ليغلق شراعه فامتثل على الفور وكفَّاه ترتشعان من الهلع.. دقائق مرَّت كلمح البصر وانتقل كل مَن كان على سطح المركب إلى واحد من الثلاثة

الكبيرة، بينما ظلَّ مركبهم في حوزة النوتي وجندي مملوك يأمره بالتوجُّه به ناحية الضفة الأخرى من النهر.. لم يكد المُعلم جرجس ومساعده يعقوب يصعدان إلى أسرهما في عرض النيل حتى فوجئا بكمال سيف الدولة في مواجهتهما يعبث بشاربه في استفزاز ويبتسم ابتسامة مبتورة لا تكتمل أبدًا.. لم ترُق للمُعلم جرجس اللهجة التي حادثه بها كمال الدين، ولما حاول الاعتراض لمس في عينيه وحركات جسده ما يشي بمهانة قد ينزلق إليها بسرعة إن استمر في معاندة نائب المحتسب ورجاله، فآثر الصمت لعله يعينه على تحمُّل هذا البلاء غير المنتظر، تعمَّد كمال إذلالهما فتركهما في قبو المركب لأكثر من ساعة، ثم أمر بوضع عصابة على أعينهما، بعدها راح يستجوب كلًّا منهما على حدة وكأنهما مجرمان عتيدا الإجرام، فلما وجد منهما عنادًا وإنكارًا لسبب مجيئهما إلى الجزيرة رغم الحصار المفروض عليها من قوات الألفي بك، أمر أحد رجاله بأن يبول بالقرب منهما ليشعرهما بالاحتقار والمهانة أكثر..

اقترب كمال الدين من أذن جرجس وهو يهمس بصوتٍ خفيضٍ كفحيح الأفعى:

- أين أخي؟

لم يرد جرجس الجوهري عليه وتجاهل سؤاله، فعاد يكرِّره على مسامعه وهو يضغط على مخارج ألفاظه.. لاذ جرجس بالصمت وشرد في الأسلحة والبارود المُخبَّأ في باطن الجزيرة، وحاجة قوات محمد علي إليهما وهو عاجز تمامًا عن الوفاء بوعده، وها هو يُسأل عن

الحسن ولا يملك الإجابة أيضًا.. خرج من شروده على وقع رنين صفعة مدوية تعرَّض لها المساعد يعقوب، أعقبتها أصوات مكتومة وتأوهات من جرَّاء ركله بالأقدام وتوجيه لكمات لوجهه حتى انكسر فكَّه وسالت الدماء بغزارة من على جانبيه..

- هل تحسبانني أبلهًا، وأن حيلتكما بموكب الزواج الوهمي سوف تنطلي علينا حتى النهاية؟ اسمعني جيدًا يا يعقوب، أمامك مهلة حتى يصل المركب إلى البر، بعدها لن تكون صالحًا كرجل للزواج..

ثم التفت كمال الدين ناحية المُعلم جرجس وهو ينظف كفه من دماء يعقوب التي التصق بعضها به، قائلًا:

- أما أنت أيها العجوز فلولا سنك ومكانتك لألقيتك في النيل وفي قدمك حجر يزن ضعف وزنك، سأكون رحيمًا بك تلك المرة، لكن أعدك بأنني سأفعلها عن قريب إن تكررت حماقتك..

أشار لرجاله بأن ينقلوا المُعلم جرجس والنوتية لمركب آخر، بينما سيق يعقوب بمفرده إلى القبو وهو يترنح من الألم.. لم يمضِ وقت طويل حتى وصل المركب إلى الجانب الآخر من جزيرة الزملك التي رقدت الأسلحة والبارود في باطنها تنتظر مَن ينقب عنها يومًا ما إذا ما فكر أن يعمرها.. هبط كمال الدين وفرسانه وتوجَّه الركب العسكري إلى القلعة، لكنه ما إن عبر البوابة لم يتوجَّه إلى قاعة المحتسب كالمعتاد، وإنما سلك الطريق الجنوبي مجتازًا الممر الطويل باتجاه سجن العرقانة.. استقبله رجلان بالمشاعل بينما كان جلهوم يهرول بجسده المترهل وشحومه

المترجرجة ناحيته يتلهف بعينيه لمعرفة نوعية العقاب تلك المرة.. ارتاحت قسمات كمال الدين لما وقعت عيناه على جلهوم ومضى في طريقه دون أن يوجهه كعادته.. سار الركب خلفه وهو يسرع بخطوته، اجتاز البوابة الرئيسية ثم انعطف يسارًا متخطيًا كل الزنازين ليهبط درجًا حجريًّا ملتويًا بشدة كأفعى تعتصر جسدها قبل أن تبيض..

وقف أمام باب عريض صدئ والتفت خلفه، وسرعان ما اقترب رجل بالمشاعل، وآخر يحمل مفتاحًا ضخمًا من الحديد وضعه في المزلاج وأداره مرتين بصعوبة لينفتح الباب ببطءٍ محدثًا صريرًا مزعجًا وموحشًا في آنٍ واحدٍ.. انبعثت من الحجرة رائحة غريبة مُقبضة للنفوس.. كان جلهوم قد استعدَّ لمهمته فدلف مسرعًا وانزوى في ركن قصي عابثًا بعتلات وأدوات تحدث قرقعة من جرَّاء احتكاكها ببعضها البعض.. ثم التفت ناحيتهم مقتربًا حتى استقرَّ في منتصف الحجرة تمامًا وهو يحمل هيكلًا حديديًّا أشبه بالمقعد، له قاعدة مدببة رفيعة نسبيًّا مثبتة على أسطوانة دائرية ذات مقبض حلزوني عريض..

أشار كمال الدين بعينه لحرَّاسه فأتوا بالمساعد يعقوب وهو يترنح كطير مجروح.. أمرهم نائب المحتسب بنزع العصابة من على عينيه وتركوه فترة ليتعوَّد على ضوء المشعل، فلما وقع بصره على الخازوق اتسعت مقلتاه خوفًا وهلعًا، وراح كمال الدين يقترب منه وهو يطرقع أصابع كفيه في برود قائلًا:

- إذا لم تُجبني عن أسئلتي ستخرج تلك من هذه..

ثم أشار له بيد إلى سنِّ الخازوق، وبالأخرى إلى رأسه..

تدحرجت دموع صامتة من عيني يعقوب وشفتيه ترتجفان وهما تتلوان صلوات، وهزَّ رأسه رافضًا الإجابة..

- حسنًا.. كما تريد.. هيا يا جلهوم، دعِ الخازوق يخرج من كتفه بدلًا من رأسه ليطول تعذيبه..

انصرف كمال مغادرًا غرفة الخوزقة وبجواره رجل يحمل مشعلًا ينير طريقه وهو يردِّد بصوتٍ عالٍ:

- ألقوا بجثته كاملة في الصحراء، وأبلغوا جرجس الجوهري أن يعقوب قد هرب منَّا عندما وصلنا للبر..

بعد أن أتمَّ عبارته دوَّت صرخة هائلة تردَّد صداها في القبو كله حتى ارتجف جسد كمال سيف الدولة لها، فأسرع من خطاه قبل أن يتبعها يعقوب بأخرى أعظم منها، ثم اختتم بأنين هائل لكنه مكتوم والعرق يتصبَّب من جسده كله، ومن جبهة جلهوم أيضًا، الذي كان يلف ذراع الأسطوانة الحديدية المدببة بكل قوته، والخازوق يمر ببطءٍ في أحشاء يعقوب مثلما تحرث الشوكة الحجر الجيري حتى خرجت نهايته المدببة من كتفه، فانطفأ نور عينيه، وسكن جسده، ومالت رقبته على كتفه اليسرى، وراحت دماؤه الساخنة تنساب في هدوء.

***

18
منطق الذئب

منــذ وطئت قدماي تلك البقعة من الصحراء وأنا أشـعر بأنهم يريدون لـي أن أحيا حيـاة الذئاب مثل سـليم أبو دياب.. كم يحيرنـي هذا الرجل غريــب الأطـوار.. عمره الآن يقترب من السـتين، قد يزيـد أو ينقص، هو نفسه لا يعلـم؛ فهو ينتمي إلى قوم لا يقيدون في سجلات المواليد أو دفاتر الوفيـات، ولا يعنيهـم من أمر عمرهـم إلا أنهم ما زالوا قادرين على الحياة مثـل الذئاب.. يحرص دومًا على أن يظهر ملثمًـا أمام الجميع، ومع ذلك فقد قُدِّر لي أن أرى وجهه منذ أيام بالقرب من داره المنعزلة عن بقية مباني العزبـة، ولا أعرف إن كان القدر بهذه المناسـبة قد أراد اقتراب نهايتي، أم كان يريني جانبًا إنسانيًّا في هذا الذئب لأطمئن على حياتي..

أخذتنــي الدهشـة تمامًا مــن ملامحه البريئـة، ووجهـه الطفولي، كان يومها يسـقي ورودًا كبسـتاني حالـم، لا أصدق أن هذا البـدن الذي يضم القسـوة بين جنباته يمكن أن تخرج منه تلك المشاعر الرقيقة.. حتى بنيان جسده لا يشي بأي مقدمات توحي بها، فهو ضخم الجثة، طويل القامة وقد انحنى ظهره قليلًا وكأنه قد ناء بثقل رأسـه الذي يدبِّر ويفكِّر طوال الوقت

ليدير هـذه العصبة من المجرمين المخضرمين بمنتهى الشـدة والصرامة، بياض بشـرته المشـرب بالحُمرة يثير الشـكوك عن أصوله وجذوره رغم طباعـه المصريـة الخالصـة، لديـه ندبة عميقـة أعلى حاجبـه الأيمن تبدو أثـرًا لجرحٍ قديم ربما قِـدم حياته ذاتها، ماضيه عريق فـي الإجرام لكنه لا ينكره، بل يتفاخر به في زهوٍ حتى صار يتندَّر بعدم قدرته على تذكر أعداد ضحاياه..

علمـت منـه أنه هجر المدينة منذ بضع سـنين لسـببٍ مجهولٍ لم يشـأ ذكـره، وأقـام منذ ذلـك الحين فـي الصحراء مع هـؤلاء المطاريـد الذين يدينـون له بالـولاء التام كأنه إلـه، فاقتربت منه أكثـر لأرى بوضوح، كان له من الأولاد ثلاثة يقيمون معه في داره، أكبرهم فقط هو الذي يعاونه في مهنته الحالية.. قطع الطريق أمام القوافل التجارية والإغارة عليها وسـرقة بضاعتهـا، وعلى هامش المهنة يأوي المجرميـن والهاربين من المماليك نظير أجرٍ معلومٍ، وسخرت منه مرة قائلًا:

– وكيف تفرِّق بينهم؟!

لكنه لم يرد..

عرفـت من رجاله أنه يشـترط على مَن يأويهم المشـاركة في الغارات التـي يقوم بها، لكن الوضع بالنسـبة لـي كان مختلفًا؛ فقـد طلبت إعفائي وألححت على القس ليتوسَّـط لي، وأخبرت يوسـف الفقير في رسـالتين بذات المعنى، لكنني لم أتلقَّ جوابًا شـافيًا حتى الآن.. تلك الرسـائل التي أبعثها مع رضوان الدليل وأتسلم الرد منه في كل زيارة، كانت تعينني بقدرٍ

كبيرٍ على الحياة وسط الذئاب وتشعرني بآدميتي التي باتت على وشك التبخر يومًا بعد يوم، واكتشفت بعد فترة وجيزة من إقامتي هنا أن لديهم مئات الخيول والجمال والحمير ومختلف لوازم الإعاشة.. لكن من أين أتوا بها؟!

كنت أحسب في البداية أنها من غنائم الإغارة على القوافل، لكنني صرت متأكدًا أن هناك دروبًا ومسالك أخرى للوصول إلى العزبة بخلاف الطريق الذي سلكته عندما أتيت.. قفز تساؤل الى رأسي: كيف يحمل رضوان الماء والطعام في كل مرة؟ قبل أن أفكر في الإجابة عنه أزاحه الاندهاش، فسليم أبو دياب له محظية تعمل غازية تحضر للقائه صحبة رضوان كل أسبوع لتمضي ثلاثة أيام بليلتين في دار صغيرة لا يدخلها سواهما، ومن غير المعقول أن يحضروها على قدميها منهكة متعبة! كيف أتت إذن؟ ولماذا فعلوا معي ذلك؟ لم أجد إجابة لتساؤلاتي..

منذ اليوم الأول، بل منذ أن وقعت عيناي على العزبة، والدهشة العظيمة التصقت بوجداني لا تفارقني أبدًا كلما نظرت إلى دار سليم أبو دياب.. نموذج مصغر للقلعة في القاهرة وكأنها دار حكم جديدة.. صحيح أن أسوارها أقل ارتفاعًا ومبانيها محدودة لكنها شديدة الشبه بها.. ومع ذلك فقد حدد أبو دياب إقامتي في خيمة حقيرة بهت لونها من الشمس الحارقة، تهالكت أوتادها من الرياح العاتية.. نصبت على تبة قصيرة وحفر حولها خندق صغير مملوء بالماء، علمت فيما بعد أنه لحمايتي من لدغات العقارب السامَّة، لم يبعث ذلك الخوف بداخلي بقدر ما جعلني أستعيد نشاطي لممارسة هوايتي الأثيرة في صيد

العقارب، مستغلًّا حربتي التي لم تفارقني أبدًا، لكن ما أدهشني أكثر أنني في مرات عديدة لم أكن راغبًا في قتل عقارب الصحراء، وكأنني شعرت بألفة معها! بعد ليلتين في تلك الخيمة نقلوني إلى أخرى، ومنها إلى دار وسط العزبة، إلى أن استقر بي المقام في دار نائية أقصى الجنوب، وهكذا تعاد الكرَّة.. فقواعد الذئاب تحتِّم عليهم ألا يبيتوا أكثر من ليلتين في ذات المكان، أبديت بعض الضجر من جرَّاء تنقُّلي، وقلت لسليم أبو دياب إنني شعرت بالأمان بعد ليلتين من المبيت في الخيمة وسط العقارب، وبدأت أتعوَّد على النوم فيها ومعها..

خرج ردُّه بصوتٍ رخيمٍ مفعمٍ بالحكمة:

- يا بني.. عندما تأمن يجب أن تشعر بالقلق، فالخطر لا يأتيك إلا من مأمنك..

ظللت أتابع بنظري يوسف الفقير ورفاقه عند رحيلهم صباح اليوم التالي لمجيئنا إلى هنا، ومن بين كلمات الترحيب القليلة ومراسم الاستقبال المتواضعة لا تزال كلمات سليم أبو دياب وهو يودِّعهم ترن في أذنَي:

- ضيف أبونا القس عوض ضيفنا، سنكرمك شهامة ونخوة، وما دمت ملتزمًا بأوامري لن تسقط في يد المماليك الملاعين أبدًا، أما إذا غادرت بإرادتك أو مطرودًا فلا تلومنَّ إلا نفسك..

بعدها دار حوار هامس بينه وبين القس المهيب عوض، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أعرف اسمه فيها.. يا ترى ما الذي دار بينهما؟ على

أي حالٍ، الغدر مستبعد، على الأقل حتى الآن، فرغم فظاظة أبو دياب ونبرة التهديد المصبوغ بها حديثه دومًا، إلا أن الرجل يحمل بداخله شهامة مصرية خالصة، وصدقًا واضحًا جعلاني مطمئنًّا إلى حدٍّ كبير..

مع مرور الأيام اكتشفت أن سليم أبو دياب لا يأكل كثيرًا، ولا ينام الليل أبدًا، فلا يغمض له جفن ما دامت الشمس غائبة عن السماء، فإن أشرقت اختلس بضع ساعات كثعلبٍ كسول.. يمضي ليله عادة في تدخين الحشيش والثرثرة مع بعض رجاله ما دامت الغازية هدايت غير موجودة، وقرب الفجر يختتم سهرته بقطعة صغيرة من الأفيون تحت لسانه، ثم يصرف رجاله ويجلس وحيدًا يتأمل الصحراء الشاسعة من حوله حتى مطلع النهار..

منذ بضعة أيام شعرت برعشة في جسدي وسرت الحمَّى ببدني وشارفت على الموت من شدة المرض، لم أكن قادرًا على مغادرة حشيتي بالخيمة من شدة الوهن، فلما بلغ النبأ سليم أبو دياب حضر إلى خيمتي وتفحَّصني كطبيبٍ مخضرم، ثم قال بلهجته الآمرة:

- لا علاج لك إلا بمضغ قطعة من الأفيون.

رفضت بالطبع، فعاد يقول في صرامة:

- سنذيبها لك مع قليل من البُن لتشربها مغلية، وبعدها ستشفى..

صمَّمت على رفضي وقلت له إنني لا أدخن مخدرًا ولا أشرب مسكرًا ولا آكل محرمًا، فابتسم الرجل ساخرًا ومال ناحيتي وهو يخفض من طوله الفارع قائلًا:

- اسمع أيها الغريب، إذا كنت فيما مضى تتردَّد على العطار في بلدتك عندما تشكو مرضًا، فاعلم أننا لن نحضر عطّارًا إلى هنا أبدًا؛ فالذئب إذا ما مرض لا يذهب إلى غريب يداويه، إنما يبرأ من مرضه بما يأكل، أو يموت عليلًا..

- ولكن الذئب لا يأكل الأفيون إذا مرض!

قلتها وأنا واثق من قدرتي على إقناعه، فأجابني بذات النبرة الساخرة:

- لو كان الذئب يعرف الأفيون لأكله..

ابتسمت رغم وهني وآلامي، ورددت عليه بثقة:

- ولو عرف الذئب العطار أو الطبيب لذهب إليهما..

هنا ابتعد أبو دياب عني قليلًا، وانتصب طوله وهو يقول بلهجة حاسمة باترة للحديث:

- لا، حتى تلك لن تحدث.. فالذئب لا يأمن أبدًا لغير الذئاب..

بعدها ابتلعت قطعة الأفيون المذابة في البُن صاغرًا في صمت، ولدهشتي سكن ألمي وتبخَّرت أوجاعي ثم تكفَّلت حياة الصحراء بقسوتها وجفافها وقلة الطعام فيها بذهاب ما تبقَّى من آثار المرض عني..

على مدار الأيام التالية حاولت شغل نفسي بالاقتراب مرة أخرى من عائلة أبو دياب، لكنني لم أرَ زوجته أبدًا وإن كنت قد سمعت عنها

فقط.. أما أولاده فقد اكتشفت أن أصغرهم قد ورث عن أبيه المقدرة على الحديث والمرح والحُجَّة القوية، أما الأكبر فقد استأثر بالقسوة والإقدام والجرأة، لكن أوسطهم غمض حاله عليَّ، فقد جاءت نهايته قبل أن أقف على ما ورثه من خصال، أهانه شقيقه الأكبر أمام المطاريد لتقاعسه عن نقل الغنائم، ووصفه بأنه مثل الحريم.. طري وناعم.. فلم يحتمل الصبي الإهانة وشعر بأن كرامته قد بُعثرت ولا ردَّ لها مرة أخرى، فأطلق على نفسه مقذوفًا من البارود من طبنجة أبيه اخترق بطنه وقذف به أمتارًا للوراء ليسقط جثة هامدة أمام الجميع..

تلك كانت المرة الأولى، وربما الأخيرة، التي أرى فيها دموع سليم أبو دياب وهي تسيل ببطءٍ شديدٍ من عينيه الغائرتين في وجهه، وكأن قلبه يدفعها دفعًا كي تنساب وهي تقاوم بعنادٍ حتى استسلمت على مضض مرغمة، فلم يستطع هذا الرجل المتجمِّد المشاعر أن يمنع أساه على ولده أمامنا.. بعدها بأيام حضر رضوان الدليل وبصحبته هدايت الغازية، أمضت أسبوعًا كاملًا في ضيافة أبو دياب، عاد بعدها رائق المزاج وكأن شيئًا لم يكن، وقبيل رحيلها بساعات قليلة التقيتها مصادفة.. كنت عائدًا إلى خيمتي بعد أن شاركت المطاريد في دفن جثة زميلهم الذي مات في غارة على قافلة، وأحضروا جثمانه معهم ليراه أبو دياب ويتأكد من أن وفاته لم تكن غدرًا من صحبه أو خروجًا على قوانينه، صلَّيت بهم عليه ودعوت له كثيرًا بالمغفرة وأنا لا أعلم قدر سوء أعماله، لكن من المؤكد أن صفحته ليست ناصعة تمامًا، على الأقل قبل أن يلقى وجه ربه بوقت قليل..

يومها اعترضت الغازية هدايت طريقي في وقاحة مغموسة بدلال أنثوي مخضرم، لم أتبين ملامحها بدقة؛ فقد كانت ترتدي برقعًا غليظًا، رغم فتحاته الكثيرة الضيقة والمربكة أيضًا إلا أنه كان يخفي بعضًا من وجنتيها.. رفعت البرقع ببطءٍ لتثيرني، لاحظت أن لها غمازتين حلوتين، وحسنة دقيقة أسفل ذقنها، ولكنَّ عينيها جريئتين كلسانها.. قدَّرت أن عمرها يقترب من الثلاثين، لها جسد ريَّاني بض يترجرج لحمه الأبيض الممشوق في ثوبها الضيق، ويتلألأ خلخالها الذهبي على عرقوبها الممتلئ فيلهب الخيال.. أطلقت في وجهي ضحكة رقيعة مفاجئة عندما أطرقت خجلًا وأنا أحدِّثها عن نورسين في شجن بعدما سألتني إن كنت متزوجًا، أخبرتها بأنني في طريقي للزواج من نورسين عندما تقدَّر لي العودة من رحلة اغترابي.. مضت وتركتني وحيدًا قرب التبة وهي تدندن بكلمات منغمة عن العاشقين والهوى وسهر الليالي..

صارت أقصى طموحاتي أن أعمل مساعدًا للدليل رضوان حتى أشغل وقتي وأخرج للحياة مرة أخرى، ضقت بالذئاب واشتقت للبشر بشرورهم وآثامهم.. رفض أبو دياب مجرد مناقشة الفكرة وبتر كلامي كله بتهديد صريح بأن خروجي لن يكون له عودة مرة أخرى للعزبة.. طرأت في ذهني حيلة أن ألعب على وتر الذئب بداخله وأستفز حذره وأبعث القلق إلى قلبه من رضوان الدليل فقلت:

- ألا تخاف أن يشي بك أو بأحد من رجالك؟ ألست أنت القائل إن الأمان موجب للغفلة والشك موجب للحذر.. اجعلني عينًا لك عليه كي يطمئن قلبك..

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه من منطقي الهزيل وهو يرد بثقة بعبارته الأثيرة:

- لن يحدث ما تقوله أبدًا.. فالذئاب لا تأكل بعضها حتى ولو تضوَّرت جوعًا..!

بلغ مني السأم مداه وأنا المنذور للمغامرة، ولم أعد قادرًا على تحمُّل صفير الرياح ونعيق الغربان في النهار، أو عواء الذئاب في الليل..

- اشغل نفسك بتنظيف سلاحك وإعداده كي يكون جاهزًا دومًا للدفاع به عن نفسك..

تلك كانت كلمات سليم أبو دياب التي لا تتغير أو تتبدل ردًّا على شعوري بالضجر وشكواي من ملل النهار وطول الليل..

- أنا لست ذئبًا مثلكم.. ليس لديَّ هذا الشعور الدائم بالخطر، مع أنني عشت فيه ومعه تحت سطحٍ واحدٍ، ولكنني كنت أنام قرير العين، مستريح الفؤاد، راضيًا عن نفسي، أما هنا فأنا...

قطع حديثي بحدَّة وجاء ردُّه تلك المرة مفاجئًا..

- إذن استعد بسلاحك؛ ستخرج معنا غدًا في غارة جديدة على القوافل.

***

صهلت الخيول عاليًا وهي تركض لتنهب الأرض من تحتها، وفوقها فرسان المماليك شاهرين بنادقهم، ممسكين بألجمة أحصنتهم، يتطاير

الشـرر مـن أعينهم وهم يخترقـون ممرًّا واسـعًا من ناحيـة الجنوب نحو جزيـرة أبـو الذهب بقلب الجيـزة، كان الحصـار قد بلغ مـداه وتقهقرت قـوات محمد علي في رقعة صغيرة حتى باتوا يشـعرون بأن الأرض التي يعسـكرون فيها قد ضاقـت بهم، دوَّى قرع طبول الحـرب، وبدأ المقلاع المُركَّب على ظهر مَركِب كبير يقذف حمم النار وكرات اللهب..

- الآن..

قالها محمد علي وهو يرفع سيفه عاليًا..

راح أكثـر من ثلاثمئة رامٍ يشدُّون أقواسـهم بمحـاذاة آذانهم ليمطروا قـوات الألفـي بوابل من السـهام خلخلـت الصفوف بعد أن سـقط أولها فتعثـرت فيه بقيتها، تعالـت صرخات الألـم من أفواه المماليك، وجزعت الخيـول وقـد برقـت أعينها رافعـة سـاقيها الأماميتين وهي تصهـل عاليًا محاولـة الحفـاظ علـى توازنهـا، لكـن مـع إطـلاق أول دانة مـن مدافع الأرنـاؤوط تكوَّمت على الأرض يائسـة من مواصلة المسـير.. لم تمضِ بضـع ثوانٍ حتـى كان الرماة يُنزلـون دروعهم من فوق رؤوسـهم، والتي كانـت تقيهم من كـرات اللهـب التي يقذفهـا المماليك عليهـم، وراحوا يُطلقـون الدفعة الثانية من السـهام القاتلة، أعقبتها قوات المدفعجية بدانة ثانية، ثم ثالثة أحالت ركـب المماليك إلى ركام من أشلاء الجثث، أما مَن دفعـه حظه العثر للنجاة من هذا الجحيـم فقد لقي حتفه برصاص البنادق التـي أطلقها جنود الجنـرال بعد أن غيَّر خطته فـي اللحظات الأخيرة من بـدء الهجـوم إلى الانتظار وصدِّه لثقته في نفاد صبـر المماليك وتعجُّلهم

القتـال، أمـر جنـده بالانبطاح في أثنـاء إطلاق النيـران، كانوا لـم يتدرَّبوا كثيرًا على هـذا الوضع الجديد، لكن مقدرتهم القتالية واندفاع المماليك الأهوج سـاعداهم على الشعور بالنصر في المعركة الأولى.. نجحوا في صـدِّ الهجـوم المفاجئ عليهـم، وفرَّت فلـول المماليك ناحيـة الجنوب بأقصى سرعة وهي لا تصدِّق أنها قد نجت من هذا الجحيم..

خرج الفرنسـي العجوز من خيمته وهو يقترب من محمد علي وعلى وجهه ابتسـامة عريضة، رفع يـده ملوحًا بعلامة النصر، ثم أتبعها بإشـارة بأصابـع كفِّ يـده جميعًا.. هنا برقـت عينا محمد علي كالنسـر في وقت العاصفة وزأر في قوَّاده قائلًا:

- أديروا ثلاثة مدافع ناحية النهر، أمامنا أقل من خمس سـاعات فقط لنضرب السفن..

راح عشـرات الرجـال يديـرون فوهـات مدافعهـم صـوب مراكـب المماليـك الرابضة فـي النيل، والتي كانت تتأهب للمسير نحوهم، بينما عبرت قوات مشـاة قوامها ألف جندي أرناؤوط من الممر الخلفي إلى برِّ الجيـزة لملاحقة قـوات المماليك وإنهاك قواتهم التي عسـكرت هناك.. لـم يمضِ وقت طويل حتى بدأ فيضان النهر في الارتفاع وقبل أن تنقضي السـاعات الخمس، كان منسـوب الماء قد علا وغمـر الفيضان الأرض، وراحـت المدافع تدك سـفن الألفي بـك بضراوة حتى أغرقـت معظمها وأبعـد التيار الجارف بقيتها.. أُسـقط في يد البحـارة المماليك المقاتلين

فقفزوا في الماء هربًا من النيران ليصطادهم الرماة من الجزيرة بسهامهم حتى استحالت صفحة النهر إلى اللون الأحمر من غزارة الدماء..

كان محمد علي ورجاله قد تركوا طريقًا ضيقًا مفتوحًا يؤدي إلى حديقة قريبة واسعة قرب قرية البدرشين، عسكر المماليك في نهايتها وحدث ما توقعوه، واضطر الألفي بك ورجاله إلى الهروب عبر الحديقة التي لم تكن أشجارها الغريبة والمنبعجة سوى أربعة مدافع صغيرة مغطاة بأوراق الشجر وفروعها المورقة بكثافة، وسرعان ما راحوا يطلقون داناتهم صوب خيول المماليك الرامحة أمامهم ليصرعوا منهم المئات في وقتٍ قليلٍ، ومع ذلك فقد فرَّ الألفي بك مع رجلين من حرَّاسه ناحية الصعيد والذهول يكسو وجهه مما لحق بقواته المدحورة من هزيمة منكرة، وما تكبَّدته من خسائر مهولة في وقتٍ قصيرٍ..

بلغت أنباء المعارك التي استمرت يومين متتالين الوالي خورشيد باشا فأصدر أوامره للجيش العثماني بعدم مناصرة المماليك، وأرسل رسولًا إلى محمد علي ليضمن ولاءه من جديد.. وعلى عكس المتوقع لم يرفض الجنرال العرض، بل بَدَا مُرحبًا به حتى خرج من خيمته مودعًا رسول الوالي في طريق عودته إلى القلعة، ثم عاد مرة أخرى إلى خيمة مجاورة ليستكمل ما بدأه من حديث المنتصرين مع قنصل فرنسا..!

***

19

عاصفة الصحراء

- لا بد أن لك مكانة كبيرة لدى الريِّس أبو دياب..

بهـذه العبارة عبَّر بعـض رجاله عن وصف ما يعتمل بصدورهم عندما رأوه يترأس الغارة التي انتوى شـنَّها على قافلة عائدة من السـودان، حاملة الكثير من الذهب والأقمشة حسبما كان يبلغهم رضوان الدليل أولًا بأول عـن تحـرُّكات القوافـل التجاريـة ومواعيدها التـي يقف عليهـا من تجار الصعيـد، جاهدت كثيرًا كـي أثني أبو دياب عن قـراره باصطحابي معهم رغـم أنـه لم يعد يخـرج للإغارة فـي الآونة الأخيـرة معتمدًا علـى رجاله المدربيـن جيدًا؛ لكنه أبى تمامًا.. لن أنسـى أبدًا نظرته المتشـككة لي في ذلك اليوم قائلًا بعد فترة شرود طويلة:

- يـداك ليسـتا ناعمتين، وأنـا لا أصدق أنك كنت كاتبًـا في الدواوين حسـبما أخبرتنا، ورغم ضآلة جسـدك ومظاهر تدينك إلا أن مهاراتك في ركـوب الخيل وإطلاق البـارود وصيد الأرانـب البريـة والرماية بالقوس والسـهم تشـي بأنك مغامر قديم من الشُّـطَّار، حتى طريقتك المتفردة في صيـد العقـارب بالحربة لا يمكـن أن تصدر عن كاتب ديـوان.. أنت مثل عقرب صغيرة الحجم كالحلزون، لكنك عظيم الأثر؛ فلدغتك مميتة..

تعجَّبت من وصفه لي ولم أعلِّق على كلامه.

كان السير في الصحراء بجوار سليم أبو دياب، وفي معيته، متعة حقيقية، أنستني مؤقتًا ما أنا ذاهب لأجله، فلم أكن أتوقع أبدًا أن أتحول يومًا ما إلى قاطع طريق.. طوال الرحلة بين الكثبان الرملية والجبال والدروب الصفراء القاحلة كان أبو دياب يسير بتلقائية مثلما نفعل تمامًا في حارات المدينة وطرقها، يحفظ المسالك عن ظهر قلب مع أنها متشابهة، لم يكن يحتاج إلى دليل أبدًا رغم انقطاعه عن السرقة منذ عامين مكتفيًا بجمع الغنائم وتقسيمها، أعيتني مراقبته ولم يكِل هو من الشرح والتفسير طوال الرحلة التي استغرقت ساعة أو يزيد سيرًا على الأقدام في اتجاه الغرب حسبما قدَّرت، وبعدها فقدت بوصلتي تمامًا.. كل عشرة أمتار كان سليم أبو دياب يشير لي على عشرات العلامات المحفورة بالرمال.. هذا أثر لقدم رجل كان يحمل ثقلًا.. انظر كيف غاصت قدمه في الأرض، وهذه لأقدام رجال كانوا يهرولون خوفًا لأنها عشوائية، ربما هاجمتهم ذئاب، وتلك لثعلب، وهذه لضبع، أما هذه فلثعبان سام من النوع الذي يدفن نفسه في الرمال، ولعل جحره غير بعيد، فعلينا أن نأخذ حذرنا.. حتى فضلات الدواب لم تسلم من تمييزه!

اقتربنا من مكان به تبة عالية، فأشار لرجاله الراكبين ليترجَّلوا عن دوابهم، وبعضهم يسحب حصانين لنا من المقدر أن نستخدمها في العودة، أو هكذا كنت آمل.. راح الرجال يعملون في صمت مكتفين بإشاراته الصمَّاء، أنزلوا جذوعًا ضامرة لنخل عجوز من على ظهور

البغال وراحوا يثبتونها قائمة كالأوتاد على مسافة كبيرة متباعدة حتى غاب الرجل الذي يحمل الجذع الآخر عن نظري تمامًا، بينما انهمك آخرون في تركيب وفرد شِباك من الدُّوبار بينهما.. وعلى مسافة تقترب من خمسين مترًا حفر بعضهم حفرة عريضة غير عميقة فيما يبدو أنه قد سبق لهم حفرها من قبل، فاكتفوا بتسوية حوافها وإزاحة بعض الرمال عنها، ثم وضعوا عليها ألواحًا من الصاج متجاورة لتغطي فوهتها..

اصطحبني أبو دياب إلى تبة عالية، ثم أشار ناحية رجاله وهم يرصُّون الألواح الصاجية قائلًا:

- ماذا ترى من هنا؟

دقَّقت النظر، ثم أجبته في دهشة:

- بركة عظيمة من الماء..

فأكمل وهو يضحك بثقة:

- وتوحي بوجود واحة قريبة تستحق التوقف للراحة من عناء السفر أليس كذلك؟

هززت رأسي بالإيجاب..

على مقربة منَّا كان عشرة رجال أو يزيد قليلًا منهمكين في زرع ألغام صغيرة تبدو مسروقة من معسكرات الجيوش، على شكل شريط يقطع الطريق عرضيًّا لكنه متعرِّج نوعًا ما، وضعوا قطعًا حديدية دائرية الشكل بعضها بيضاوي، وراحوا يدفسونها في الرمال بغير عمق، صدق

ظنِّي عندما علمت بعدها من أبو دياب أنهم استولوا عليها من العسكر الفرنسيس عندما أسروا كتيبة كاملة وقتها، لكن أبو دياب خاف غضبة الجنرال نابليون فيما يبدو، فأطلق سراحهم جميعًا بعدما جرَّدهم من كل أسلحتهم وعتادهم، نزلت خلفه من التبة وانحرفنا يسارًا ثم لحق بنا بقية الرجال لنستقر في سهل يحتضنه جبلان أحدهما صغير، وراح هو يتسامر معهم ويضحكون ويحكون نوادرهم كأنهم في نزهة، بينما كان القلق والتوتر يفتكان بي ببطء.. مضى الوقت ثقيلًا حتى انتصف النهار، كان الجو دافئًا في تلك الفترة من العام فلم نشعر بالقيظ أبدًا لكن تطايُر الحصى والرمال الناعمة جعلا أبو دياب يشعر بالقلق ويأمر أحد رجاله باستطلاع الأمر من فوق التبة كل فترة حتى حانت اللحظة التي حاولت تجنبها وفشلت وتمنيت ألا تحدث فوقعت..

صاح الرجل قائلًا:

- إنهم على مرمى البصر..

هبَّ سليم أبو دياب ورجاله كنمور جائعة ظلَّت راقدة وسط الحشائش ترقب فريستها، ثم ركضت فجأة لتنقض عليها، اعتلوا تبة أخرى قريبة بحيث تصبح القافلة أمامهم وقد أخرجوا طبنجاتهم، وقفوا جميعهم خلفه في صفٍّ ملتوٍ على شكل هلال، بحيث يرى كل منهم ما يراه الآخرون.. اقتربت القافلة الكبيرة المكونة من الجمال والدواب الصغيرة المحملة بالبضائع، كان يقودها رجال بشرتهم سمراء وقد تلفَّحوا بشيلان من الصوف، تغطي رقابهم حتى أنوفهم اتقاءً لذرَّات الرمال الناعمة

وغـدر عواصف الصحـراء، كانت تلك القافلة الضخمـة القادمة من بلدة سنار تربو على الألف جمل، ويبدو أنهم قد تلقوا تحذيرًا شديدًا من قُطَّاع الطرق، فزُودت القافلة بحراسـة مزدوجة مـن الجانبين من عربان العبابدة المعروفين بالغلظة والشراسة، ورغم كل ما رأيته في حياتي من مغامرات وقتـال ومعارك، إلا أنني شـعرت بعـدم الاطمئنان، وبالطبع لـم أخبر أبو ديـاب بمخاوفي، فقد سـبق السـيف العـذل، ونظرة واحدة مـن بعيد لكمِّ وحجم البضائع التي تحملها القافلة سيجعلان كلامي يذهب أدراج الرياح حتى قبل أن يصل إلى مسـامعه، راحت الدواب تتهادى في السير كسفينة ضخمة تشـق سـطح البحر برفق.. مئات الجِمال تقطـع دروب الصحراء ومسـالكها في صبـرٍ هائل، اقتربوا حتى لمعت ألـواح الصاج أمام أعينهم على أشـعة الشـمس، فأرشـدهم ظنهم بقرب الواحة منهـم، مؤمنين بأنها بركـة ماء ضخمة، انحرفـوا جميعًا خلف قائدهم ودليلهـم.. فلما اقتربوا منها بمسـافة كافية هدَّأوا من سـرعتهم، انتظرنا جميعًـا حدوث الانفجار وتطايـر أشـلاء الرجال وجمالهم لكنَّ شـيئًا من ذلك لـم يحدث وعبرت القافلة شريط الكبسولات بأمان تام، تطاير الشرر من عيني أبو دياب وهو يتوعَّد مَن يُدعى مرزوق بحسـاب عسـيرٍ بعد أن فطـن إلى أنها قد عطبت من الرطوبة بسـبب سـوء التخزين، ثم أشـار بيده لواحدٍ من رجاله خلفنا بإشـارة معينة، فأطلق الرجـل البارود من طبنجته بكثافـة حتى فرغت، ثم راح يحشوها في همة..

تحوَّلت المساحات الصفراء الهادئة إلى ساحة حرب ضروس، بعد أن اضطربت صفوف القافلة تمامًا وأخرج أحدهم بندقية صوَّبها في اتجاهنا

والارتباك باديًا على حركة يديه، سمعت صوت البارود يُطلق بكثافة من كل اتجاه، ثم شاهدت الرجل المرتبك وهو يسقط من فوق بعيره قبل أن يضم إصبعه على الزناد، تبع ذلك سقوط مَن كانوا بجواره من جرَّاء بارود أسلحة أبو دياب ورجاله الذين كانوا لا يخطئون الهدف أبدًا.. تلطَّخت الرمال ببقعٍ حمراء داكنة في مناطق كثيرة، وراحت عشرات الجثث تتناثر في المكان بعشوائية..

تفرَّقت القافلة فتراجعت مؤخرتها واختفت عن الأنظار، وهرب بعضها من الجانب الغربي، بينما فرَّت مقدمة القافلة في الاتجاه الشرقي بأقصى سرعتها لتصطدم البعير بالشباك العريضة العالية التي نصبها رجال أبو دياب خلف التبة بمحاذاة الجبل، فأجبرتهم على التوقُّف لفترة كانت كافية لكي يقوم رجاله بالإجهاز على مَن رفض التسليم منهم رافعًا يديه لأعلى وهو يجلس في وضع القرفصاء.. أهؤلاء هم الناجون؟

سرحت لوهلة في أمرهم متسائلًا مع نفسي:

- وماذا هم فاعلون؟

بالطبع سيتركهم أبو دياب مع بعض الدواب في الصحراء وقد لا يكون من بينهم دليل، وقد ينفد طعامهم وشرابهم، فهم هالكون لا محالة.. ليس أمامهم سوى تقديم فروض الطاعة والولاء لأبو دياب كي يقبلهم ضيوفًا بالعزبة، ومن ثم يصيرون لصوصًا مثله فيصبحون كالمستجير بالرمضاء من النار.. يا ألله! ما هذا المصير التعس! ثم سرحت قليلًا.. هل كانت بدايات أبو دياب مشابهة لما أراه الآن؟! لم أجد إجابة قاطعة..

أخرجني صوتُه الأجشُّ من أفكاري الغريبة، وهو ينادي عليَّ دون ذكر اسـمي كي أقترب وأعاون رجاله، فأشرت له رافضًا بيدي، ثم علا صوتي قائلًا بحزم:

- بيننا اتفاق ألا أشارك، وأنت وعدتني بذلك..

نظـر لي نظرة حـادَّة يختبئ الغـدر خلفها بمهارة، فَسَـرت معها رجفة غريبـة بجسـدي وشـعرت بعـدم الأمـان وتذكَّـرت مقولته عـن الذئاب، وأدركـت أنني هالك لا محالة، فلسـت ذئبًا مثلهـم، وقد يأكلونني في أي لحظة.. لكن فليكن ما يكون..

فـي لمح البصـر تقلَّب الحال.. عـلا صفير الريح وتصاعـدت الرمال الناعمـة لتتناثـر في ثورة عارمة.. هبَّت عاصفة رملية شـديدة واسـتحالت الرؤيـة إلـى لـون أصفر داكـن، وفجأة لـم أرَ أمامـي غير سـتارٍ كثيفٍ من الرمال، فرحت أُهـرول على غير هُدى حتى اصطدمت بصخورٍ فوقعت، ثـم نهضـت متحامـلًا لكننـي فقدت سـلاحي ولـم أكترث للبحـث عنه، حاولت أتعوَّد الرؤية فلم أستطع، اختفت صحبتي، وفقدت أثرهم جميعًا لكنَّ أصواتهم لا تزال الرياح تحملها إلى أذني خفيضة آتية من بعيد لكنها مسـموعة.. خُيِّـل لـي أن أحدهم ينادي علـى مَن يُدعى مـرزوق، وبعدها تبينت أنها مسـعود.. ذات الأسـماء التـي كانوا ينـادون بعضهم بها وقت جمع الغنائم.. احمل هذا يا مسـعود.. أحضر هذه الدابة يا مرزوق.. افتح هذا الصندوق يا مسعود.. ما هذا العبث؟ أليس هناك رجال آخرون سوى مسعود ومرزوق؟! أين الباقون؟

بعدها تأكدت أنني أسمع مَن يقول: لقد تاه مسعود، فقدنا أثره.. شعرت لوهلة أنني قد فقدت صوابي، وما يحدث ليس سوى كابوس طويل، وتلك أصوات الجان والعفاريت..

خيَّم الظلام على المكان، وهدأت العاصفة إلا قليلًا، فجاهدت لكي أستجمع كل ما يحفظه ذهني عن معالم الطريق، وبدأت أسير في كل درب أظنه سكة السلامة، لكنني سرعان ما كنت أعود أدراجي بعد أن يتبين لي خطئي، فقد تشابهت المناظر أمامي وفقدت القدرة على الاهتداء، ظللت أدور في مكاني، والدائرة تضيق وتصغر حتى أعياني البحث وأدركني التعب، فجثمت على ركبتَي، ثم شعرت برأسي يدور فاستلقيت على ظهري، وحاولت جاهدًا ألا يغمض لي جفن أبدًا، سمعت من بعيد عواء ذئاب يعلو ويقترب، تراقصت أشباح غريبة أمام عيني وشعرت بأنفاسٍ ساخنةٍ تلفح وجنتَي، وبعدها أسدلت جفوني رغمًا عني وساد ظلام كثيف، ثم رحت في شبه غيبوبة ولم أدرِ بنفسي وبما حولي.

***

رفع حارس الحمَّام قطعة القماش الزرقاء المطرَّزة واستبدل بها سجادة متوسطة الحجم ذات شراشف طويلة معلنًا بذلك أن هناك زيارة خاصة لحمَّام الجيزة عصر اليوم لا يُستقبل معها رواد آخرون.. دقائق قليلة ثم ظهر على قارعة الطريق ركب صغير من ثلاثة فرسان يتوسطهم نائب المحتسب كمال سيف الدولة، الذي ترجَّل من على ظهر جواده في تكاسل كشيخ عجوز، ثم دلف إلى الحمَّام تاركًا حراسته بالخارج..

استقبله الخادم بترحاب بعد أن قام بتعطير الحجرات التي سيمر عليها سيده، لم ينتظر كمال الدين الوصول إلى الغرفة المخصصة لتغيير ملابسه، بل شرع في نزعها أثناء سيره حتى بلغ المغطس المليء بالماء الساخن، فألقى بجسده به على مهل، وظل برهة غامرًا جسمه كله تحت سطح المياه، ولما خرج ظلَّ مغمضًا عينيه وهو يزفر في ضيق والهواجس تفترس ما تبقَّى له من عقلٍ منذ أن اكتشف غياب زوجته وردشان منذ صباح أمس.. جُنَّ جنونه لما أرسل رسولًا لأهلها فلم يجدها، فحاول لقاء شقيقها لكنه رفض لقاءه.. كبرت الوساوس في رأسه عندما أبلغه العبد صالح أنها أخذت كل ملابسها في صناديق كثيرة ضخمة حُملت على عربة خشبية كبيرة ومضت إلى مكانٍ غير معلوم.. أمر بجلد صالح خمسين جلدة لتقاعُسه عن منعها، ورغم توسُّلات العبد الطيب إلا أن قلب كمال لم يلن، أطلق خلفها مرتزقة فلم يجيبوه حتى الآن.. فتح عينيه في تكاسل وهو يتأمَّل خطوط كفِّه ويلعن أخاه بعد أن كبر الهاجس في عقله الباطن حتى تضخَّم، وصار يُعلِّق كل مصائبه برقبة الحسن ويلعنه مع كل صباح..

- لو كنت قتلت هذا العقرب من زمن، لما وقعت فيما أنا فيه الآن!

قالها وهز رأسه آسفًا وعض شفته السفلى ندمًا، ثم خرج من المغطس مستفسرًا عن وصول قنصل إنجلترا فأجابوه بأنه لم يصل بعد.. لف بشكيرًا كبيرًا حول وسطه وذهب إلى حجرة في نهاية الممر، لفحه في ممرها الهواء الساخن، جلس بها متكئًا على مرفقيه لفترة، ثم خرج

منها إلى أخرى وُضعت بها حَشيَّات خشبية على محامل عالية ترفعها عن الأرض، استلقى على بطنه شاردًا، بينما راح الخادم يُدلِّك جسده بقطعةٍ من الصوف الخشن، ويطقطق مفاصله المتخشبة من فرط توتره..

اقترب أحد فرسانه من باب الغرفة دون أن يجرؤ على دخولها وقد علا صوته قليلًا معلنًا عن وصول القنصل الإنجليزي.. هبَّ كمال الدين فورًا وقد دبَّت فيه الحياة مرة أخرى ليغتسل من صنبور ينساب منه ماء بارد، ثم ارتدى قميصًا طويلًا حتى ركبتيه وسروالًا واسعًا من ذات اللون وغادر دون عمامة متعجلًا إلى حجرة القهوة حيث كان القنصل قد ذهب إليها مباشرة.. كان الرجل جالسًا يضع ساقًا فوق ساقٍ، يحتسي مشروبه الساخن ويدخن لفائف بُنيَّة غليظة ينفث منها دخانًا كثيفًا أثارت دهشة كمال وحيرته في طريقة إشعالها، حيَّاه بترحاب فردَّ له القنصل التحية باردة..

دار حوار طويل بينهما قوبلت فيه كل توسلات كمال الدين بترقيته لمنصب المحتسب بالرفض..

- أنت لم تستطع أن تحفظ أمن دارك.. ولم تُحكم سيطرتك على أخيك الحسن، وهربت منك زوجتك.. فكيف نأتمنك على بلدٍ بحجم المحروسة أو حتى نرقيك؟ هل يكافأ المقصر في بلادكم؟

ارتبك كمال الدين وأطرق، ثم حاول التبرير فخرجت كلماته متعثرة بسبب تلعثمه الواضح.. عرض خدماته لصالح ما يراه القنصل مناسبًا وكأنما يُنعش ذاكرته بتاريخه القديم معهم، فردَّ عليه الأخير بصلفٍ:

- أعتقد أنك في حاجة إلى العمل للحفاظ على منصبك الحالي بدلًا من التطلُّع إلى منصب آخر.. لا تدعْ أوهامك وأحلامك تنسك مشاكل واقعك..

- الألفي بك هرب وهو قائدي، وكان رجلكم وهو فرصتنا الأخيرة في معركتنا مع محمد علي، ولا يوجد لديَّ الآن سند سواكم، ومحتسب مصر رجل ضعيف ومريض وأنتم تعلمون ذلك، ولا تنسوا أنني قدَّمت لكم خدمات كثيرة، وأيضًا...

قاطعه القنصل وهو يهبُّ واقفًا:

- مثلما كان الألفي رجلنا فمن الممكن أن يكون لدينا رجال آخرون غيره من البكوات، هذا ليس شأنك على أي حال.. احسم أمرك مع أخيك إذا ما أردت أن تبقى في منصبك فترة أطول، ولا تنشغل بالتفكير في موضوع الترقي؛ فالأمور في مصر الآن متقلِّبة، والرياح كل يوم تسير في اتجاه مغاير، وإذا لم تعرف متى تخفض رأسك.. سيطير فجأة..

شعر كمال الدين بالقلق من عبارته الأخيرة فقال بارتباكٍ شديدٍ:

- وماذا نحن فاعلون؟

أطلَّت ابتسامة استنكار كبيرة من بين شفتي القنصل وهو يجيبه:

- نحن؟! لا أظن أنني أستطيع أن أجيبك عن سؤال يبدأ بـ.. نحن؛ لأننا لسنا في قارب واحد، أنت يجب أن تعتمد على نفسك وتثبت أنك جدير بثقة التاج البريطاني..

ثم أردف بنبرةٍ شبه آمرة وهو يغادر دون أن يصافحه:

- مطلوب منك أن تمنع خروج المصريين في ثورة ثانية وتُخرس روَّاد المقاهي الذين يتحدَّثون عن بطولات وعظمة الجنرال محمد علي ومعركته الأخيرة مع محمد الألفي، وبعدها سأُقيم عملك وأرى ما يمكن أن نفعله نحن.. لك.. ولا تنسَ أن الوقت ليس في صالحك، فلو حلَّ علينا أغسطس لا أظن أنك ستكون على قيد الحياة!

ثم التفت إليه فجأة قرب نهاية الممر:

- ولا تجعل كل هذه الأمور تنسك أن الحسن لم يمت، بل لا يزال هاربًا في المنيا وهي بالمناسبة ذات المدينة التي فرَّ إليها الألفي بك قائدك.. ولا بد أن أحدكما سيدفع الثمن في النهاية، فاحرص على ألا تكون أنت الضحية.

***

20
أبو حصيرة

لـم أتبين ملامح مَن حولي بوضوح في البداية، ظننت أنني أحلم أو ما زلـت أصارع الذئاب في كابـوس عاصفة الصحراء، لم يجعلني أفيق مما أنـا فيه وأدرك مكاني إلا صـوت ضحكته الخشـنة المجلجلة المصحوبة بسـعالٍ واضـحٍ مـن جرّاء تدخيـن الحشـيش كل ليلة، ابتسـمت وأنا أراه ينهض بطوله الفارع قائلًا لرجاله:

- أحضروه عندي عندما يطيب..

لـم أصدق أننـي نجوت، كنت أسـتمع لحكايتي من رجال سـليم أبو ديـاب الذيـن التفوا حـول حشـيتي ذاهلين من شـحوب وجهـي وبياض عينـي.. علمت أنني نجـوت بمعجزة لما تعثّر رجلان في جسـدي الراقد وسـط العفار، فانتبها لوجـودي وحملاني ولولا ذلك لكنت الآن في بطن الذئـاب.. هكذا نجوت بمحض مصادفة قد لا تتكـرر ولو بعد ألف عام، لكنها حدثت لي بمنتهى البساطة..

- عُمر الشّقي بَقي..

قالها عُبيد أحد رجال سليم أبو دياب بعفوية وهو يضحك ملء شدقيه بلا مبرر ليتحفني برؤية صفين من أسنان صفراء داكنة نصفها محطم والبقية يعتريها السواد حتى كاد يُغطيها، ابتسمت رغم كآبة المنظر.. مع مرور الوقت والطعام الساخن الدسم تعافيت حتى أدركني الغروب، ففهمت أنني كنت في غيبوبة منذ أمس.. جلست شاردًا طوال الليل أفكر على صوت قرقعة جوزة أبو دياب في يومي الفائت من عمري.. أين كنت، وماذا فعلت في غيبوبتي؟ لا أدري.. قال لي أبو دياب إنهم وجدوا عشرات العقارب بالقرب مني وقتها، ولولا وجودهم لكنت في عداد الأموات، هززت رأسي مؤمِّنًا على كلامه ولكنني أيقنت داخلي بأن الله وحده تدخَّل واستبقاني لسببٍ آخر لم يحن أوانه بعد، فكل مرة أنجو من الموت بأعجوبة.. ولكن إلى متى سأظل أصطاد العقارب ولا تلدغني؟!

فجأة قفز إلى رأسي خاطر فالتفتُّ ناحية أبو دياب متسائلًا:

- لماذا ينادي رجالك على بعضهم بمرزوق أو مسعود.. تلك ليست أسماءهم؟!

ضحك الرجل بمكرٍ وظلَّ يتفرَّس في وجهي وضحكاته تتصاعد خلف سحب دخان الجوزة، ثم قال بعد أن هدأ قليلًا:

- حتى لا يتعرَّف علينا أفراد القافلة الذين قد يتمكنون من الهرب، فلا أحد في العزبة كلها يحمل هذا الاسم الآن، فمَن كان يُدعى مسعود مات اليوم، ولا مرزوق بيننا...

فـي الصباح التالـي لاحظت حركة غير عادية فـي العزبة، خرجت من الحجـرة الحجريـة الصغيرة التـي قضيت فيهـا ليلتي الأخيـرة؛ لأجد أبو ديـاب ورجاله يلتفُّون حـول الكثير من الحطب الذي تأكلـه النيران بتلذذٍ وهم واجمون، فاقتربت واستفسرت من كبيرهم بعينَيَّ، فقال لي سليم:

- هذا هو الثلث الأخير من جسده، نحرقه هنا بناءً على وصيته!

زادني دهشة على حيرتي ولم أفهم شيئًا فاسترسل في جدية:

- منذ سنوات يعيش معنا مهووس من بلاد المغرب البعيدة أظن أنك رأيته مرة، كنا نناديه باسـم مسعود، وهو اسـمه الحقيقي بالمناسبة، عاش بيننا بقية عمره بعد سـن الأربعين ينقِّب عن المسـاخيط هنا، ويحتفظ بها حتى يأتي وسيط تابع له من أسيوط يحملها على دابة كل شهرين ويرحل، ونحن نحصل منه على ضريبة فقط باعتبارنا نملك الأرض وما تحتها وما عليها.. ومنذ عامين تزوَّج وأنجب طفلًا، ثم مات أمس..

- ولماذا تحرقون جثمانه بعد موته؟!

- ثلثـه فقط، تلك كانت رغبته، أما الثلثان الباقيان، فقد أرسـلنا الثلث الأول مع رضوان ليكلِّف أحدًا بإلقائه في البحر المالح قرب الإسكندرية ناحيـة دمنهور، وقـذف عُبيد أمس بالثلث الأخير في النيـل تنفيذًا لوصيته لكـي يبقى جسـده بالمحروسـة كلهـا.. كان يعشـق ترابها حسـبما يقول دائمًا..

هزرت رأسـي متوجسًـا وزُمت قليلًا غير مقتنع بهذا العشق المريب، ثم تذكرت أنني رأيت الرجل بالفعل منذ فترة لكنه كان قليل الكلام، يميل

للعزلـة، فلم يسـمح لي سـياجه النفسـي بالاقتراب منه وكل مـا عرفته أنه يهودي الديانة.. سألت أبو دياب عن زوجة الرجل وطفله الصغير يعقوب فأجابني بلا مبالاة:

- لفَّتـه أمـه في الحصيرة التي كان أبوه يجلـس عليها دومًا ورحلا إلى المدينة.. فنحن لا نستضيف حريمًا بدون رجالهن أبدًا.

فـي اليـوم التالي، كان عُبيـد قد أُصيـب بضربة شـمس أرقدته صريع الحمَّى ولم يفلح الأفيون في تحسين أحواله، اقتربت من الرجل وشممت فمـه وقلبت عينيه، ثم طلبت منهم أن يحضروا ملحًا مجروشًـا مبللًا بماءٍ دافـئ، غمسـته في قطعـةٍ من القمـاش ووضعتها فـي أذن الرجل، انتفض بعدهـا ببرهة ثـم راقت عيناه وبدأ عرقه يجف تدريجًـا، وبعد قليلٍ اعتدل في جلسـته وراح يحادثنا بعد أن كان يهذي.. ولما عرف سـليم أبو دياب بالأمر سألني بسخرية:

- هل تعلَّمت التطبيب في الديوان أيضًا؟

أجبته بذات اللهجة:

- لا   إنمـا هـي وصفـة قديمـة تعلَّمتها من سـيدة طيبة كانـت تُدعى حليمـة، وأعطتها مـرة لحماري لما برك مني، فنهـض بعدها رامحًا وكأن شيئًا لم يكن..!

علـى مـدار تسـعة شـهور إلا قليـلًا أمضيتهـا في قلـب الصحـراء لم يحيرني أمر بقدر ما حيرتني قواعد السـلوك التي أرسـاها سـليم أبو دياب

بيـن رجالـه ورجال القبائـل القريبة منَّا وبعض الغجـر الرُّحل، وربما كان هؤلاء الأغراب عنَّا تقاليدًا، والقريبون منَّا مكانًا هم السبب في تغيير محل نومتي كل ليلتين حتى لا يعرفوا موقعي إذا ما هاجمتنا قوة من المماليك، علمـت أن أحدًا لا يغـادر العزبة أو يدخلها إلا بإذنه، وطالما أعطاه الأمان فهـو آمن وجزاء الخائـن القتل.. كان أبو دياب إذا ما آوى مجرمًا فله عليه المأكل والمشرب ومكان النوم، ولا إجبار في الإغارة على القوافل ولكن لا بـد أن يعاونهـم في أمور معيشـتهم بالعزبة مـا دام قـادرًا، وإذا ما طلب الرحيـل يرحل ويظل آمنًـا حتى يبلغ المدينة أو يدخل في ذمة قبيلة أخرى أو ينخـرط مع الغجر، ووقتها يصبح من الأغراب، وجزاء مخالفة أي أمر أو الوشاية بهم هو القتل ولو بعد حين، ولكن لا تمثيل بجثث القتلى وإلا استحقَّ الثأر مرتين، قارنت بين ذلك كله وبين ما يفعله المماليك فينا منذ زمنٍ بعيدٍ من قتلٍ وسـحلٍ وتعذيبٍ وتمثيلٍ بنـا أحياءً وأمواتًا، فتعاظمت حيرتي من عدل المجرمين وظلم ولاة المماليك...

حاولت مرة أن أجادله في أمر العقوبات لتخفيفها حتى تكون التوبيخ أمام الرجال أو الطرد من العزبة وسـحب الأمان، لكنه ابتسـم لي في خفة ولم يُعقب.. كانت الوشاية بما يفعله الآخرون من الهفوات غير المسموح بهـا، فلم يرد بقاموس أبو دياب مرادف لها؛ لذا لم يكن أحد يتحدث عما يـراه أو يسـمعه أبدًا.. وإلا قطع أذنـه أو أمر بكي لسـانه..! وقتها وجدتها فرصة سانحة كي ألح عليه في تعديل عقوبة الموت وقلتها له صريحة:

- لماذا لا تجلدهم أو تحبسهم لفترة؟

شعرت أنه يراني ساذجًا أو ربما هُيئ لي ذلك، ثم تبدَّلت ملامحه لتبدو أكثر صرامة وهو يرد قائلًا:

- أنا أمنحهم كل شيء.. يأكلون، يشربون، يتزوجون، فلماذا يخرجون عن طوع أمري؟! لماذا يسرقون بغير إذن؟ لماذا يكذبون وأنا أعطيتهم الأمان؟! لا عقاب لهم إلا الموت ولو ظلوا أحياءً لاستهانوا بي وصاروا أكثر شراسة مما هم عليه، ولا تنسَ أبدًا أنهم ذئاب..

مع الوقت استطعت أن أقنع أبو دياب بضرورة نزولي إلى مدينة المنيا لمقاومة فلول المماليك بقيادة محمد بك الألفي الذي كان قد استقرَّ بها وبدأ ينظم عساكره مرة أخرى لينقضَّ على جيش محمد علي المتواجد على حدود بني سويف، لم يكن إقناع سليم سهلًا أبدًا، لكن كل منَّا بداخله نقطة بيضاء قد تغطيها بقعة كبيرة من السواد، تحجبها وتكتم أنفاسها لكنها تظل موجودة تقاوم حتى تظهر ولو كومضة خاطفة في رحلة الزمن، فلما لاحت بعينيه بوادر الموافقة وأنا أحدثه عن شرور المماليك، وأقلب مواجعه عندما ظلموه ونفوه بالصحراء اقتنصتها وأمسكت بها، لم يجادلني بعدها كثيرًا خاصة عندما أخبرته بأن غنائم المماليك ستكون ملكًا خالصًا له وحده، لم أكن بحاجة بعدها لتدريب رجاله، فغاراتهم المتكررة على القوافل وحياة الصحراء القاحلة جعلتهم ذئابًا جائعة تنهش مَن تهاجمه بغير رحمة، انطلقت على رأس قافلة من قاطعي الطريق والمجرمين المخضرمين يقودنا رضوان الدليل عبر دروب

الصحراء التي كانت تحيرني دومًا كلما حاولت فكَّ طلاسمها للسير فيها بمفردي، انتابني شعور غريب وأنا أركب جوادي في المقدمة وأتلفت خلفي لألمح وجوهًا مكفهرة عليها غبرة يكسوها الشر وقد خلت من الرحمة، لا أصدق أنني سأقود هؤلاء لأقاوم بهم فلول المماليك، لم أجد ما أبدد به حيرتي سوى ترديد مقولة لا يفلُّ الحديد إلا الحديد..

في مدينة المنيا التقينا يوسف الفقير بعد أن رتبت معه كل شيء عبر رسائلي التي نقلها له رضوان الدليل، هاجمنا كتائب كثيرة من جند المماليك وعساكرهم بالقرى والنجوع، كنا ننزل عليهم كطير أبابيل، فرجال سليم أبو دياب متعطشون دومًا للدماء، يشتهون الذهب كالظمآن عندما يتمنى قطرة الماء في الصحراء، كنا ننقضُّ عليهم من اليمين واليسار ككمَّاشة الحدَّاد فنقتلعهم من ثكناتهم، طارت رقاب العشرات منهم بسيوف رجال أبو دياب، وصرع البارود كل مَن سوَّل له تفكيره أن يفرَّ على ظهر حصانه أو مهرولًا على قدميه.. كنت في كل غارة أبحث عن محمد بك الألفي، أحاول أن أقتفي أثره وأتتبع أخباره، كنت أتوق إلى نزاله وقتاله لكنني لم أجده أبدًا، كل مملوك أسرناه من رجاله أقسم لنا بأنه لم يعد يراه منذ فترة، يقيم مع الجواري والحريم ويهرب قبيل الغارات بقليل، تعجَّبت كثيرًا من مثابرتهم وقتالهم لنا بعنادٍ وقوةٍ رغم أن قائدهم يدفعهم دومًا للصفوف الأولى ليموتوا ويهرب هو قبل أن تطأ قدمه خطوة واحدة في ميادين القتال.. تُرى ماذا يقول لرجاله؟ كيف يحفزهم كل مرة

ويخذلهم بعدها، ثم يعاود الكرَّة..؟ لمَّا أعيتني الحيلة ألقيت بتساؤلي في حجر سليم أبو دياب، فأجابني بسرعة مَن يعرف الإجابة كاسمه:

- لا يعدهم بشيء، كل ما يقوله لهم: أنتم هالكون لا محالة من محمد علي والمصريين، فاقتلوهم لتعيشوا.. هم مثل الكلاب لو شعروا بخوف الراعي من الذئاب سيكونون أول مَن يخشى قطيعه..

كرَّرت الغارات على فلول المماليك ثلاث مرات على حدود الصحراء، وفي قلب مدينة ملَّوي، وبقرية البدرمان حيث كان معسكرهم الأكبر، كنت أقود الرجال الملثمين ونعود سالمين غانمين في كل مرة.. إلا قليًلا، عدنا من الغارة الأخيرة بغنائم كثيرة حملناها على عربات خشبية تجرُّها البغال، حتى إن سليم أبو دياب كان يمازحني بأنه يفكر في تحويل نشاطه إلى قتال المماليك فقط بدلًا من الإغارة على القبائل، بلغت أنباء غاراتي ومعاركي القائد محمد علي في القاهرة فأرسل رسولًا إلى يوسف الفقير يبلغني تحياته ويحثني على مواصلة النضال وتنظيم قوات أكبر لأتوجَّه بها إلى منفلوط لمقاتلة البرديسي بك وفلوله أيضًا، لكن سليم أبو دياب رفض رفضا قاطعًا خوفًا على فقد بقية رجاله بعدما مات ثلاثة من أقربهم إليه في غارتي الأخيرة، يومها كان رأسه أجمد من الحجر، ونفث دخان الحشيش في وجهي كثيفًا، ثم قال:

- أنا لم يعد يعنيني كثيرًا مماليكك وقائدك، فرجالي عندي أهم من المحروسة كلها، ولا أريد أن أقضي ما تبقَّى لي من عمر بمفردي.. لن تنزل بعد اليوم إلى المنيا.

وكان ذلك فرمانًا من سليم أبو دياب لا رادَّ له.

في آخر أسبوع مرَّ علي في هذه الصحراء القاحلة، كنت في طريقي إلى خيمتي المهترئة التي أبيت فيها تلك الأيام فوق التبة، لمحت أبو دياب من بعيـد يجلس القرفصـاء ويقبض على بندقيته ويتأهَّـب لإطلاق بارودها.. انتبهـت وراقبته، دوَّى البـارود مرتين وأبصرت صقرًا يطير بسـرعة البرق واليمامة بين مخالبه تئن وتستغيث بلا مجيب.. بينما كان أبو دياب يسبُّ ويلعـن وهو يقتـرب من الفخ الذي ينصبه له منذ شـهور بأفراخ اليمام ولا يقع فيه الطير الجارح أبدًا..

اقتربت منه وأنا أبتسـم في هدوء، فلما لمحني بادر قائلًا كمَن يلتمس لنفسه عذرًا:

- لا أريد قتله، أريد اصطياده حيًّا..

ثم هزَّ رأسه متمتمًا بصوتٍ خفيضٍ:

- لا أعرف كيف يفلت كل مرة؟!

- اصبر.. فما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع..

ثم أردفت في تحدٍّ متعمَّدٍ:

- ولو أنني أشك في قدرتك على صيده..

قلت كلمتي لإغاظته وتحفيزه ومضيت..

علـى ضوء القمر جلسـت على بـاب خيمتـي معتليًا حجـرًا ضخمًا، أكتب رسالة ليوسف الفقير كعادتي وأدون يومياتي في مخطوطاتي، لكن

نفـد الحبر فجأة، قلبت المحبرة فوجدتها قد جفت تمامًا.. لا أدري لماذا شعرت بأن تلك الرسالة التي لم تكتمل ليست سوى علامة من العلامات علـى قـرب انتهـاء رحلتي.. طويـت الخطـاب ناقصًـا، وسـلَّمته صباحًا لرضـوان الدليل وبداخلـي قناعة تزداد مع الوقت بأنها سـتكون رسـالتي الأخيرة.

***

اقتربـت السـفينة الكبيرة من مرسـى المنيا، وبدأ كمال سـيف الدولة يتأهَّـب للنـزول منها، كان كالعـادة في الآونة الأخيرة يحيـط به أربعة من المرتزقـة الذين يعتمد عليهم أكثر من العسـس والبصاصين، تأخروا عنه بضع خطوات للوراء ليفسحوا له الطريق على ظهر المركب، مضى شاردًا مهمومًا، فلم يعد يأمن جانب أحد في القاهرة كلها، حتى رجاله، لم يكن قـد أفـاق بعد من صدمته في فارسـه زهيـر الذي ذاب منه كفـصِّ الملح، اصطدمت السـفينة بالشـاطئ مرتين قبل أن تسـتقر ليهبط منها، وجد في استقباله محتسب المنيا وعشرات العسس ومئة جندي من قوات الجيش العثمانـي تم تسـييرهم بأمر من القنصـل الإنجليزي لمعاونتـه.. تبخَّرت عبـارات الترحيب الحارَّة من أذني كمال الدين، فلم يكن يريد أن يسـمع سوى إجابة محدَّدة على سؤاله المُلِح:

- أين الشـاطر حسن الذي بات يعرفه الناس هنا بالملثم؟

ارتسـمت أمارات الجدية على وجه محتسـب المنيا وهو يقصُّ على مسامع كمال الدين طرف الخيط الذي جذبه وسار خلفه بعدما تصاعدت

وتيرة الإغارة على القوافل التجارية وزادت الشكاوى للوالي من تقصير العسس وضعف الأمن، فراحوا يعرضون المكافآت ويجزلون العطايا للبصاصين، إلى أن ظهر الطرف الثاني من الخيط.. رضوان الدليل وفضوله لمعرفة مواعيد وصول قوافل السودان وخطوط سيرها ونوعية بضائعها..

اجتذب البصاصون هذا الطرف برفق وتتبَّعوه بعنايةٍ ودقةٍ، فهداهم رضوان بغفلته عنهم إلى هدايت الغازية.. فظلُّوا خلفه ليقفوا على مَن وراءهما، لكنه زاغ منهم في الصحراء مرتين..

- لدينا أنباء شبه مؤكدة بأنه سيعاود الكرَّة غدًا مع الغازية، وسوف نتتبعهما بدقة لكي...

- تتبعه لمرة ثالثة، ثم تفقد أثره وتنتظر الرابعة وهلُمَّ جرًّا!

كان الاستنكار يطل بوقاحة من بين كلمات كمال الدين وهو يرمق محتسب المنيا بنظرة استهزاء واستخفاف واضحة، ثم أردف بلهجةٍ آمرةٍ:

- آتني برضوان وتلك الغازية الليلة في المخفر واترك الباقي لي، وسوف ترى بعينك كيف نجبر اللسان الجامد على النطق بصدق الكلام في وقت قصير..

لم يكن رضوان أكثر تحملًا من هدايت، ولم يكن كمال في حاجة لاستعراض قدراته على تعذيب ضحاياه لفترة أطول، فقد انطلق لسانهما

بمجرد رؤيتهما لمرتزقة كمال الدين بضخامة أجسامهم وفظاظة ملامحهم، وحوش آدمية تشي وجوهها بعذابٍ منتظرٍ.. كما أن مشاهد تعذيب امرأة أمامهما وكي موطن العفة منها لهروبها مع رجلٍ غريب وهي متزوجة، ثم خوزقة سارق ماشية، كانا كفيلين بحلٍّ عقدة لسانهما، فقالا كل ما يعرفانه، وبالغت هدايت فراحت تصف تفاصيل علاقتها بأبو دياب وهي تبكي خوفًا على حياتها..

نفد صبر كمال الدين قبل طلوع النهار، ومع أول خيط ضوء كانوا قد بلغوا حدود الصحراء.. رضوان وهدايت وخلفهما بمسافة كافية كمال الدين ورجاله وبصحبتهم محتسب المنيا والعسس التابعين له، وأكثر من مئتي جندي من المماليك المسلحين بأسلحة تكفي لمواجهة جيش صغير، كانت تحذيرات كمال الدين لرضوان والغازية واضحة لا لبس فيها..

- عند أول بادرة للغدر سيمزق البارود جسديكما..

بعد أقل من نصف ساعة التفت رضوان خلفه وأشار لهما بالإشارة المتفق عليها؛ لتبدأ الجيوش الجرارة من المماليك التي استجلبها كمال الدين بمعاونة الإنجليز في التفرُّق والسير على شكل هلال لتُحيط بالعزبة من الجانبين ولكن من مؤخرتها، بعدما سلك رضوان طريقًا مخالفًا للمعتاد كي لا ينكشف أمر القوات الكبيرة، استقرَّ الجند والعسكر فوق تبَّات رملية وكثبان عالية في وضع استعداد لقتالٍ شرسٍ.. وتعليمات كمال الدين لا تزال ترنُّ في آذان الجميع..

- اقتلوا كل مَن يُصادفكم رجلًا كان أو امرأة، حتى لو خلعت البرقع..

***

جلس القناصل الثلاثة يتناولون طعام الغداء بدار دي روسيتي الأنيقة المطلة على بركة الأزبكية، وضع الخدم أواني فضية كبيرة تحوي أربعة أنواع من الحساء، ثم أتبعوها بصحونٍ تحوي كل منها القليل من اللحم وبعض الأرز، وبجوارها قوالب الخرشوف المسلوق المحشو بالجزر، ثم قدَّموا لهم طبقًا من مكعبات الجبن الفرنسي مقطعة على شكل أهرام الجيزة، مضوا يتحدثون أكثر مما يأكلون، يتوسط طاولتهم الضخمة والطويلة شمعدان أخضر كبير، الوحيد الذي كان يبدو قلقًا هو قنصل إنجلترا، فالقنصل الفرنسي بدا مرحًا متفائلًا على غير عادته، أما قنصل النمسا فقد احتفظ برباطة جأشه كالمعتاد، وكان قليل الحديث والطعام معًا، أما دي روسيتي فقد كان حريصًا على الاستماع أكثر من أي شيء آخر تمهيدًا لكتابة تقريره الأسبوعي مع تطور الأحداث وانتقال المعارك من جنوب الجيزة إلى وسط الصعيد لمطاردة فلول المماليك بمعرفة قوات محمد علي، الذي بات قاب قوسين أو أدنى من الانتصار وإن كان لم يعلن ذلك رسميًّا بعد..

ألقى قنصل إنجلترا بفوطة المائدة في عصبية وهو يرمي القنصل الفرنسي بنظرةٍ ناريةٍ قائلًا:

- ماذا ينوي أن يفعل معنا هذا الجنرال المسعور؟

تجاهل قنصل فرنسا الإساءة لمحمد علي وقال ببرودٍ إنجليزي مصطنع بإتقان:

- حسنًا، إذا كنت تراه مسعورًا وترى نفسك على حق دائمًا فكيف لي أن أتوقع ردَّ فعله وهو على هذه الحالة؟ وكيف أقنعك برأيي وأنا أراه قائدًا عظيمًا؟

ثم أردف وهو يبتر ابتسامة أطلَّت على شفتيه في غير موعد:

- لكنني أؤكد لك أنه سيفتك بكل مَن وقف ضده أو تطاول عليه ورفض معاونته..

بعدها أطلق ضحكة سخرية قائلًا:

- وذلك كله قبل أغسطس 1805.. أعدك بذلك!

توترت الأجواء إثر التهديد الفرنسي وتدخُّل قنصل النمسا في الحديث بلا مبرر مؤكدًا أن الجيش العثماني بدأ ينسحب تدريجًا من ثكنات الجيزة ويعود قرب الرميلة لحماية القلعة، فرمقه القنصل الإنجليزي بنظرة ساخطة وكاد يشتبك معه في حديث جانبي، لولا تدخُّل دي روسيتي مقترحًا أن ينتقلوا إلى صالون قريب لتناول القهوة محاولًا تلطيف الأجواء مرة أخرى.. لكن قنصل النمسا ظل يسترسل:

- لا أظن أن الجنرال محمد علي سيدخل معارك أخرى، لقد أُنهكت قواته على مدار السنوات الفائتة، والأغلب أنه سيعود إلى بلاده منتصرًا، لقد أدى دوره وأجاد أيضًا وهذا يكفيه.

هنا لم يتمالك قنصل إنجلترا نفسه، وراح يهاجم قنصل النمسا على رأيه واصفًا إياه بالضحالة السياسية وانعدام الرؤية، ثم اقترب من البار طالبًا من الساقي أن يُعدَّ له كأسًا من الكونياك تجرَّعها دفعة واحدة، وظل يقرع على جدارها البيضاوي بخاتمه عدة مرات، ثم وجَّه كلامه فجأة للقنصل الفرنسي قائلًا:

- دعونا نكشف أوراقنا جميعًا.. فالوقت لم يعد في صالحنا، وإذا لم نتَّحد سيبتلعنا هذا الثعبان في لمح البصر..

هنا احتدَّ قنصل فرنسا عليه وقاطعه صائحًا:

- لقد صدَّعت رؤوسنا بهذا الاتحاد المزعوم على مدار عامين ونصف، ولم نرَ منه غير أنك وضعت يدك في يد مماليك الألفي بك ضدنا جميعًا، والآن تعزف نفس النغمة لما شعرت باقتراب نهاية نفوذك في القاهرة.. أنا، وبصفتي الرسمية أعلنها لك صريحة.. إمبراطورية فرنسا خارج حساباتك ولن نتَّحد معك..

حاول دي روسيتي تهدئة الأمور مرة أخرى بدعوتهم لتجربة طاولة السنوكر الجديدة التي جلبها من بلاده متفاخرًا بأنها مصنَّعة من خشب الأرو ومطعَّمة بالعاج، لكنَّ محاولته باءت تمامًا بالفشل بعدما علت نبرة قنصل إنجلترا مع الكأس الثانية وهو يقترب من القنصل الفرنسي قائلًا:

- هل تظن أننا غافلون عن سعيكم الحثيث للتزلُّف إلى الجنرال محمد علي..؟

أشـاح الرجـل بوجهـه عنـه وهـو يلوح بيـده فـي لا مبـالاة، فـأردف الإنجليـزي وقد علت وتيرة عصبيته وتسـارعت الكلمـات الخارجة من فمه لتنبئ ببدء عاصفة من الغضب:

- إذن قل لي لماذا أرسـلتم مهندسًا فرنسـيًّا بخرائطه للجنرال محمد علي بدلًا من الوالي خورشـيد باشـا؟ لماذا تريدون شقَّ قناة سفن تجارية مـن ناحية السـويس؟ هـل تظنون أنكـم تسـتطيعون وضع هـذا الجنرال المسـعور علـى عرش مصـر بمفردكـم دون معاونة منَّـا، بـل وبموافقتنا أولًا؟! أنتـم فرحتم به لأنه سيسـير علـى خطى الجنـرال نابليون، لكنكم تغافلتـم عن كونه سينسـبها لنفسـه وحده، علـى أنها بنات أفـكاره.. أنتم واهمون.. وطالما حذرتكم.. وقلت لكم قبل أغسـطس 1805 سـيجلس هذا الرجل على عرش مصر متربعًا فلم تصدقوني..

ثم التفت فجأة قنصل إنجلترا صوبهم في حركة مسرحية مسترسلًا:

- للمرة الأخيرة أنبهكم، مصالحنا هنا مشتركة ولن يأكل أحد الكعكة بمفرده.. إذا ذهبنا إليه فُرادى سـيُفتتنا تباعًا وسيبني إمبراطورية قوية ربما تفوق الأتراك أنفسهم.. أفيقوا قبل أن يعود من الصعيد وينقلب علينا، هو الآن يحتاجنا جميعًا، فنحن مَن سيعطيه الشرعية إذا ما أراد حكم مصر..

ثـم صمت برهـة وهو يزفر في ضيق موجهًا حديثه إلى قنصل النمسـا قائلًا:

- وأظن أنه يتطلَّع لذلك الآن أكثر من أي وقت مضى..

***

21
الباشا

مسحت بأناملها الرقيقة وكفها الناعمة حبات العرق المتلألئة على جبهته.. ففتح عينيه في تكاسل وابتسامته تكاد تقفز من بين شفتيه في رضا، أطبق كفه على يدها ثم طبع قبلة طويلة بباطنها، طوَّقت عنقه بكفيها واحتضنت رأسه برفقٍ قرب صدرها وراحت تعبث في خصلات شعره الفاحم.. اعتدل في رقدته متكئًا على جانبه الأيمن وهو لا يزال على ابتسامته قائلًا بنبرة هامسة:

- نورسين.. لا أكاد أصدق أنكِ هنا..

مرَّرت أصابعها على جبهته ووجنتيه مرتين قائلة:

- أنا معك دائمًا أينما ذهبت، لم ولن أتركك أبدًا..

عاد يُغمض عينيه لكن بشدة كأنه يحتضنها بهما؛ لتلكزه يد خشنة غليظة يصاحبها صوت عُبيد المنفر:

- هيا يا ريِّس حسن، ستتأخر عن موعدك.. لماذا تقبض هكذا بشدة على يدي؟!

فرك الحسن عينيه بشدة متأملًا وجه عبيد قليلًا في دهشة، ثم اتسعت ابتسامته وعلت ضحكته وهو يربِّت كتفي الرجل في مودة، نهض ليغتسل تاركًا عُبيد يتابعه في استغراب من ردِّ فعله، حزم أمتعته وارتدى ثوبه وتمنطق بأسلحته مغادرًا الخيمة صحبة يوسف الفقير الذي كان يبيت معه لاستئذان أبو دياب تمهيدًا للرحيل، روى له يوسف على مدار اليومين الماضيين ما انتهت إليه المعارك مع المماليك وفرارهم من المنيا، دبَّت الحماسة في قلب الحسن وعادت إليه روح المغامرة مرة أخرى بعدما خبت شعلتها في الصحراء قليلًا فحان أوان العودة، اقتربا من دار سليم أبو دياب الذي كان واقفًا أمامها وسط رجاله ليودِّعه..

لوهلة ظن الحسن أنه يرى دموعًا تلمع في مقلتي الرجل من فرط الانفعال في لحظة الرحيل لكنها ظلَّت جامدة.. تسعة أشهر تكتمل اليوم، شعر فيها بأمان لم يعهد مثله في المدينة.. وضع الرجل كفيه على كتفي الحسن قائلًا:

- جئتنا آمنًا، واليوم تريد الرحيل بإرادتك.. ارحل ولك الأمان حتى تصل إلى مبتغاك..

لم يجد الحسن كلمات يعبر بها عن امتنانه للرجل الذي آواه وأنقذ حياته كلما كان يشرف على الهلاك، فآثر الصمت وقد ترقرقت دموعه واضحة جلية، فتركها تنساب على وجنتيه في هدوء..

احتضنه أبو دياب بقوةٍ وهو يضمُّه لصدره ويربِّت ظهره، فتمتم الحسن بصوتٍ خفيضٍ:

- سامحني، فلم أستطع أن أعيش في جلد الذئب أكثر من ذلك.. لا بد أن أعود إلى طبيعتي.. فالذئاب تخشى العقارب وتبتعد عنها لتتقي شرورها وأنا لا أهابها أبدًا..

ثم صافح كل مَن جاء لوداعه من أهل العزبة وبحث بعينيه عن رضوان الدليل فلم يجده..

- على وشك الوصول؛ فاليوم موعده..

قالها أبو دياب ثم أشار ناحية الفخ الذي ينصبه للصقر متحديًا:

- بالمناسبة أنت خسرت الرهان هذا الصباح، لقد وقع..

ألقى الحسن بصره نحو الفخ.. كان الصقر يقبع فيه وقد أمسكت المصيدة بمخالب ساقيه وهو يحاول عبثًا الفكاك منها فلا يفلح.. هزَّ الحسن رأسه، وابتسم ولم يعلِّق..

- لن نحتاج له يا ريِّس أبو دياب؛ فأنا أتيت بمفردي وحفظت الطريق.

خرجت الكلمات بثقة من يوسف الفقير وهو يضع يده على كتف الحسن ليحثه على الرحيل.. لوَّح لهم الحسن بيده مودعًا فرفعوا جميعًا أيديهم..

صاح عُبيد فجأة قائلًا:

- ها هو رضوان فوق التبة القبلية ياريِّس..

ثم أردف بنبرةٍ خفيضةٍ ماكرةٍ:

- والغازية أيضًا..

- لماذا قدما من هذا الاتجاه؟!

قالها أبو دياب بقلقٍ وهو يتحسَّس سلاحه..

مـا كادا يظهران أمـام الجميع هابطين التبة حتـى دوَّى صوت البارود من كل صوبٍ فأحدث طنينًا رهيبًا يصم الآذان.. سقط العشرات مثخنين بجراحهـم، وانبطح أبو ديـاب أرضًا وقد أخرج طبنجتـه.. اقتربت قوات المماليـك بجـرأة وهي لا تتوقـف عن إطلاق البـارود بكثافـة.. ورجال سـليم يفـرون كالنمل في عشـوائية.. علا صريخ الأطفال وولولة النسـاء واختلـط بصيحـات الرجـال بالألـم، وركـض الإبـل الخائفة فـي أرجاء العزبـة، امتزج ذلك كله بدوي النيران المسـتعرة من البنادق وهي تحصد عشرات الأرواح بغير تمييز..

اقتـرب رضوان مهرولًا نحو الحسـن الذي كان قد مضى مسـرعًا مع يوسف الفقير بعد أن جذبه بعيدًا عن مرمى النيران قائلًا بهلعٍ:

- اهرب فأنت المقصود..

راحا يدوران حول تلٍّ صغيرٍ ليختفيا عن الأنظار مؤقتًا، ثم شـرعا في السير غربًا بعيدًا عن الرصد جاذبين دابتين.. لمح الحسن في دورانه حول الكثبان الرملية الصقر القابع في الفخ وهو يرفع رأسـه عاليًا كأنه يسـتنجد بخالقـه، ثـم فجأة غـرس منقاره بقوة في صـدره ليتكـوَّم صريعًا في لمح

البصر.. قبل أن يعتليا صهوة حصانيهما، دوَّى صوت بارود لمرةٍ واحدة، آتيًا من جهة قلعة سليم أبو دياب، بعدها علا عويل الحريم ونحيبهم..

تبادل الحسن ويوسف النظرات، ثم تلفَّحا جيدًا بالشيلان، ولكزا الحصانين بقدميهما وأطلقا لهما العنان بقلب الصحراء.

***

وصلت قوات محمد علي قرب حدود مصر القديمة عائدة من معركتها الأخيرة، ثم عبرت النهر لثكناتها بالفسطاط لتجد في انتظارها رسولًا ثانيًا من الوالي خورشيد باشا لمعرفة نوايا القائد المنتصر، كانت كلمات محمد علي للرسول تحمل رسائل واضحة.. أولها إزاحة قائد قوات الجيش العثماني من القلعة ومن القاهرة كلها وإرساله مع رجاله للصعيد والسودان لقتال فلول المماليك، وثانيها أن ترسل له كشوفًا بإيرادات المحروسة طوال الفترة الفائتة؛ ليرد المظالم ويقف على أحوال العباد، ثم ختم ثالث مطالبه بلهجة مَن يحكم، لا بنبرة مَن يطلب:

- ولا تفرضوا ضرائب جديدة على المصريين، حتى أقول لكم متى يمكنكم فرضها..

خرج الرسول وهو يتعثَّر من فرط ارتباكه، لا يدري كيف ينقل رسالة محمد علي لوالي المحروسة، في طريقه التقى عمر مكرم فاستنجد به كي يقنع الجنرال المنتصر بالتعاون مع الوالي بدلًا من الانقلاب عليه، فلما لم يجد منه استجابة لحديثه، بل أبدى له تحيزًا لموقف محمد علي،

فراح يهدِّده بأن الوالي سيجتمع غدًا في بيت القاضي عثمان ركن الدين لاستصدار فتوى باعتبار المعارضين له من المارقين الذين يجوز قتلهم ومصادرة أموالهم..

لم ينتظر عمر أفندي مكرم كثيرًا وسرعان ما تدبَّر الأمر فقد كان مكرم أسير رفضه السلبي للسلطة، لكنه يَهمُّ بسرعة البرق لتمهيد الطريق لغيره، وقرب العصر كان المنادون يطوفون على البيوت والديار، فلما أصبح اليوم التالي اجتمع المصريون بالمئات وأحاطوا بدار القاضي وأغلقوا بابيها وتسلَّحوا بالنبابيت ومئات الأجولة الممتلئة بالحجارة، فلما بلغ الوالي خورشيد باشا النبأ، لم يغادر القلعة وأرسل في طلب القاضي عثمان ركن الدين وضاعف حراسته حول دار الحكم، ورفع الجسور من أمامها، وأمر بقطع رأس مَن ينزلها بغير أمر مكتوب منه يحمل خاتمه الخاص.. فاكتفى العامة بمحاصرة القلعة من ناحية بابها الجنوبي وأوقفوا عساكر الباشا عن تسلق الأسوار على سلالم لتوصيل المؤن، وقام نفر منهم بإشعال النيران ووقفوا خلفها.

على مسافة قريبة بثكنات الأرناؤوط بالفسطاط، خرج من خيمة كبيرة رجل مهيب الطلعة، قوي الحجة، هو الشيخ الشرقاوي، من مشايخ الأزهر الأجِلَّاء وانطلق على حماره في طريقه صوب القلعة.. لم يطل انتظاره، فقد سمح له خورشيد باشا بالدخول وكأنه كان يتلهَّف على رسول من الجانب الآخر ينقل له ما يدور برأس محمد علي..

أبلغه الشيخ الجليل في أدب جم ونبرة حاسمة بأن أهل المحروسة لا يريدونه حاكمًا عليهم ولا بد من عزله، ثم اختتم قائلًا بنبرة رخيمة:

- إنهم ينشدون الاستقرار وآن لهذا البلد أن يستقر..!

في البداية بُهت خورشيد باشا لفترةٍ طالت وتجمَّدت معها ملامحه وسكنت عضلات وجهه حتى حسبه الشيخ قد أصابه الشلل، فلما أدرك قليلًا، وأبدى حركة تنم عن وعيه، أعاد الشيخ الكلام على مسامعه، فسأله الوالي بعد تفكيرٍ قليلٍ بصوتٍ تحشرج رغمًا عنه:

- ومَن تريدونه واليًا على المحروسة؟

- عمر أفندي مكرم.. فالكل يُجله ويُقدِّره، حتى القائد محمد علي لا يناديه إلا بكلمة يا والدي رفعةً لشأنه ومقامه..

زفر الوالي في ضيقٍ وقد تجهَّم وجهه، ثم أشار للقاضي عثمان ركن الدين كي يقترب منه، فتبادلا حديثًا هامسًا لم يستطع الشرقاوي أن يلتقط منه حرفًا، بعدها التفت الوالي ناحية الشيخ قائلًا في حدَّة، وهو يشير له بإصبعه في وجهه:

- إني مولًّى من السلطان، ولا أُعزل بأمرٍ من الفلاحين.. ولن أغادر القلعة إلا بأمرٍ من الباب العالي في إستنبول.. اذهب الآن وأبلغ مَن أوفدك إلى هنا بما قلته لك..

ثم أردف بنبرةٍ بدت أقل حدَّة بكثير من سابقتها:

- وكلي ثقة في رجاحة عقلك وحسن تدبيرك لحقن دماء المصريين.

***

في صباح أحد أيام منتصف مايو 1805، ما إن فتح المُعلم جرجس باب داره حتى اتسعت حدقتا عينيه غير مصدِّقٍ لما يراه، كان مئات الرجال قد ملأوا بركة الأزبكية بعدما ازدحمت اليابسة حولها بالبشر، فلم يعد هناك موضع لقدم، وبصعوبة بالغة شقَّ طريقه صوب الجامع الأزهر، لم يكن أمامه سوى أن يسلك سكة الفرنسيس التي شقوها وسط البيوت القديمة وتؤدي إلى الصحن مباشرة بدلًا من الدوران حول منازل الجمالية وحواريها الضيقة الملتفة على بعضها البعض، والتي كانت مكتظَّة بالناس منذ الصباح، راح يسرع الخطى وكأنه يسابق الزمن ليقتنص اللحظة الفارقة التي ستعيده إلى مكانته ومكانه بعدما اهتزَّت ثقته بوطنه وتشكَّك المصريون لبضع سنين في وطنيته هو وبني ديانته لما ظنوا أنهم يؤيدون الفرنسيس ويقدمونهم على أهل المحروسة.. عانى الأمرَّين منهم ومن سخافات الحكام الأتراك، ولولا دوره في ثورات القاهرة المتتالية لما عادت إليه كرامته مرة أخرى، ما إن وصل لمقصده حتى تنفس الصعداء بعمق لمَّا وقع بصره على عمر أفندي مكرم واقفًا أسفل المنبر، وبجواره الشيخ السادات، وعن يمينه وقف في عظمة محمد علي بكامل زيه العسكري وسلاحه ونياشينه، وقد أحاطت به حراسته من الجند الأرناؤوط بكثافة، ومن خلفهم تراص بقية مشايخ الأزهر، أولهم الشرقاوي، ثم يليه الشيخ الجداوي، ومن بعده الشيخ الأمير..

بينما كان آلاف المصريين يملأون الساحة الخارجية والشوارع المحيطة بالجامع.. تعلو الهتافات بأصوات متداخلة، فلم يستطع جرجس تبيُّنها وهو يجاهد لتجاوز الصفوف البشرية بمشقة شديدة.. كان محمد علي أول مَن لمحه فأشار على الفور لبعض حراسه ليعاونوه، فشقوا له طريقًا حتى استقر بأمان في الصفوف الأولى بجوار عمر مكرم مباشرة.. ظهرت قسمات الارتياح على وجه محمد علي واكتملت الصورة التي كانت تداعب مخيلته منذ برهة، فأشار إلى عمر أفندي مكرم أن يُكمل حديثه بعدما كان يقاطعه.. همس مكرم في أذن جرجس بأن محمد علي يتمنَّع ويرفض الولاية، ثم اختتم همساته بعبارة حاسمة بدت أقرب لأمرٍ لا يحتمل النقاش:

- لا يزال رافضا، لا بد وأن نعمل على إقناعه الآن، فتلك فرصتنا الأخيرة.. طلب أن يفصل هو في أمر العسكر وأختص أنا بما يقع من المدنيين على أن يتعهدوا أمامه بترك السلاح نهارًا وفي الليل يعاونونه على الخفرة.

- وافق يا مكرم أفندي ودعنا نساعده ونشاركه إدارة أمور المحروسة.. ارتجَّ عمر مكرم من داخله وبرقت عيناه، وبعدها أمسك بناصية الكلام مخاطبًا الجماهير الغفيرة:

- يا مُنجي من المهالك اهدنا الأمان في كل المسالك، أما بعد يا إخواني، انضموا إلينا جميعًا لنصبح كتلة واحدة في وجه كل مَن يتربَّص

بنـا، طهِّروا قلوبكم لتنصرف أفكاركـم نحو تحقيق الصالح، اتحدوا معنا نحن إخوانكم المؤمنين ضد المماليك الملاعين المارقين..

عـلا التصفيـق الحاد لدقائـق، أعقبه هتاف رجل ثلاثينـي تكاد عروق رقبتـه تنفجـر من فـرط انفعاله وهـو يهتف بـأن الله أكبـر ليعيدها الجمع الغفير المحتشـد خلفه بصوتٍ هادرٍ حتى أسكتهم مكرم أفندي بصعوبة؛ ليكمل قائلًا بصوتٍ جهوري:

- لا تتهيبـوا مـن اسـتفزازاتهم وتهديداتهـم السـافرة، واحـذروا من خُدعائهـم، سـيغدقون عليكـم بالوعـود الخلابـة، ثـم يزجـون بكـم في هاويـات المذلة، فيهدمون دياركم ويقطعـون رقابكم حتى لا يكون لكم أثر يُذكر..

صمت قليلًا ليبتلع ريقه ويهدأ، ثم أردف بحماسٍ جمٍّ:

- تلـك فرصتنـا الأخيـرة كـي تسـتقر المحروسـة، فقـد آن الأوان للاستقرار.. لأن نكون جميعًا على قلب رجلٍ واحدٍ، وخلف قائد قوي، وحاكـم عادل وصالـح.. بايعوا معي محمد علي واليًا على المحروسـة، الله أكبر والعزة لله..

ظلَّـت الهتافات تـدوي بجملته الأخيرة في أرجاء الأزهر، ثم سـرت كالنار في الهشـيم لتمتد لكل الشوارع المحيطة، فبدا قلب القاهرة ينبض بقـوة.. حاول بعض العامَّـة حمل محمد علي على الأكتـاف ليطوفوا به، لكنـه رفـض بشـدة، تقدَّم منه عمـر مكرم خطـوة وهو يحمـل قفطانًا، ثم

عاونـه على ارتدائه وهـو يتظاهر برفـض مغلفٍ بلين الاسـتجابة، التفت بعدهـا إلـى المُعلم جرجس وهو يمد له يده لتتشـابك كفاهما ويرفعاهما عاليًا ليراهما الجميع..

وسـط الهتافـات الصاخبـة اسـتدار جرجـس خلفـه ليهمـس لأحـد مساعديه قائلًا:

- أطلِق المنادين الآن ليطوفوا بشوارع وحارات القاهرة كلها، ويعلنوا الأخبار، ويزفوا البشرى بسرورٍ حتى مطلع الفجر

***

22
الجنازة

.. خلع الحسن عمامته وشمَّر عن ساعديه وجلس القرفصاء أمام خادمٍ صغيرٍ في دار يوسف الفقير في مدينة المنيا، يصبُّ له الماء ليغتسل، كان قد أمضى ليلتين كاملتين في معارك متصلة في صفوف قوات الأرناؤوط حتى دحروا فلول مماليك الألفي وأجبروهم على الانسحاب إلى منفلوط بمديرية أسيوط..

- لا أُصدِّق ما أراه وأسمعه يا يوسف.. الناس الآن تشي بأي مملوك حتى لو لم يفعل لهم شيئًا، وغالبية المماليك يتخفون في زي النساء ويفرون كالجرذان من أمامنا.. لقد انقلب الحال كتقلُّب الليل والنهار.

- نعم، فقد وردت الأنباء اليوم بأن عمر أفندي مكرم والمعلم جرجس قد كلَّفا محمد علي بولاية المحروسة، قالوا إنه تمنَّع ورفض في البداية، ثم نزل على رغبتهما أخيرًا وقبل الولاية.. ونحن في انتظار مرسوم الباب العالي بالموافقة، لكنه سيصدر حتمًا فلا بديل غيره لاستقرار المحروسة.. ولكن الغريب أن محمد علي يُصر على الانتظار

حتى أغسطس القادم بعد ثلاثة أشهر من الآن، وعلمت أنه أرسل مكتوبًا بذلك للقنصل الإنجليزي ويقولون إنه فعل ذلك من قبيل الاستهزاء به..

اضطرب وجه الحسن قليلًا وترددت ملامحه بين الفرحة والقلق، وظلَّت متأرجحة بينهما وحامت دهشة غامضة بعينيه ضاربة بأجنحتها السوداء في جلبة متأهبة لغرس منقار الهواجس في صدره، شرد ثم ساد الوجوم قسماته، ودارت الوساوس دوران الرحى.. هل كانت خديعة من البداية للوصول إلى عرش المحروسة؟! آلاف القتلى وشهور من الفوضى بعدما وضع كل منَّا رقبته على كفِّه لنصنع له جسرًا يعبر عليه ليحكمنا هو؟ مَن الذي سيقود الجيوش إذن؟ متى يأتي هذا الاستقرار المزعوم الذي بات أشبه بالغول والعنقاء والخِل الوفي؟ لماذا لم يولِّ عمر مكرم؟ ماذا سأكتب في مخطوطاتي عن القائد؟!

أخرجه من تساؤلاته المحيرة اقتراب يوسف الفقير منه فاتحًا ذراعيه ووجهه متهللًا، فنهض الحسن شاردًا ليحتضنه في فرحة قلقة مكبوتة لا يدري لها سببًا ملموسًا، فظل جسده متخشبًا وقلبه يتململ بين ضلوعه حيرة وضيقًا.. التفت يمنة ويسرة، ثم استأذن من يوسف الفقير وسجد مرتين.. وظل يدعو ويبتهل حتى سكنت روحه وهدأت نفسه قليلًا

صمت فجأة ونظر للغلام حامل الإناء وانتظر حتى غادر الغرفة ثم سأل يوسف عن مصير أبو دياب وكأنه يهرب من مخاوفه بتساؤله، أطرق الفقير قائلًا:

- كما توقَّعت أنت بالضبط، فقد أطلق البارود على نفسه ومات قبل أن يقتله أخوك..

- أخي؟!

- نعم.. فكمال سيف الدولة كان على رأس القوة التي هاجمت العزبة، وهو الذي دبَّر كل شيء.. حتى جثة أبو دياب مثَّل بها وقطَّعها إربًا وألقاها للذئاب لتنهش بقيتها..

سادت فترة صمت طويلة حتى بدَّدها يوسف الفقير بقنبلة مدوية قائلًا:

- وهو هنا الآن في داري..

تراجع الحسن ملصقًا ظهره بالحائط مذهولًا، وبحركة لا إرادية تحسَّس الطبنجة التي أهداها له أبو دياب.. لكن نظرات يوسف وقسمات وجهه الهادئة طمأنته، ظل يتابعه بعينيه وهو يغادر إلى غرفة مجاورة ليعود بعد برهة وبصحبته كمال الدين شاحب الوجه، زائغ العينين، يرتدي جلبابًا داكنًا وينتعل بُلغة قديمة تالفة.. بدا عليه أنه لم يذُق طعم النوم منذ أيام.. تبادل الأخَوان نظرات صامتة طويلة، ظل الحسن يجزُّ على أسنانه ويعض شفتيه في ضيق، وعيناه مثبتتان على وجه أخيه لا ترمشان، حاصره بنظرات الاحتقار، وأمطره باللعنات من داخله دون أن ينطق، بينما ظل كمال الدين واقفًا أمامه محتفظًا بهدوئه، يبادله النظرات الغاضبة في برودٍ وكأنه يردها له ثانية بقوة.. لاحظ الحسن أنَّ يديه مربوطتين خلف ظهره

بحبـلٍ غليظٍ، وبدت آثار جـروح متقرِّحة على جبهته، وكدمة زرقاء داكنة أسفل جفنه الأيسر..

تطوّع يوسف الفقير بالإجابة راويًا حكايته:

- لمَّا هرب الألفي بك، انسحب كمال الدين مع بعض رجاله واختبئوا فـي مخزن للغلال حتى عثر عليهم صاحبه، فأوسـعهم ضربًا هو وأولاده وقتلوا اثنين منهم وهرب الثالث، أما أخوك فقد رأيته بالمصادفة أول أمس وهـم يقتادونه لإغراقـه في النيل بعدما علَّقوا حجرًا في سـاقه، فأخبرتهم بأنـه مصري قبطي وأنه ضيفي فتركوه إكرامًـا لخاطري، واصطحبته معي وآويته، لكن بعدما استقرَّ بدت أمارات الغدر عليه، وحاول سرقة سلاحنا فقيدناه، لكن إذا ما كنت ترغب في فكِّ وثاقه فأنا...

أشار له الحسن بأن يتركه مقيدًا وهو يعقِّب في ضيق:

- اتركه على حاله فلا أمان له..

بصـق كمال الدين في وجه يوسـف وبدا كثورٍ هائـجٍ وهو يكيل لهما السـباب، محاولًا فكَّ قيوده، فأمر يوسـف الخدم بأن يصطحبوه لحجرة محبسـه، فاقتـادوه بصعوبـةٍ وهو يدفعهم بجسـده الضخم مسـتغلًّا بنيانه القوي وكأن الحياة قد دبَّت فيه مرة أخرى..

- اتركه لي تلك المرة لعلَّها تكون الفرصة الأخيرة..

قالهـا الحسـن بعد تفكيرٍ قصيرٍ وهو يدلف إلـى الحجرة التي وضعوا فيها أخاه، وخلفه يوسف الفقير واضعًا يده على جانبه متحسسًا سلاحه..

كان كمال الدين جاثمًا على ركبتيه ينظر إليهما شـزرًا، دار الحسـن حوله دورتين.. ثم انحنى قرب ذراعيه وفكَّ وثاقه مفاجئًا إيَّاه وهو يقول بثقةٍ:

- أنـت حـر الآن.. اخـرج من الـدار إذا شـئت، لكن لا تعـد ثانية إن استوقفوك.. كـن رجلًا وقل لهم بشـجاعةٍ إنك نائب محتسـب القاهرة، أخبرهم بأصلك المملوكـي، دافع حتى الرمق الأخير عن قائدك الهارب محمد بك الألفي.. هيَّا تحرك وواجه مصيرك كرجل..

ثم دفعه بقدمه في ظهره فتعثَّر كمال الدين وسقط على وجهه.. أخرج يوسـف الفقير سـلاحه وصوَّبه نحـوه، لكنَّ كمال الدين ظـل على رقدته لبرهةٍ، ثم تفحَّص كفَّه اليسـرى، بعدها أحكم غلق قبضته وهو يجزُّ على فكيه بشدة، رفع عينيه ببطءٍ ناحية الحسن قائلًا:

- أريد محادثتك على انفراد..

على الفور خرج يوسف تاركًا لهما صُرَّة ملابس متوسطة قرب الباب، وقف الحسن أمامه قائلًا ببرودٍ لا يخلو من فضولٍ:

- هاتِ ما عندك..

أجابه كمال بنبرةٍ متحدية محذرة:

- تذكر أنني وقفت بجانبك مرَّات عديدة، كنت أستطيع قتلك بسهولة لكنـي لم أفعلهـا، والآن حان وقـت ردِّ الجميل.. لا تظـن أنك أصبحت الأقوى، فالكفة لا تزال متساوية..

اقترب الحسن منه والغضب يقفز من عينيه، وأمسك بثوبه من مقدمة صدره وجذبه بعنفٍ فبَدَا مذعورًا، ثم علا صوته قائلًا:

- اسمعني جيدًا أيها الغبي العنيد، أنت هالك لا محالة؛ فالقائد محمد علي سيجلس على عرش مصر حتمًا، ولن يترك مملوكًا واحدًا ينغِّص عليه فترة ولايته، سيفعل بكم مثلما تفعل أنت بالناموس الذي يقض مضجعك عندما يتسلَّل خفية إلى فراشك وقت النوم..

ظلَّت عينا كمال الدين متعلِّقة بشفتي أخيه الذي استرسل قائلًا:

لا طريق أمامك للنجاة مما أنت فيه سوى الاختفاء من على وجه الأرض، يجب أن تموت قبل أن يصلوا إليك ويقتلوك.. لم يعد هناك وقت، سيحكم مصر بعد شهور قليلة.

فغر كمال الدين عينيه بشدة، وتقلَّبت ملامحه بين الارتباك والاضطراب وراح وجهه يَصفَرُّ، وشفتاه ترتعشان، وقبل أن يفحص كفَّه كعادته أمسك بها الحسن بقوة وهو يعنِّفه:

- دعكَ من كفِّك الآن وافتح أذنيك وافهم ما سأقوله لك جيدًا..

روى الحسن له ما ينتوي عمله معه، فلما فرغ من حديثه، شرد كمال الدين فيما سمعه، لم يرُق له على الإطلاق وظل يُقلِّبه على كل الوجوه، ثم عاد لثورته مرة أخرى وكأنما يستدعيها من داخله بإرادته صارخًا:

- لا تغتر بقوتك ولا تفرح بما أنت فيه الآن، منذ متى وأنتم تتطلَّعون للحكم؟! ثم إن هذا الجنرال ليس مصريًّا، أنتم استبدلتم مَن تعرفونه بمَن

لا تعرفونـه.. وسـتندمون علـى فعلتكم قريبًـا؛ فنحن الحكام الشـرعيون للمحروسة، وسنظل..

ترنَّحت أفكار الحسن واضطربت عقيدته وخشي أن يشم كمال الدين رائحة خوفه فيفترسه، فتماسك وهو يضغط على مخارج ألفاظه بثقةٍ:

- ما تقوله هُراء، فنحن نعرف القائد محمد علي منذ سـنوات، اقتربنا منـه وحاربنا بجواره وعاونـاه من أجل تلك اللحظة، أنت نفسـك راهنت عليـه فـي وقـتٍ ما، ولا شـك عندي أنـه أفضل منكـم جميعًا، وسـيفعل للمحروسة ما تقاعستم أنتم عن فعله تغليبًا لمصالحكم، هذا الرجل حتى ولـو لم يكـن مصريًّا؛ فهو يحب مصـر أكثر من أهلها، أنـا على قناعة أنه الأنسب لحكم المحروسة الآن.. وحتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا

- أنـت واهـم.. تسـبح على صفحـة بحيرة راكدة مـن الغفلة لا تُدرك ما تحتها.. سـترى وجهًا آخر لهذا الرجل الداهية، سـيتخلَّص منكم تباعًا بعدنا، أنت لا تعرفه جيدًا لأنك مثالي أكثر مما ينبغي فترى الأشياء بقلبك فقـط، أما هذا الثعلب فهو يؤسِّـس لإمبراطورية عسـكرية كبيـرة تبدأ من المحروسة ونهايتها طموحه الممتد قدر عمره، معتمدًا على قوته الحربية وصرامته مع أتباعه، والأيام بيننا..

- مـا تقوله لن يغير من رأيـي قيد أُنملة، على الأقل هو لـم يفعل مثلما فعلتـم بأهل المحروسـة، ولا أحسـب أنه سـيكون مثلكم في شـيء، أما مثاليتي فلا شأن لك بها، فأنا أُفضل أن أكون حرًّا على أن أصبح عبدًا لكل

سلطة مثلك، والله لو أشار لك محمد علي بإصبع قدمه لتتولى منصبًا لهرولت إليه زاحفًا على بطنك.. أنت كلب لكل راعٍ..

- المماليك الذين تصفهم بالعبودية هم الذين بنوا لك المساجد والأسبلة، هم الذين ضبطوا الأسواق ومنعوا الغش وأنقذوك من المجاعات، لم يفد مملوك إلى مصر وغادرها أبدًا، أحببناها كأنها وطننا الأصلي.. أحببناها أكثر من أهلها مثلما تصف قائدك المخادع الذي تدافع عنه..

ضحك الحسن ساخرًا وهو يرد عليه:

- هذا لأن لا وطن لعبيد مثلكم، أنتم تستوطنون موطن أسيادكم، لا اختيار لكم أبدًا، مجبرون دائمًا، وكلكم من نفس الوعاء..

أطلَّت ابتسامة استنكار واضحة من شفتي كمال سيف الدولة وهو يشير بإصبعه في وجهه قائلًا:

- الآن ترون أن المماليك أسوأ ما في المحروسة؟! سبحان مغيِّر الأحوال.. أنسيتم كل تاريخنا؟ أنسيتم أننا جزء من هذا البلد مثلنا مثلكم، حتى أصبحنا نسيجًا واحدًا؟ هل تظنون لو أن مصريًّا حكم المحروسة سيكون ملاكًا؟ لا تقل لي نعم وإلا اعتبرتك أبلهًا، فما بالك وقد ولَّيتم عليكم غيركم، ومَن؟ داهية سياسية عسكرية طموحة، دخل مصر مع رجاله المرتزقة منذ بضعة أعوام فقط كمحارب، والآن ترجَّونه ليحكمكم وهو الذي يتمنَّع.. هذه والله من علامات الساعة، ولكن دعك من ذلك كله وأجبني بصدقٍ، ماذا فعلتم لبلدكم لتحكموه؟!

حاول الحسن مقاطعته غاضبًا، عصبيًّا، مرتبكًا، لكن كمال الدين استرسل غير عابئ بانفعالاته:

- دعني أنا أُذكِّرك، فيبدو أن ذاكرتك شاخت في الصحراء، تذكر معي مَن الذي أنقذكم من التتار والمغول؟ ومَن الذي طرد الفرنسيس والإنجليز من بعدهم؟ مَن الذي كان يحمي الوالي بالقلعة؟ ألم نكن نحن؟! أما أنتم فدعني أيضًا أُنعش ذاكرتك، فعندما كنَّا نحارب كنتم تتوارون خلف البراقع، تجلسون مع نسائكم حتى تُقتلوا في بيوتكم، مثلكم مثل الأطفال والعجائز.. أنتم كُسالى لا تُرون إلا في موضعين: الأكل والنوم.. فرحتم بثورتكم علينا وأتيتم بمحمد علي عابرًا على جسر من عقولكم المغيبة إلى عرش مصر..

- هذه كلها كلمات حقٍّ يُراد بها باطل، أنتم حكمتم فلم تعدلوا، أنتم نهبتم خيرات المحروسة فغنمتم بغير حق، أنتم تركتم المصريين يتضورون جوعًا وفقرًا ومرضا حتى أشرفوا على الهلاك في حين كبرت كروشكم، أصولكم الحقيرة جعلتكم تُنكِّلون بنا وتظنون أننا عبيد مثلكم حتى أذهلناكم بثورتنا عليكم وجُنَّ جنونكم وقتها من المصريين الذين ملأوا الشوارع والميادين، اسمعني الآن للمرة الأخيرة، فأنا ليس لديَّ وقت أضيعه في جدالٍ عقيم معك، باب الدار مفتوح أمامك، اُخرج إن أردت فلا خيار لك غيره إلاَّ أن تطيعني في كل أوامري من الآن فصاعدًا وحتى تلقى وجه ربك، وإلا فلتغرب عن وجهي إلى الأبد.

صمت كمال الدين وجلس مرتكنًا بظهره على الجدار حتى طال وقت تفكيره ثم لمعت عيناه فجأة فالتفت إلى أخيه سائلًا بمكر:

- وكيـف أعود إلى داري فـي الجيزة آمنًا إذا ما وافقتـك، فأنا لا أريد أن أموت هنا..

اسـتدار الحسـن وأعطاه ظهره وهـو يتنفَّس الصعداء بعمـقٍ، ويتمتم حامـدًا ربـه، هـدأت نفسـه قليـلًا، ثـم التفـت ناحيته وقـذف إليـه بُصرَّة الملابـس التي كان يوسـف قد أحضرها، وتركه وانصـرف دون أن ينطق بحرفٍ واحدٍ.

***

وقـف العبـد صالـح ممسـكًا بلجـام حصـان الحسـن وبغلـة كبيرة، يراقب السـفينة القادمة من الصعيد وهي ترسـو في مينـاء الجيزة، يترقب وصول سـيده حسبما قال له المُعلم جرجس.. عشرات الركاب يغادرون ولا أثر للحسن جمال الدين حسبما أخبروه، لما طرق اليأس جوانبه ودقَّ قلبه بعنفٍ كان القدر به رحيمًا، شـاهده أخيرًا يهبط من السـفينة متكاسلًا وخلفـه بخطوتين امرأة ضخمة البنيان، فارعة الطول، تضع برقعًا سـميكًا يخفـي كل ملامحهـا حتى عينيهـا، اقتربا منـه واحتضنه الحسـن بحرارةٍ شديدةٍ هاتفًا بانفعالٍ:

- أنـت مـن اليوم حرٌّ يا صالـح، لقد أعتقتك وكل مَن فـي الدار، وإذا أردتم البقاء لخدمتنا فأهلًا بكم..

بكى العبد متأثرًا وهو يقسم بأغلظ الأيمان ألا يتركه أبدًا.. فربَّت الحسن كتفه بودٍّ شديدٍ، تململت المرأة المبرقعة في وقفتها وراحت تحثُّ الحسن وتستعجله على المضي للدار، أطلَّت ابتسامة صالح من وسط دموعه وهو

يبارك للحسن على زواجه.. كاد كمال الدين يصفع صالح على وجهه لولا أنه تماسك في اللحظة الأخيرة، بينما غرق الحسن في ضحكاته مقهقهًا حتى كاد يستلقي على ظهره، ثم أشار لصالح بأن يأخذها خلفه على الدابة.. واعتلى هو صهوة جواده منطلقًا نحو داره على ضفاف النيل بالجيزة؛ فقد كان يفتقدها أكثر من أي وقتٍ مضى.. سرح في أثناء سيره بالحصان في يوسف الفقير، ذلك الفتى الذي بات يشعر بوحشة شديدة تجاهه رغم مرور أيام قليلة على فراقهما في المنيا.. هزَّ رأسه وهو يبتسم بهدوء متذكرًا اليوم الأخير الذي غادر فيه مع كمال الدين المرتدي زي امرأة ليستقلَّا السفينة، لم يقوَ الحسن يومها على وداع يوسف فترك له رسالة ورحل وهو نائم، دوَّن له فيها كلمات قليلة: «لن أودِّعك؛ فكلي ثقة أننا سنلتقي عن قريبٍ؛ فالنوايا الطيبة تتلاقى حتمًا».

وصلا إلى الدار وذهب كل منهما إلى جناحه.. كان ناجي يقف خلف النافذة، فلما شاهد عمَّه يدخل إلى فناء الحديقة بالحصان جرى ناهبًا الدرج الحجري في سرعة حتى طواه بقفزتين، ثم انطلق كالسهم نحوه.. انحنى الحسن متكئًا على ركبتيه في انتظار القطار الصغير المندفع الذي اصطدم بصدره بشدة وهو يطوِّقه بذراعيه النحليتين، ويلتصق به كمن يريد أن يدفن رأسه بين ضلوعه.. لم يتحمَّل ناجي أكثر وانفجرت دموع الشوق كالينابيع حتى بلَّلت ثوب عمِّه الذي حمله بين ذراعيه بعد أن قبَّل رأسه في حنوٍّ شديد، في حين رمق كمال سيف الدولة ناجي بنظرة شاردة باردة لا تشي بأي مشاعر، وخلع البرقع في عصبية ورماه بعيدًا واتجه إلى جناحه دون أن يتحدَّث مع أحد.

رفع الحسن عينيه نحو المشربية بعد ما شعر بوجودها.. صدق حدسه فتوقف أسفلها مباشرة رافعًا رأسه.. راح يناجيها بعينيه، وقلبه يناديها بلهفة واشتياق:

- ها أنا قد عدت..

- وأنا دومًا في انتظارك..

سمع كلماتها فهزَّت وجدانه بعنفٍ وهي تهمس بها من خلف اليشمك الحريري الأبيض الشفاف؛ ليتجلَّى ثغرها المبتسم ابتسامة رضا بلقاء حبيبها بعد غياب طويل لوعها الشوق فيه حتى غلبها..

في تلك الليلة كان القمر بدرًا يرسل خيوطه عبر النوافذ والمشربيات، فاستطاع ناجي أن يلمح الحسن بوضوح وهو يصعد الدرج الحجري ثلاثًا ثلاثًا في لهفةٍ حتى بلغ حجرتها في جناح الحريم.. احتضنها بشدة ولم يتكلَّما لفترةٍ طالت وهي تتفرَّس في وجهه وتصافح عيناه عينيها في شوق وشغف، ثم تحكي له ما ألَمَّ بها على مدار تسعة أشهر حتى ظهر هو من جديد..

- ما أشق أن تبكي بلا دموع! وما أصعب أن تذهب بلا أمل في رجوع! وما أقسى أن تشعر بالضيق ورحابة المكان من حولك تضيق عليك! عدني بأنك لن تنساني أبدًا مرة أخرى ولن تبتعد عني مثلما فعلت..

ألصق الحسن كفيه على خديها وهو يقول:

- لم ولن أنساكِ أبدًا، حتى عندما ابتعدت مجبرًا، كنت أُقلِّب كتاب عمري، أتصفح أوراق الحلم، أقرأ سطور تاريخكِ معي، سأتذكركِ دومًا وسيظل الحنين يأخذني إليكِ للأبد..

- ستجدني في انتظارك كلما أغمضت عينيك..

قالتها وهي تبتسم، ثم راحت تنسحب مبتعدة عنه حتى اهتزت صورتها أمام عينيه.. تراقصت قليلًا ثم بدأت تتلاشى رويدًا رويدًا حتى اختفت.. غمر ضي القمر حجرته من القبة الزجاجية المزركشة وسلط ضوءه على وجهه، لم يكد يغفل قليلًا حتى فرك الحسن عينيه وقد هبَّ فزعًا من نومه على صوت نحيب أشبه بعواء الذئب، صرخة مكتومة مصحوبة بأنين مجروح..

كانت لمعة عينيه وشعره المهوَّش وهيئته الرثة من جرَّاء الرحلة وما قبلها تجعل كمال سيف الدولة يبدو مجنونًا وهو يصرخ غاضبًا عندما أبلغه صالح بأن زوجته وردشان لم تختفِ بمفردها، وإنما هربت مع حارسه زهير وأخذت من القبو صناديق كثيرة تحت تهديد الأسلحة التي كان يحملها زهير ورجاله في أثناء فترة غيابه بالمنيا.. جرى كمال الدين حافيًا حتى بلغ باب السر المؤدي للقبو.. دخله بسهولة بعد أن تركته وردشان مفتوحًا وراءها، وقف لبرهة طويلة يتأمل الفراغ بعدما حملت صناديق الذهب والهدايا الثمينة فباتت الحجرة مقفرة، فقيرة، خاوية على عروشها، راح يتحسس الجدران بكفِّه ثم يلصق ظهره به ولا يكاد يصدِّق

ما حدث.. مرَّت حياته كلها أمام عينيه وهو مغمض بشدة وقد زمَّ جبهته وعقدها ووجهه باكٍ بلا دموع.. أناته تصدح مدوية من جراحه العميقة، أنهكته حتى شعر بأن قواه تخور تدريجًا وراح جسده ينزلق ببطءٍ شديدٍ على جدارن الحجرة، فارتطم بأرضيتها فجأة، ثم مال على جانبه الأيسر وتكوَّم جسمه الضخم كجنين حوت غرق ولفظته الأمواج من البحر فبدا كجثةٍ هامدةٍ بلا حراك..

مضت الجنازة المهيبة من المسجد الصغير القريب قرب سفح جبل المقطم الصخري، لتنعرج يسارًا وتسير أقل من خمسين مترًا لتستقر عند شاهد صغير حوله فناء متوسط، نفس المكان الذي دفن فيه صالح أمهما العجوز منذ شهور ولم يستطع الحسن أن يحضر جنازتها لهربه بالصحراء، كان ناجي الصغير يمسك بيد عمِّه ووجهه حزين بلا دموع، ومن بعيد ترتفع كل فترة أصوات عويل وبكاء من نسوة مُتشحات بالسواد، سارت الجنازة ببطءٍ شديدٍ وكأن الميت يعاند قدره حتى بعد أن غادرت الروح جسده، على مسافة من الجنازة كان رجل ضخم يتوارى خلف شواهد قبور قريبة، وهو يضع شالًا كبيرًا على رأسه يخفي ملامحه بعناية، ويسحب خلفه حصانه ويتحسس سلاحه كل فترة، ينقل بصره بين القلعة دار الحكم وبين النعش الذي لا يسير لتترقرق دموعه ولا تنساب أبدًا وعقله حائر أيتركها تنهمر ندمًا على أعماله؟ أم رثاءً لحاله؟ فلما أعيته الحيلة تركها ساكنة..

لما بلغـت الجنازة منتهاها واسـتعد الرجال ليـواروا الجثمان التراب، راح الرجل الضخم يتفرَّس في كفِّه اليسرى بدقة، ويتراجع بخطواته مبتعدًا ولا تغفـل عينـاه عن خطوط يده التـي لا تنمحي أبدًا، وقف الحسـن على بـاب القبر بعد أن وُوري الجثمان ليتلقَّى العـزاء في وفاة أخيه كمال الدين سـيف الدولة، بدا متجهمًا ومتوترًا في آنٍ واحـدٍ ولـم يهدأ له بالٌ إلا عندما زادت أعداد الوافدين لعزائه، فلما كثر الناس وطال الوقت وهم وقوف أمام المقبرة بدأت قسماته تميل للارتياح ودبَّ فيه النشاط أكثر..!

في طريق العودة للدار، وضع الحسن يده على كتف ناجي وقد اختارا أن يعودا سيرًا على الأقدام..

- ردَّدت اسم نورسين كثيرًا وأنت نائم أمس!

ابتسم له الحسن لأول مرة بعد الجنازة قائلًا ووجهه يشع فرحة:

- دعنـي أروِ أجمـل حلم رأيته فـي حياتي؛ لأن لك نصيبًـا كبيرًا فيه، وكلي ثقة أنك ستكمله من بعدي، فأنت الوحيد الأقرب إلى تحقيقه..

- حُلم؟!

- نعـم.. لو لم نحلم تمـوت أرواحنا، الأحلام هي التي تعطيك إرادة الحيـاة، وفي سـكون الليل يصبح الخيـال رائدك، فاتبـع خطواته مطمئنًا واخلع رداء الواقع برفق واستسلم لمتعة الحلم..

- ولكن إذا فشلت سأندم على الوقت الذي أضعته في أحلام..

- لا.. لـن تنـدم، فعلـى الأقل سـتُحب حياتك كما هي حتـى ولو لم تستطع تغييرها، واعلم أن الأمور الجيدة لا تحدث لمن ينتظرها، بل لمن يسعى إليها، وأولى خطوات السعي.. الحلم.

***

23
قبل المذبحة بقليل

- سيدخلون يومها من هذه البوابة، وسيتجمَّعون في الممر الطويل الذي يظهر هنا أمامكم، وبعدها ستلقون عليهم كلمتكم من شرفة قاعة الأعمدة، وستدور عليهم أكواب الشراب، ثم يتوجهون إلى ناحية باب العزب لتوديع ابنكم طوسون بك، وفي تلك اللحظة سنجعلهم في منتصف الصفوف تمامًا بحيث تنفصل المؤخرة والمقدمة عنهم فجأة عند هذا المنحدر، ووقتها سنغلق الأبواب و...

توقَّف محمد بك لاظوغلي نائب الباشا عن الحديث إثر دخول كاتم أسرار الوالي مخبرًا إياه بأن كبير الكتبة يطلب لقاءه لأمرٍ هام لا يحتمل التأجيل، أشار محمد علي باشا بإصبعه له كي يدخل، وراح القائد العسكري لاظوغلي يلملم في سرعة مشوبة بالغموض خريطة القلعة التي كان يشرح عليها خطوط السير للباشا محييًا الحسن بإيماءةٍ خفيفةٍ متحفظة من رأسه عند خروجه محتفظًا بملامحه المتجهمة الصارمة وكأنها لا تفارق وجهه أبدًا..

انحنى الحسن محييًا محمد علي باشا الذي بادره بابتسامة خفيفة قائلًا وهو يتجه لركن القاعة شبه المظلم ليجلس على الأريكة:

- ماذا وراءك أيها الشاطر حسن؟

لم يبتسم الحسن تلك المرة، فمنذ فترة طويلة لم يعد اللقب يُطربه كما كان، تغير وقعه على أذنيه حتى بات يشعره أحيانًا بالحيرة، طالما حاول إقناع نفسه أنه مُبالغ في شعوره لكنه لم يجد لنفسه مخرجًا، وصار دومًا يصطدم بجدارٍ عالٍ في نهاية المطاف، فيدور في مكانه في حلقات مفرغة لا يسمع فيها إلا عبارة واحدة يتردَّد صداها بقوةٍ.. «آن لهذا البلد أن يستقر»!

وقف أمام الباشا مترددًا لفترةٍ طال الصمت فيها حتى قال بنبرة قلقة:

- أريد أن أفاتحكم في أمر عرفته من وراء ظهركم، فهل تعطيني الأمان؟!

لم يرد محمد علي على الفور، وإنما ظلَّ على ابتسامته وإن خفتت قليلًا، ثم أشار له بالجلوس دون أن ينظر إليه قائلًا:

- ومنذ متى تطلب الأمان لتتكلم؟ ألا تعلم أن مكانتك عندي لا تحتاج لذلك؟!

ردَّ الحسن وقد اكتسب ثقة:

- لم أعد أعلم أي شيء منذ أن نفيتم عمر أفندي مكرم إلى دمياط، وصار المُعلم جرجس لا يُبارح داره بالصعيد إلا بإذنك، والشيخ...

كان وقع الكلام ثقيلًا على أذني الباشا، فامتعض وجهه وتعكَّر مزاجه وخفتت النبرة الودود التي كان يتحدَّث بها، ولاحت سحب الغضب على ملامحه وهو يقول بحدَّةٍ مقاطعًا الحسن:

- أصبحت تتحدَّث مثلهم، كلكم ترون الأمور بسيطة وكأننا في نزهة، لماذا لم تفكروا هكذا وقتما كنا نحاربهم؟ هل نسيتم جرائمهم؟ لماذا كنت تغامر بحياتك معي إذن على مدار عشر سنوات منذ أن رأيتك لأول مرة؟ هل تناسيت أن أخاك كمال سيف الدولة كان أول مَن سيقتلك لو لم يتوفاه الله في المنيا؟ لماذا فعلها مكرم وجرجس من قبلك وتعاونوا معي ضد المماليك؟ لماذا خرجت زينب خاتون بآلاف الحريم من النساء المصريات إذن؟ أجبني..

التقط أنفاسه ثم أردف بنفس الحدة:

- سأجيبك أنا.. لأنكم ببساطة لو فكرتم وقتها مثلما تفكرون الآن، لكنتم التمستم لهؤلاء المماليك ألف عذر، أنت الآن في الجانب الآخر من النهر ويجب أن تراهم من مكانك، من موقع السلطة والقوة، هؤلاء يهددون استقرار المحروسة، ولم يعد أمامي بديل سوى الخلاص منهم، حاولت كثيرًا ضمَّهم لجانبي لكنهم مراوغون لا أمان لهم مثل العقارب، ولن أتفرَّغ سنوات لمحاربتهم أو محايلتهم، بينما الأمر قد لا يستغرق مني سوى يوم بليلة فقط..

- هذا ما تظنه يا مولانا، لكنها ليلة بألف ليلة سوداء من بعدها، سيأكل الناس بعضهم بعضًا، سيسود منطق القوة الغاشمة ويتفشَّى الغدر بيننا،

سيعلو صوت المنافقين والمتحذلقين وما أكثرهم، لن يلتفَّ حولك منصف أو عاقل، سيتركون مواقعهم للجهلاء، سيصيبهم السعار جميعًا ويتاجرون بالاستقرار المنشود وسُترتكب أكبر الجرائم باسمه، أنت والي مصر والسودان وسيد بلاد النوبة وكردفان، لا تشغل بالك بهذا القطيع الذي يسير وراءك متظاهرًا بمناصرتك لكنه يهتف لمصالحه همسًا فلا تسمعه، فكل دار بالمحروسة بها واحد أو أكثر منهم يعيشون معنا في سلام منذ أن توليت وعلى مدار خمس سنوات ونصف حتى الآن لم يُبدِ أي منهم ما يدل على سوء النوايا، أنا أكرههم أكثر منك ولم أتحالف معهم مثلما فعلت أنت يومًا ما، وإذا ما كان بينهم مجرمون وقتلة فاقتلهم، وسأكون أول من يعلِّق رؤوسهم على أبواب القاهرة، ولكن مَن آمن لك فاعطه الأمان واتركه يعِش معنا..

سكت الحسن قليلًا ليلتقط أنفاسه المتقطعة، وتلألأت في عينيه قطرتان من الماء الصافي من جرَّاء انفعاله، ثم أردف:

- الآن أغلب بكواتهم وأمرائهم يقيمون في أقصى الصعيد بعيدًا عنك، يطلبون الأمان ويعيشون حياة خشنة زاهدة و...

قاطعه الباشا بإشارة من يده قائلًا بحسم:

- هؤلاء الذين تحسبهم زاهدين يتحينون الفرصة للانقضاض على القلعة في أي وقت مثلهم مثل كلاب الراعي يسيل لعابها طمعًا في الشاة التي ذبحها أمامهم وكانوا قبلها بقليل يتظاهرون بحراستها بنباحهم المتواصل، أنت عاطفي أكثر من اللازم، فلن ترى الصورة بدقة أبدًا..

صمت قليلًا، ثم أردف بعصبية وهو يشير إلى كرسي العرش في نهاية القاعة:

- لو جلست هناك يومًا واحدًا، سترى نفسك مجبرًا في أحيانٍ كثيرةٍ على ما تفعله.. أنت تختار دومًا بين بدائل كل منها أصعب من الآخر، والآن أنا مضطر على الاختيار بين وسائل الخلاص منهم لأستقر على أقلها ضررًا..

- وما الذي يضطرك إلى محاربتهم مرة أخرى؟ أنت تعطيهم قُبلة الحياة، سيظلون دومًا ضحايا.. سيحاربونك وسيكونون أشد شراسة فليس لديهم ما يخسرونه، صدِّقني لقد انتهوا بنهاية نفوذ أمرائهم، سيدعمونك ويؤيدونك إذا ما أعطيتهم الأمان، وأنت تفعلها في الخفاء وتحرِّض عليها كبيرهم شاهين بك وهو طوع أمرك، فلماذا تنكرها في العلن؟

- ليس كل ما يُعرف يُقال، ولم يطلب أحد رأيك، أنا أحكم ولاية مهددة من فلول المماليك في الصعيد وجحافل الوهابيين في الحجاز، لا أدير دكانًا لبيع العطارة كما تظن، والمعرفة بالنسبة لك يجب أن تكون على قدر الحاجة، هل تريد أن ترى المحروسة مثل الحجاز؟ أنت عاطفي يتداخل قلبك مع عقلك فيتغلَّب عليه، مثلك مثل كل الثائرين، تحلمون كثيرًا متجاوزين واقعكم دائمًا، متى تفيق مما أنت فيه؟ هذا بلد يريد أهله الاستقرار، يريدون الطعام والمأوى، كفانا ثورات فلن أسمح بها مرة

ثالثة، وإلا سترى كل يومٍ واليًا جديدًا يجلس على هذا العرش حتى يأتي غيره ليزيحه ويعلِّق رأسه على باب زويلة..

أطرق الحسن يائسًا لبرهة، ثم سرعان ما رفع رأسه وهَمَّ بالحديث مرة أخيرة ليرجوه تخفيف الضرائب التي صار يرفعها كل عامٍ، وكي يفك أسر مكرم وجرجس ويؤجِّل ما ينتويه للمماليك بعد أيام قليلة ليعطيهم فرصة أخيرة، لكنَّ الباشا لم يُعر حديثه اهتمامًا تلك المرة، بدا صارمًا، حادًّا، وتقلَّبت ملامحه كالبحر وقت النوة، ثم أمر بمثول كاتم الأسرار فورًا، فلما حضر خاطبه بصوتٍ عالٍ قائلًا:

- أحضر بعضًا من رجالك ليعاونوه في عمله، ثم انتقِ أفضلهم ليحلَّ محله؛ فقد سئم ابن الرومي حياة الدواوين، ويريد أن يستريح ويرغب في إعفائه من منصبه، وسنجيبه لما طَلبه في أقرب فرصة لنريحه للأبد..!

لم يكد الحسن يغادر قاعة العرش، حتى كان محمد علي يطلب القائد لاظوغلي وكبير البصاصين على الفور، فلما مثلا بين يديه قال بلهجةٍ آمرةٍ:

- لا أريد أن يغادر الحسن الرومي داره من اليوم وحتى ننتهي مما نحن مقبلون عليه.. يبدو أنه لا يزال يدوِّن كل ما يدور حوله كعادته منذ أن عرفته.

***

بطوله الفارع، وظهره المنحني قليلًا، كان شاهين بك يسير في ممرٍّ طويلٍ مؤدٍّ إلى قاعة العرش بالقلعة، حتى حسبه لن ينتهي أبدًا من فرط

طوله، وما إن دلف إليها حتى ألفاها خافتة الإضاءة، شبه مُعتمة، يتلمَّس المرء طريقه فيها بالكاد، في نهايتها وإلى اليسار قليلًا كان محمد علي باشا جالسًا على أريكة خضراء كبيرة، وبجواره شمعدانًا كبيرًا ترسل شموعه الاثنتي عشرة ضوءًا غير مباشر على وجهه الذي بدا مجهدًا نوعًا ما، مرتديًا ملابسه العسكرية المزركشة، فبات أشبه بثعلبٍ أحمر عجوز، لكنَّ عينيه تشعان بريقًا غريبًا كالمعتاد، اقترب المملوك، الذي تنحدر أصوله من بيت الألفي بك، بخطواتٍ سريعةٍ، ثم انحنى أمام الباشا مقدمًا فروض الطاعة والولاء حتى أذن له بالجلوس على مسافةٍ بعيدةٍ وضعوا له بها مقعدًا منخفضًا بغير ظهرٍ فظل منتبهًا كزاوية قائمة طوال اللقاء.. رحَّب الباشا به لكن في فتور، ثم أشار له بأن يقول ما عنده مبرزًا له تململه الشديد ليختصر..

- جئت لأهنئكم بانتصاركم على فلول المماليك وفرارهم السريع من قواتكم في بهنسا بقيادة ابنكم الأسد الجسور إبراهيم بك دفتردار المحروسة والذي تعقَّبهم حتى الجبال بالمدفعية وتمكن من قتل وأسر نحو ستمئة مملوك ماشاء الله، وبلغني اليوم أن سبعة من كبار البكوات يطلبون الأمان بالإضافة لغيرهم من العسكر المماليك، والأمر لكم من قبل ومن بعد..

أتمَّ حديثه وهبَّ واقفًا ممسكًا بمخطوطٍ يضم أسماء طالبي الأمان من الباشا، فأشار بعينيه لكاتم الأسرار فتقدَّم وفرده، ولما انتهى من قراءة أسماء البكوات، لم يكن من بينهم اسم علي بك الكبير، فامتعض

محمد علي قليلًا، وراح الرجل يتلو على مسامع الباشا أسماء عسكر المماليك، فأشار له بيده ليتوقف آمرًا بإعطائهم جميعًا الأمان، ثم أردف بصوتٍ عالٍ متعمدًا أن يسمعه شاهين بك بوضوح:

- ولا تنسَ أن تدعو هؤلاء البكوات مع الباقين على الاحتفال بابننا قبل أن يخرج على رأس الجيش للحجاز، سنقيم مأدبة كبيرة لهم لتصفو النفوس تمامًا..

التفت الباشا بعدها إلى شاهين بك قائلًا بجدية:

- اسمع ما سأقوله لك، اليوم تراجع عسكر المماليك بعيدًا عن مجرى النيل في الفيوم بعدما غمر الفيضان الأرض وانسحبوا ناحية بحر يوسف، وهناك أقاويل كثيرة عن المصالحة وأنني أرفضها، أريدك بصفتك زعيم المماليك المصرلية أن تؤكد لهم على أن...

قاطعه شاهين بحماس:

- بالطبع يا مولانا، سأؤكد لهم أنكم تقبلون المصالحة والعفو وتعطون الأمان و...

قطع محمد علي حديثه معنفًا إياه بشدة:

- انتظر واسمع للنهاية، ولا تقاطع مرة أخرى.. أريدك أن تؤكد لهم صحة ما يشاع بأنني لا أقبل المصالحة، وأن مَن يروج لها هم القائمون على الباب العالي في إستنبول وقنصل فرنسا في القاهرة، اجعلهم في حيرة، قلقين دائمًا، هذه واحدة، أما الثانية فبصفتك مسئولًا عن دائرة

جمرك بولاق فإنني أصدرت فرمانًا اليوم برفع الرسوم على الغلال لتبلغ اثني عشر قرشًا على الإردب، سيُعلمونك به عند خروجك من هنا وعليك تنفيذه بصرامةٍ، ولكن استثنِ المشايخ وكبار قادة الجيش منه مؤقتًا كالمعتاد..

سكت وهلةً، ثم أردف مؤكدًا:

- لا تنسَ أن تنفي نيتنا للمصالحة، اترك المماليك يتخبَّطون كما هم حتى موعد الاحتفال، ووقتها سيكون لنا كلام كثير..

- أمرك يا مولانا، ولكن بعضهم بالفعل يريد الأمان مثلما فعلت معي، أنا كنت أحسب أنك...

- انتهى اللقاء يا شاهين بك، اذهب لتنفذ ما أمرتك به وتذكر جيدًا أن مَن يُرد الأمان يعرف طريقه، ولا يسأل كثيرًا مثلما فعلت أنت من قبل.. هيا انصرف.

***

أزاح شاهين بك أغصان الأشجار جانبًا كي لا تصطدم بوجهه من جرَّاء اهتزازها على إيقاع نسائم الفجر، كان يسير بجوار كمال الدين في حديقة دار سيف الدولة وصمت القبور يلف المكان بإحكام فلا يُسمع سوى صوت أوراق الشجر الجافة وهي تتفتت تحت أحذيتهما الضخمة.. تلك هي المرة الرابعة التي يزوره فيها خفية، لا أحد يعرف أبدًا، فقد كان كمال الدين يخرج إلى لقائه في الحديقة الخلفية من مخرج القبو المطل

عليها حتى لا يلحظه العبد صالح أو سيد الدار الحسن الرومي، بدا كمال الدين شبحًا نحيلًا وقد طالت لحيته حتى قاربت صرَّته وهو يرفل داخل قميصه القطني الواسع المائل للصفرة، والذي يصل كمَّاه الواسعان حتى رؤوس أصابعه، فكان يزيحه للوراء قليلًا كل فترةٍ ليختلس نظرة عابرة لكفِّه اليسرى بعدما تمكنت منه تلك العادة حتى استعبدته..

اختارا ركنًا قصيًّا في نهاية حديقة الدار وافترشا العشب، ارتكن أحدهما على جدارها الحجري والآخر اختار جذع شجرة عجوز.. تقافزت أمارات اللهفة على وجه كمال الدين وهي تتلوى شوقًا لمن يروي ظمأها.. سنوات لم يخرج من قبوه حتى بات أشبه بقبرٍ لا يرى فيه إلا صالح ليُطعمه أو ابنه ناجي ليسامره.. تلك هي المرة الرابعة التي يخرج منه إلى الحديقة منذ بدأ شاهين بك وبعض البكوات يتردَّدون عليه خفية ليتدبروا أمرهم معه بعد ما عرفوا أنه لم يمت عندما أرسل لهم في الخفاء جلهوم رسولًا ليبلغهم خوفًا على تجارته من البوار، ابتسم له شاهين نصف ابتسامة قائلًا بثقة:

- لقد رضخ الباشا أخيرًا وعرف أن الله حق، كل أسبوع يرسل لنا رسولًا ليجس النبض ويجزل العطايا.. فمن كثرة ما أرهقنا قواته بات يستجدي سلامًا ومصالحة.. ولكنه يصر على أن يفعلها في الخفاء وهو ما يحيرني قليلًا..

ثم اتسعت ابتسامته وهو يردف:

- قتلنا المئات من الأرناؤوط منذ شهور على حدود مدينة جرجا فأجبرنا قواته على التقهقر، ولم يعرف طعم النصر إلا عندما انضممت لصفوفه فرجحت كفة قواته..

علت الدهشة وجه كمال الدين فعاجله شاهين قائلًا بفخرٍ:

- نعم.. تعاونت معه عن قناعة بمصلحتي ولا شيء أكثر، لقد سئمت الفرار كفأرٍ مطاردٍ طوال الوقت.. انتهزت الفرصة من خلال القنصل الإنجليزي الذي دبَّر لي لقاءً معه منذ شهرين، فلما أعطاني الأمان مهَّدت له الطريق من جرجا حتى بهنسا في الفيوم، كان يسير بمحاذاة النهر بقواته، ينتقل من قرية إلى قرية في خفة قِطٍّ، هذا الرجل داهية عسكرية ينقصها العتاد والرجال فقط، ولو قاد لنا جيوشنا لامتدت المحروسة من الإسكندرية شمالًا إلى بلاد البربر جنوبًا..

قالها وضحك..

لمعت عينا كمال الدين وبدأت روحه تدب في أوصاله، ومع ذلك خرجت نبرة كلامه متشككة قليلًا:

- هل تظن أننا سنعود لنحكم المحروسة مرة أخرى؟ هل نستطيع؟!

ربَّت شاهين كتفه ضاحكًا في سخرية، ثم انقلبت سحنته وهو يقول بجدية وحزم:

- نعود؟ ها أنا أمامك الآن أدير ديوان الجمرك ببولاق فضلًا عن أن الباشا قد عوَّضني بستمئة كيس من الفضة لما أتيت له بمئة من رجالي

وبايعوه واليًا عليهم، هذا والله إنعام سخي من الباشا ما كنت أحلم به تحت إمرة بكواتنا البرديسي أو الألفي، وكل يوم يعطي الأمان لبعضنا.. وإذا ما زاد عددنا واطمأن لنا..

صمت برهة وتلفَّت حوله، ثم قال بصوتٍ خفيضٍ:

- سنتمكن من عزله، أو على أقل تقدير سنشارك في حكم المحروسة معه.. لم يعد هناك ما يقلقه منَّا بعد موت عثمان البرديسي ومحمد الألفي.. وفيما يبدو أن الباب العالي على وشك الخلاص منه بعدما سيطر محمد بن عبد الوهاب على الحرمين الشريفين وأجبر الباشا على إرسال جيش لمحاربته حتى يستعيد سيطرته على الحجاز، هذه الجبهات ستشتت تركيزه عنَّا، وتضعف قواته التي يحتمي بها..

شرد كمال الدين، في حين راح شاهين بك يُسهب وهو يروي له مقابلاته السرية مع محمد علي باشا وكيف انتزع منه مؤخرًا تصريحًا بتصدير الحبوب لحسابه إلى مالطة بشراكة مع قنصل إنجلترا، حيث يتم شحنها على سفن ترفع أعلامًا إنجليزية، ثم عرج على موضوع قوات المماليك المتمركزة في الصعيد واصفًا له كيف تخرج كتائبهم صبيحة كل يوم إلى الجبال الواقعة بين أسيوط وسوهاج، ويتدربون هناك على الرماية من خلال التصويب على آنية خزفية صغيرة، ويرمون السهام ويتقاتلون بالسيوف ويصنعون كعكات البارود، مختتمًا حديثه في سخرية قائلًا:

- واهمـون للأسـف، يظنون أنهم سيحاربون قُطَّاع طرقٍ، سـيقضي عليهم الباشـا بجيشه المنظم، ويبيدهم في أيامٍ قليلةٍ لو لـم يطلبوا الأمان. هذه فرصتنا الأخيرة..

لوى كمال الدين شفتيه وهو يهز رأسه مؤيدًا كلام شاهين، فهو يدرك أنه رغم قوة المماليك وجسـارتهم في المعارك، إلا أنهم غير منظمين، فليس لديهـم زي خاص للحروب، ولا نظام عسـكري صـارم للجيوش، فهم لا يمتثلون أبدًا لأمرٍ على غير هواهم، وتجمُّعهم أشبه بغوغاءٍ، وسيرهم أقرب لفوضى، وفنون قتالهم لا تتجلى إلا في حواري وشوارع المدن، يحرصون أشـد الحـرص على إرهـاب عدوهم وإلقـاء الخوف والهلع فـي قلبه قبل المعركـة ليفتِّتـوا عزيمتـه ويوفـروا مجهودهم، عـادة ما يمتطـي البكوات الخيول المطهمة ويقبعون في الصفوف الوسطى وسط خدمهم وعبيدهم، تسبقهم الطبول وكتائب الرماة والمدفعجية وعسكر المقاتلين..

قطع شاهين بك أفكاره وكأنما كان يقرأها معه قائلًا:

- لا تدعِ الوساوس تنهش عقلك، لو لـم نكن نخيفه ونقلقه لما ترأس بنفسه الجيوش في منفلوط لقتالنا الشهر الماضي، ولما سعى لاستمالتي إلـى صفوفـه، ولما حـرص على دعـوة كل البكوات إلى مأدبـة مصالحة وتشـاور بحجة أن ابنه سـيخرج على رأس جيش للحجاز، أنا أيقنت بعد لقائـي الأخيـر معه أنه بات قاب قوسـين أو أدنى من تـرك منطقة الصعيد لنـا ليتفرَّغ لفتوحاته العسـكرية خارج حدود المحروسـة وتحقيق أحلام

الإمبراطورية التي تراوده، وهذا ما كنا نريده ولا نملك حتى رفاهية الحلم به منذ سنوات قريبة عندما تولى عرش مصر، وها هو يقدمه لنا على طبق من ذهب مزخرفًا بخوفه منا، ولا أظن أنه يدبِّر مؤامرة تلك المرة.. فهل نرفض؟!

سكت قليلًا ثم أردف بمكرٍ هامسًا:

- ولا تنسَ أن أخاك صار كبير كتبة ديوان الباشا، وبيده إعادتك للحياة، يجب أن تستغله لصالحنا فهو ظهر قوي لنا نرتكن عليه وقت اللزوم، وعين أمينة تنقل لنا بوادر غدر الثعلب إذا ما انتوى افتراسنا..

زمَّ كمال الدين شفتيه في مرارةٍ على ذكر سيرة أخيه وغطَّى وجهه ندم فات أوانه منذ زمن بعيد، كان يدرك جيدًا أن الحسن لن يتعاون معه أو مع البكوات أبدًا؛ لأنه أخبر الوالي محمد علي باشا بأن أخاه كمال سيف الدولة نائب محتسب مماليك القاهرة قد مات ودُفن، فكيف يحُييه بعد ما صار رميمًا، لن يغفر له محمد علي تلك الخديعة لو عرفها وسيطير رقبتيهما بضربة واحدة.. أغمض عينيه في ضيقٍ وهو يهمس محادثًا نفسه:

- أنا أدفع بمفردي ثمن أخطائي غاليًا، لعنة الله على اليوم الذي وافقت الحسن فيه على مماتي، فهو يُضيق عليَّ في تحركاتي داخل القبو، فما بالك إذا ما حاولت مغادرة الدار، ألف لعنة على الإنجليز أجمعين الذين تخلوا عني في أحلك أوقاتي، هم السبب فيما أنا فيه الآن..

مضت فترة صمت طويلة حتى عادت عينا كمال الدين تبرقان أكثر، وسرى بعض القلق بوجدانه وأطلت غريزة العسس برأسها كأفعى مفترسة، هل يفكر الباشا في ذات الأمر الذي فكر هو فيه من قبل؟ هل يدبر لهم مكيدة مثلما كان الجزايرلي باشا ينتوي عملها معهم؟ ثم قال شاردًا وهو يعبث بلحيته الطويلة محدثًا نفسه بصوتٍ عالٍ، ناظرًا إلى السماء التي شقَّتها خطوط النهار برفق:

- كيف تعيش الذئاب آمنة في كنف ثعلب؟! هل تستطيع؟

هزَّ رأسه مرتين، ثم تمتم وهو يتفرَّس في عيني شاهين بك:

- لا أظن.. لا بد وأن تأكله قبل أن يهم بالتهامها.. متى تُقام هذه المأدبة التي يرتب لها الباشا يا شاهين بك؟

- بعد ثلاثة أيام، وأنت مدعو إليها.. فالباشا كلفني بدعوة كل مَن أعرفهم من الأمراء والبكوات وكبار الموظفين؛ لذا أتيت إليك اليوم، لا بد وأن تعود للحياة من جديد، اخرج من ماضيك، أنا ساعدتك على استرداد ذهبك وجانب كبير من أموالك مقابل ترك زهير ووردشان يرحلان إلى دنقلة، حياتهما نظير ما سرقاه وكانت القسمة عادلة، ثم إن تجارتنا سويًّا مربحة، ليس لديك حجة، لا تتردد وسأمر عليك يومها قرب الظهيرة لنذهب سويًّا ولا تنسَ ارتداء زيك العسكري الأحمر، يجب أن تكون لنا هيبة أمامه ولا بد أن نخيفه..

- لا تقلق، ستكون لنا هيبة أكثر مما كنا عليه، وسنُلقي الرعب في قلبه، وستولد محروسة جديدة على أيدينا بعد ثلاثة أيام من الآن..

سكت برهة ثم أضاف وهو ينظر بعيدًا إلى لا شيء:

- فليذهب الحسن بأوامره إلى الجحيم.. فقد آن لهذا البلد أن يستقر..!

***

24
الناجي

استيقظ الحسن من نومه عند شقشقة الفجر الخجلة وهي تداعب عتمة الليل على استحياء لتخلع عنها رداءها برفق، لم يعرف من شدة تعبه وهو يفرك عينيه إذا ما كانت تلك بدايات نهار جديد، أم شمس تغرب مرة أخرى، فظل متكاسلًا لا يريد مبارحة فراشه ويقاوم النشاط وكأنه يرفض يومه، ويريده أن ينقضي قبل أن يبدأ.. تقلَّب في فراشه ليجد ناجي لا يزال نائمًا هو الآخر وكأنما يشاركه كابوسه، راح يتأمله، كان الفتى لا يزال يحتفظ بوجهه الطفولي، كل ما زاد عليه خط رفيع من الزغب أسفل أنفه، وشعيرات متناثرة على وجنتيه وأسفل فوديه الرفيعين بعدما أكمل عامه السابع عشر منذ أيام قليلة..

جلسا يتناولان إفطارهما وصالح يقف على مقربة ليخدمهما وقد طال الشيب مقدمة رأسه وفوديه بغزارة.. التفت له الحسن مداعبًا:

- هل أنزلت طعام الإفطار إلى كمال في القبو أم نسيت أنه يقيم به أيها الرجل العجوز؟!

ابتسم الخادم صالح كاشفًا ما تبقّى له من أسنان وهو يقول بهدوئه المعتاد:

- وكيف أنسى؟ ظللنا وقتها يومًا كاملًا نبحث عن جثةٍ لرجلٍ حتى ندفنها بدلًا منه، وتلقينا العزاء فيه ثلاثة أيام بعدها.. كانت أيامًا صعبة يا مولانا.. سبحان الله الهادي!

سعل قليلًا ثم أردف:

- وضعت له الطعام على باب القبو وطرقت الباب ثلاثًا مثلما أفعل كل يوم لكنه لم يفتح كعادته، فهو لا يلتقي أحدًا منذ أسابيع سوى سيدي ناجي..

- اذهب يا ناجي لتطمئن عليه.. ثم الحق بي في الشرفة، سأنتظرك؛ فأنا لا رغبة لي في العمل اليوم..

قالها الحسن وهو ينهض مغادرًا طبلية الإفطار..

- وماذا يفعل مستخدم صغير مثلي إذا ما قلّد رئيسه في العمل ولم يذهب هو الآخر إلى الديوان؟ أنا لا أريد أن أفقد وظيفتي بسبب تقليدي لعمّي يا سيدي..

قالها وهو يضحك ومضى في طريقه إلى القبو بنهاية الدار..

تنهد الحسن طويلًا وهو يلقي نظرة طويلة من شرفة داره التي خرج إليها بعدما شعر باختناق، لاحت له من بعيد أسوار القلعة التي ارتفعت في السنوات الست الماضية ثلاثة أضعاف، وكل برهة تُمد الجسور لتدخل

فرقة من فرق بكوات المماليك، بزيهم العسكري الأحمر، وسيوفهم تلمع على جنوبهم وتعزف فرق الموسيقى مارشًا عسكريًّا لهم، ليستقروا في الممر الطويل خلف البوابة الجنوبية حتى يأذن لهم الباشا بلقائه بعدما دعاهم إلى وليمة عظيمة لتصفية الخلافات بينهم، واحتفالًا بابنه طوسون قائد الجيوش..

التفت على حركة خفيفة خلفه، كان ناجي قد عاد لكنه شارد قليلًا..

- ماذا بك؟

- لا شيء..

قالها ناجي ثم رسم ابتسامة مصطنعة أقنعت عمَّه بحسن أحواله مردفًا بسرعة:

- لماذا لن تذهب لعملك بالقلعة؟

- لا حاجة لهم بي بعد اليوم..

ثم أردف الحسن بصوتٍ خفيضٍ:

- أنا الآن أنتظر كلمة النهاية.. لا أملك حتى مغادرة داري!

لم يستوعب ناجي ما قاله عمُّه فأراد تغيير دفة الحديث ليُخرجه من همومه التي لا يعرف لها سببًا واضحًا:

- سمعت أن الباشا سيحتفل مع البكوات احتفالًا مهيبًا اليوم، ومنذ فترة وهم يستعدون لهذا الحفل، وعلمت أيضًا أنه سيتصالح معهم ويعفو

عنهم وقد يعيد بعضهم إلى مناصب كبيرة بمناسبة خروج ابنه طوسون بك على رأس جيش للحجاز، هكذا يتردد الكلام على المقاهي، ألا يجعلك ذلك كله تحضر الاحتفال على الأقل بصفتك كبير كتبة الديوان، وربما تحتاج مساعدة من أحد مستخدميك الصغار أيضًا..

قالها وهو يضحك بمكر..

ابتسم الحسن له ابتسامة واسعة حتى كشف عن صفي أسنانه البيضاء وهو يهز رأسه نافيًا، ثم عاد لوجومه.. ألحَّ عليه ناجي في السؤال عمَّا يؤرقه فأخبره بعد مراوغة طويلة:

– لم نعد كما كنَّا منذ عشر سنوات، ولا يمكن أن نعيش في حروب داخلية طوال حياتنا، أنا حاربت المماليك وقتلت منهم الكثيرين وقت أن كانت الكلمة العليا للسيف والمدفع، وهم الذين بادروا باستخدامهما، لكن الآن الأمر مختلف، للأسف يا ناجي الجميع لا يرى إلا قارب نجاته وحده، ودعاة الإقصاء والمحبذين للمذبحة صوتهم أعلى حسًّا وأقوى أثرًا، رغم أنهم سيتصدرون صفوف القطيع في زمن الفتنة إذا ما وقعت لا قدَّر الله..

سكت وأطرق قليلًا، ثم استرسل بأسى:

– واقعنا الآن بات أشبه بسفاحٍ مجنونٍ يقتل أرواحنا ببطءٍ ويئِد أفكارنا تباعًا ليرقص بعدها طربًا على أشلائنا..

تحشرج صوت الحسن وهو يردف:

- لديَّ شكوك أن لاظوغلي المقرب جدًّا من الباشا وضع خطة للخلاص منهم خلال أيام وصادفت هوى لديه، ولكنني خفت أن أفاتحه فيها وإلا اعتقلني.. وللأسف لا أعرف تفاصيلها..

ثم تنهد بأسى قائلًا:

- والمماليك أغبياء، وأخطاؤهم فادحة ولا تهمهم مصلحة المحروسة قدر مصلحتهم، فسهلوا عليه المهمة وقدَّموا له ما تبقَّى منهم على طبقٍ من ذهب، وهم يظنون أنه سيرضخ لهم، أسكرتهم السلطة ولا يزالون يترنحون من نشوتها، ويسعون إليها مرة أخرى فيما يبدو أو هكذا قيل لي، وكأنهم بعد كل هذه السنوات لم يفهموا بعد تركيبة المصريين..

انفعل فجأة وهو يكمل حديثه غير ملتفتٍ لناجي وقد لمعت عيناه:

- لكن هناك منهم مَن لم يرتكب ذنبًا يذكر، لم يكونوا كلهم ضدنا، وهناك مَن لا ذنب لهم سوى أنهم ولدوا لأب من المماليك.. مثلك أنت يا ناجي..

ظل يسترسل في الحديث وقد أخذه الحماس بلا توقف، فروى له كيف أن الجميع لم يوافقوه على رأيه، وعلا التيار ضده وحده حتى جرفه وحيدًا كجذع شجرة يابس لا لزوم له حتى فقد سيطرته على مساره وبات ينتظر أن يهوي به السيل في أي لحظة..

بعد برهة من الوقت، وفي التفاتة عابرة من عيني الحسن لوجه ناجي، لاحظ تجهُّمه ولمح أمارات الفزع تبدو عليه وتتزايد دموعه بمقلتيه كالسحب قبل الانهمار وهو يثبت عينيه على القلعة البعيدة شاردًا..

فبادره بالسؤال قلقًا:

- ماذا بك؟

- أبي..

- ماذا حدث له؟!

- عندما طلبت مني الذهاب إليه منذ قليل، ألفيته ارتدى زيًّا عسكريًّا وقفازًا في كفِّه اليسرى فقط ولم أفهم لماذا.. سألته فاكتفى بابتسامة واثقة، بعدها أخرج سيفه من جرابه ولمَّعه باهتمامٍ حتى برق، ثم أخبرني بأنه سيغادر الدار مع شاهين بك، ولم يقُل لي إلَى أين هو ذاهب، وألححت عليه بالسؤال فكان كل ما قاله كلامًا غير مفهوم، مبتسر العبارات، أشبه بسكرات الموت..

- ماذا قال لك؟ وإلى أين ينوي الذهاب؟

تدافعت أسئلة الحسن بقلقٍ بالغٍ تتزايد نبرته وهو يهرول ناحية القبو وخلفه ناجي قائلًا بأنفاس متلاحقة:

- قال بزهوٍ وغرورٍ: لقد تحقق أخيرًا الحلم الذي انتظرته وراهنت على حدوثه، لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا بدوننا.. آن الأوان لهذا البلد أن يستقر على أيدينا.

***

كان الجنود الأرناؤوط والسودانيون يحيطون بالقلعة بكثافة شديدة وقد تراصَّت خمسة مدافع ضخمة كالأسود، واحد أمام كل بوابة،

وعُلِّقت الأعلام على أسوارها، ورُفعت البيارق على البروج.. مدافع كبيرة أخرى على مقربة من ميدان الرميلة، وكتائب فرسان على رأس الشوارع المحيطة به، حركة غير معتادة وكأنهم سيعلنون الحرب بعد قليل.. عشرات المماليك تدخل من البوابة الرئيسية، انتصف النهار وبعده بقليل صُفقت بوابات القلعة تباعًا فجأة، رُفعت الجسور قبلها في سرعة، أعقبها دوي البارود عاليًا وهو يُطلق بكثافةٍ من فتحات الأسوار المطلة على الممر الطويل خلف البوابة الجنوبية والمعد لاستقبال بكوات المماليك وكانوا قد اكتظوا به منذ الصباح منتظرين..

دقائق أخرى مرَّت طويلة بطيئة تعالت خلالها أصوات صهيل خيول وحمحمتها، والتي فيما يبدو كانت تتساقط فزعة على منزلق من جرَّاء حصد أرواح فوارسها.. بينما تتوالى وتتناوب عليهم عسكر الباشا، فرقة تطلق البارود حتى تفرغ بنادقها فيتوارون لحشوها مرة تلو الأخرى، بينما يحل محلهم مثلهم وأكثر ليمطروا البكوات بفاصلٍ ثانٍ وثالثٍ من البارود، حتى تساقطوا كأوراق الخريف في مهبِّ الريح إلا قليلًا..

وقف الحسن فجأة متوترًا والتفت إلى ناجي المضطرب وكأنه غير مصدق ما سمعه، ومن خلفهما كان كمال سيف الدولة يقف بكامل زيِّه العسكري الأحمر الناري، يضع سيفه عن يمينه وطبنجته في منتصف بطنه، وعيناه مفتوحتان في ذهولٍ، وأصوات دانات المدافع تخترق آذانهم فتهزُّ وجدانهم بشدةٍ وترجُّهم وتزلزل الأرض من تحتهم، تبادل الحسن النظرات مع أخيه، وعيناه تكادان تنطقان:

- لولا أدركتك عند باب السِّر لكنت الآن كالشاة في المذبحة..

تهاوى كمال على وسادة جلدية ضخمة وهو يستند بكفيه على الحائط، خلع قفازه الأيسر في بطءٍ وألقى نظرة بطيئة بغير اكتراث على كفه اليسرى، انتفض بعدها كمن لدغته عقرب وهو يحملق في كفه وينظر إلى الحسن وناجي في فزعٍ دون أن ينطق، وقد بسط كفه في مواجهتهما فزادهما دهشة..!

***

كان قرص الشمس يبدو مترددًا بين التوهج والغروب في لحظة فارقة، مرَّت ليلة كاملة ونصف يوم على مقتل أربعمئة مملوك على الأقل من البكوات، فلزم المصريون ديارهم خانعين، خائفين، فلما كان صباح اليوم التالي الثاني من شهر مارس عام 1811، نزل محمد علي وابناه طوسون وإبراهيم وبصحبتهم رجاله من الأرناؤوط طافوا بالبيوت المجاورة لميدان الرميلة والشوراع المؤدية إليه، لم يتركوا مملوكًا إلا ودقوا عنقه، قرب نهاية اليوم كان عدد القتلى قد تجاوز الألف مملوك بقليل، وفرَّ الباقون ناحية الصعيد وهم يرتدون الخُمُر والبراقع، ووشى بهم المصريون خوفًا على حياتهم من بطش الأرناؤوط، ونزل الرعب في قلوب الجميع بغير استثناء..

من ناحية الفسطاط سار ركب مهيب على رأسه محمد علي عابرًا النيل من مصر القديمة، كانت نسائم الربيع تهز النخيل العالي فيتمايل

وكأنه يولول في أسى على الجثامين المنثورة في الطرقات مبتورة الرؤوس التي طارت في يوم ونصف اليوم ولم يعد أحد يعرف أصحابها فنهشتها الكلاب، دُفعت أبواب دار سيف الدولة دفعًا حتى خُلعت من مفاصلها، ودخل الجند بخيولهم إلى صحن الدار، راح عشرات الجنود يفتشون غرف الدار كلها وحظيرتها، ومَن قاومهم من العبيد أطلقوا عليه البارود في الحال فأردوه قتيلًا، وقف الحسن قلقًا وعلى مقربة منه ناجي وأمارات الفزع ترتسم على وجهه والعرق يتفصَّد منه باردًا من شدة الخوف، وعلى مقربة منهما كان أربعة من جنود الأرناؤوط مشهرين بنادقهم وقد صوبوها إليهما في انتظار الأمر بإنهاء حياتهما.. بينما راح محمد علي ينظر في غضب للحسن نظرة طويلة وكأنه يلومه على خروجه من القطيع، كل برهة يقترب رجل ويهمس في أذن لاظوغلي بكلمات قليلة ليتجهَّم وجهه وينظر إلى محمد علي بملامح صلدة، ووجه جامد لا حياة فيه، فتبرق عينا الباشا في وعيد، تكرَّر الأمر ثلاثًا حتى ظهر فجأة اثنان من الجنود فارعي الطول يجرَّان خلفهما كمال سيف الدولة بعدما شدَّا وثاقه تمامًا وكمَّما فمه ليكُف عن السباب، بدا كثورٍ هائجٍ آن ذبحه لكنه يقاوم حتى الرمق الأخير، علت ابتسامة تشف على وجه لاظوغلي نقلها بسرعة إلى محمد علي الذي التفت ناحية الحسن قائلًا:

- ألم أقل لك إنهم كلاب لا أمان لهم؟ أنت خُنتني وتوهمت أنك تستطيع خداعي عندما أقمت جنازة لأخيك، كانت لديَّ شكوك ناحيتك

بعدما شـك فيـك كبير البصاصين، لكننـي لـم أهتم وقتها بهـذه الصغائر، وبالأمـس وقبـل أن تطيـر رقبـة شـاهين بك وشـى بكمال سـيف الدولة وأخبرنا بأنك منعته من مغادرة الدار..

ثم أردف بحزمٍ:

- أنت تستَّرت على مجرمين وخالفت إرادتنا ولا بد من عقابك.

سُـحبت للوراء الأجزاء المعدنية لإبـر إطلاق البارود، واتخذ الجنود وضع الاستعداد.. كان الفزع قد غطَّى وجه ناجي تمامًا وانعقد لسانه عن الكلام، لكن محمد علي أشار لأحد حرَّاسه بعينه فاقترب من كمال سيف الدولة مشهرًا سيفه وأطار رأسه بضربةٍ واحدةٍ..

مال الحسن بجسده وقلبه ناحية جثمان كمال، ثم صرخ من أعماقه:

- أخـي..

لكنه لـم يسمع مجيبًا.

التفت محمد علي ناحية الحسن قائلًا بوعيدٍ:

- أين مخطوطاتك التي كنت تدونها يومًا بعد يوم على مدار السنوات الفائتة؟

أجابه الحسن بصعوبة وصوته يتحشرج، ودموعه تترقرق في عينيه:

- أحرقتها كلها منذ فترةٍ بعيدةٍ، فلم تعد لي حاجة بها أو دافع لاستكمالها بعدما توليتم عرش مصر.. لم أكتب حرفًا من وقتها..

همس لاظوغلي في أذن الباشا بأنهم لم يجدوا أثرًا للمخطوطات في الدار أو الحانوت..

قبل أن يغادر محمد علي دار سيف الدولة، رمق ناجي بنظرة حادة فاحصة ارتعدت لها فرائصه وهو يسأله:

- هل تجيد القراءة والكتابة؟

أومأ الفتى بالإيجاب ودموعه تنساب على خديه وهو يبكي بكاءً صامتًا قائلًا بلعثمة:

- أنا أعمل في الديوان..

قالها وظل يتفرس في وجه محمد علي الذي انحنى أمامه منذ سنوات ليقبل يده وهو طفل.. طالت نظراته حتى كاد يفقد صوابه..

***

- لا بد أنه بخيرٍ وإلا كانوا قد أخبروك بمقتله لتموت كمدًا، صدقني أنا أعرفهم أكثر منك، فقد مضى عليَّ هنا أكثر من ست سنوات..

لم يرد الحسن على رفيق زنزانته بسجن العرقانة الذي أُلقي فيه منذ شهور وبقي بلا محاكمة، اقترب مستندًا على الجدار متحاملًا على نفسه من جرَّاء هُزاله ومرضه حتى وقف قرب الباب يرهف السمع لعل حارسه

جلهوم يقترب فيعيد عليه سؤاله الذي لا ييأس من تكراره كل يوم عدة مرات:

- ما مصير ابن أخي ناجي؟ ماذا فعلتم به؟ أين ناجي؟!

لكن لا أحد يجيبه أبدًا..

تهادت سفينة ضخمة على صفحة مياه البحر المتوسط مغادرة ميناء الإسكندرية في طريقها إلى مرسيليا وعلى متنها عشرة مبعوثين مصريين من المحروسة لتلقي العلوم والمعارف المختلفة، كان أحدهم منطويًا على نفسه، منزويًا في قمرته لا يحادث أحدًا ولا يفارق الحزن ملامحه وكأنه بات لصيقًا بها، أحكم الفتى اليافع غلق باب القمرة الضيقة التي يقيم فيها، وأخرج من حقيبته الكبيرة صندوقًا متوسطًا من الخشب وقد تآكلت بعض حوافه من جرَّاء دفنه في الحديقة، وفتحه ببطءٍ ويداه ترتشعان لتصادف عيناه مخطوطات الحسن جمال الدين الرومي عن سنوات عشر مضت، وقد اختار لها عنوانًا ثابتًا لا يتغير بتغير الحكام، شعر برهبة، ثم شارفت ابتسامة سخرية على الولوج من بين شفتيه، ولمعت عيناه بشدة وهو يقرأ المقدمة التي دونها الحسن بأنه قد تقوم دولة بعض الوقت بمستبدٍ كفءٍ، لكن لا يوجد أبدًا مستبد عادل..

ثم عاد يتمتم مرددًا العنوان الذي اختاره عمه ونسخه بخط كبير في أول كل مخطوطة.. كاد يسمع ضحكات الحسن الساخرة وهو يمر بعينيه عليه.. «آن لها أن تستقر»..

هزَّ رأسه واكتست ملامحه بجدية حقيقية ومضى يقرأ ببطء ليستوعب:

«كان من السهل عليَّ أن أردد كل يوم أنني أجد طعامي وملبسي وشرابي، لديَّ عملي الذي يحسدني الكثيرون عليه، سأقبل عرضه وإلحاحه لمشاركته في التجارة مع بكوات المماليك، سيتدفق المال بين يدي مثلما يغرق كفي عند الوضوء بلا حساب، سأسد أذني كل لحظة بأن كل ما يحدث لها على مر السنين أمر بعيد عني فلست طامعًا في شيء أكثر مما أنا فيه وسأكتفي بالمشاهدة والتأمل وليجلس على عرشها مَنْ يريد.. ما أسهل ذلك، لكنني لم أستطع أن أفعلها، لم أتحمل رؤيتها تُهان وتُمتهن كل حين، كلهم كانوا يرتدون أقنعة ليخدعوها، خلعوها بعدما اقتحموا فراشها عنوة، وهي لم تقبل فلم تكن لها إرادة يومًا ما.. ولم تجرؤ على أن ترفض.. كيف لها أن تجادل رجل دين بالحجة أو تقاوم آخر عسكريًّا جثم عليها بقواته وجنوده؟ من أين لها بالحكمة لترفض مَنْ يفرض عليها سلطان نفوذه ويغريها بذهبه؟ كانت تلتزم الصمت مجبرة، حتى الأجنبي طمع في جسدها ومالها ونال منها بعضًا مما أراد.. وكلما أبدت تذمرها ومقاومتها قيل لها: القادم أفضل.. لتكتشف أنهم تناوبوا اغتصابها تحت ستار الشرع تارة، وبالمكر والخديعة تارة، وبالقوة تارات أخرى كثيرة، لكن من اليوم لن أتركها تعيش جارية مرة أخرى، سأحررها من قيودها حتى لو فقدت حياتي.. فيا ولدي الحبيب ناجي أرجوك امنح

عقلـك فرصة كاملـة للتفكير، فالقطيع سـوف يمر من أمامك، سـيغريك بالانضمـام إليه، وسـيفعل كل ما في وسـعه حتى لا يتركك تغـرد منفردًا أبـدًا، ولكن ثق في قدراتك وفي إيمانـك بربك، واعلم أن التغريد خارج السـرب في بعض الأحيان قد يكون مفيدًا لتتوازن مع نفسك، فربما تقود صفـوف هـذا القطيع أو غيـره إلى الأفضل فـي يومٍ قريـب أو على الأقل تنجو بعقلك.

الاثنين 9 جمادى الأول 1220هـ الموافق 5 أغسطس 1805م

الحسن بن جمال الدين الرومي

«تمت»

أشرف العشماوي

17 ديسمبر 2014

تنويه

لكتابة رواية ذات أحداث تاريخية كان لا بد من إعادة قراءة الكثير من المراجع والنصوص، وللأمانة الأدبية فإن من بين عشرات الكتب التي قرأتها في أثناء التحضير للكتابة، كان للعناوين التالية أثر مهم في تكوين الخلفية التاريخية والنفسية لأبطال الرواية، ومن ثم فلا بد من توجيه الشكر والعرفان لمؤلفيها على ما بذلوه من جهد كبير بها ساعدني على تخيل تلك الفترة التاريخية بوضوح، وهي بغير ترتيب كالتالي:

- صفحات من تاريخ مصر / عبد الرحمن الجبرتي / مكتبة مدبولي.
- رؤية الرحالة الأورُبيين لمصر / الدكتور إلهام ذهني / دار الشروق.
- سيرة القاهرة / ستانلي لينبول / المركز القومي للترجمة.
- قسمة القدر العجيب لمحمد علي باشا / نيفين يسري / دار لورينتال.
- مائتا عام على الحملة الفرنسية / رؤوف عباس / مكتبة الدار العربية للكتاب.

• محمد علي ونابليون.. مراسلات قناصل فرنسا / المركز القومي للترجمة.

• مصر في عصرالفوضى / ترجمة حسين محمود/ المركز القومي للترجمة.

• حصاد الأيام / حسن العشماوي/ مذكرات منشورة بمجلة روزاليوسف 1983.

• عصر سلاطين المماليك / قاسم عبده قاسم / عين للدراسات والبحوث.

• التطور العمراني لشوارع القاهرة / فتحي الحديدي/ الدار المصرية اللبنانية.

• كل رجال الباشا / خالد فهمي / دار الشروق.

• برقيات قنصل النمسا في القاهرة / دي روسيتي / محفوظة بدار الوثائق القومية.

• موسوعة وصف مصر / مكتبة الأسرة / الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أشرف العشماوي

كلاب الراعي

"هؤلاء الذين تحسبهم زاهدين يتحينون الفرصة للانقضاض على القلعة في أي وقت، مثلهم مثل كلاب الراعي يسيل لعابها طمعًا في الشاة التي ذبحها أمامهم وكانوا قبلها يتظاهرون بحمايتها بنباحهم المتواصل".

.. هذه الرواية تأسرك منذ فصولها الأولى، وقد أجاد "العشماوي" في وصف تلك الفترة التي نجح في بناء عالمها بدعائم تاريخية وقدرات تخيلية تضيف إلى بعدها التاريخي، وتفوق في رسم الشخصيات وجغرافية الأماكن وبعث الروح في المؤامرات التي كانت تدور آنذاك، سواء من فلول المماليك، أو قناصل الدول الغربية بمصر، أو محمد علي ورجاله، أو الوالي التركي وأتباعه ضد المصريين كافة من قبط ومسلمين، فكأنك تراها ماثلة أمامك بنفس أزياء وتصرفات ذلك الزمن، وقد ساعده في ذلك استخدام الإيقاع السريع الذي روى به الأحداث، والشخوص التي اجتهد في جعلها مثيرة للجدل، والجهد البحثي الذي جعله يصف المعارك والحياة في ذلك العصر بتميز..

مكاوي سعيد

أشرف العشماوي قاض مصري بمحكمة استئناف القاهرة، وروائي صدرت له روايات: "زمن الضباع" 2011 ، "تويا" 2012 التي وصلت للقائمة الطويلة للجائزة العالمية لأفضل رواية عربية "البوكر" ، "المرشد" 2013، "البارمان" 2014. كما نشر عام 2012 كتابا وثائقيا بالصور النادرة والمستندات عن سرقة الآثار المصرية وتهريبها بعنوان: "سرقات مشروعة"، وبيعت مؤخرا حقوق الملكية الفكرية لروايتي "المرشد" و"البارمان" لتحويلهما إلى أعمال درامية.

9 789774 279461

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

الدار المصرية اللبنانية